المجد المنيف

للقدس الشريف

بقلم الشيخ عبد الله نجيب سالم

تم تنـــزيل هذه المادة من

منبر التوحيد والجهاد

http://www.tawhed.ws
http://www.almaqdese.com
http://www.alsunnah.info

فهرس الكتاب

- المقدمة
- خصائص المسجد الأقصى ومزاياه
- ومضات من التاريخ القديم للمسجد الأقصى وبيت المقدس
- بيت المقدس وأحداث الإسراء والمعراج
- الفتح الإسلامي لبيت المقدس
- بيت المقدس في العهد الأموي والعباسي
- بيت المقدس في عيون الرحالة المسلمين
- الأحوال السياسية عند بداية دخول الصليبيين للمشرق
- سقوط القدس وأصداؤه
- تحرير القدس من الصليبيين
- القدس في عهد المماليك والعثمانين
- دليل المسجد الأقصى بكافة معالمه
- القدس أسيرة في يد اليهود والإنجليز

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله بارئ النَّسَم، ومُوجد الخلق من العَدَم، قدّر الأشياء بحكمته، وأبداها إلى الوجود بقدرته، فهو الحكيم القادر، والمريد القاهر، والخالق المدبر، والعزيز المتجبر، تعالى عن خلقه وهو معهم أينما كانوا، وغاب عن أنظارهم وهو أعلم بما عملوا ودانوا، ليس كمثله شيء من الأشياء، إذ كل شيء غيره مخلوق ومصنوع وهباء، وهو السميع البصير إليه تُرْفع الأَكُفُّ بالدعاء.

سبحانه.. سبحانه كم له من لطف خفي بخلقه وهم عنه غافلون، وكم أمهل المذنبين منهم لعلهم إليه يتوبون، وكم أعلى شأن الطائعين ورَفَع، وذكّر الأسماع بفضائلهم وقرع. أحمده حمد من أظهر ذله بين يديه، وتبرأ من حَوْله وطَوْله التجاءً إليه، وأشكره شكر من نطقت جوارحه بالثناء عليه، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

والصلاة والسلام التامان الكاملان على سيد الخلق أجمعين، وخاتم الأنبياء والمرسلين: محمد بن عبدالله.

أشهد أنه عبد الله ورسوله، وصفيه وخليله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، فأدى الأمانة وبلّغ الرسالة، وكشف الغُمّة ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى لقي ربه راضياً مرضياً.

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد طب القلوب ودوائها، وعافية الأبدان وشفائها، ونور الأبصار وضيائها، وعلى آله وصحبه في كل لمحة ونفس عدد ما هو معلوم لك.

أما بعد:

فإن مدينة القدس من أقدم وأقدس المدن الشرقية، بل هي من عرائسها المَجْلّيّة ودررها الياقوتية، خطب ودها على مدى حقب التاريخ القديم كافة الملوك العظام،

والسلاطين الكبار، والقواد الطامحون، وتفيأ ظلال جدرانها واستنشق عبير هوائها وتمتع ببهي منظر دوحها وبساتينها الأنبياءُ المخلصون، والعلماءُ المبدعون والصلحاءُ المتبتلون، وحاول هؤلاء وأولئك جميعاً التودد إليها واكتساب بركتها وترك آثار شاهدة فيها، وبناء معابد ومساجد ومصليات في جنباتها، حتى غدت مخزن الذكريات التاريخية لمختلف الحقب، وأصبحت الشاهد الناطق بمخلفات الملوك والدول والشعوب.

بل إن هذه المدينة العروس لم تسلم من غضبة الجبابرة الطغاة، ولا نقمة الجيوش الجرارة، ولا حقد العداة المتربصين. إذ لم تَحْنِ هامتها أمامهم، ولم تبذل شرفها في عتباتهم... فدمرت مرات ومرات، واستبيحت كرات بعد كرات، وذاقت الغصص ونفثت الزفرات.

إنها القدس، أو بيت المقدس، أو إيلياء، أو مدينة داود، أو يبوس، أو أورشليم.

مدينة لم تغب عن ذكريات عصر من العصور، أو حقبة من الحقب، منذ القديم الغابر إلى الحديث المعاصر... اقترن اسمها لدى البعض بآدم من حيث أقدمية بناء مسجدها المقدس، ثم تردد ذكرها مع نبأ إبراهيم ولوط وداود وسليمان وموسى وعيسى ويحيى وزكريا ومحمد عليهم جميعاً أفضل الصلوات والتسليم.

ذكر اسمها أو أشير إليها في الكتب السماوية الثلاث الرئيسية: التوراة والإنجيل والقرآن، وكانت محور الاهتمام ومدار الأحداث في عهود العرب الأقدمين واليهود الغابرين والفرس والروم المتصارعين، والمسلمين الفاتحين والصليبيين الحاقدين، والتتار الغازين والإنجليز المستعمرين ثم الإسرائيليين الدمويين.

مدينة كان لها مع إشراقة كل شمس سطر خالد في التاريخ: إما لنبي مرسل، أو مَلِك محنك، أو حواري داعٍ، أو صحابي جليل، أو عالم مفكر، أو متعبد منقطع، أو شاعر مرهف، أو فنان مبدع!!

وهذا المجد التليد لمدينة القدس من بعض أسباب تحريك عزمي، وتوكيد القصد لدي، في الاهتمام والتتبع، ثم تجميع المادة العلمية التاريخية، التي تتعلق بهذه المدينة العظيمة الخالدة، ثم نظم عقدها، ونثر أزاهيرها، وترتيب حقائقها، وتجلية غوامضها، وبسط مزاياها، وضم ثناياها.

لكن المجد الغابر للقدس لم يكن السبب الوحيد والمحرك الفريد، بل لو لم يكن ذلك كله موجوداً لكان لي في الأحداث الحية والوقائع الحالية والظروف الواقعية

والتخوفات المستقبلية على المدينة العظيمة (القدس) والإقليم المبارك (فلسطين) والمنطقة المجاورة (الدول العربية) والعالم المهتم (العالم الإسلامي) - وأنا جزء من ذلك كله - أكبرُ دافع ومحرك، ومهيج وسائق، وسبب ومبرر للكتابة التي تُلْفتُ الأنظار إلى الأخطار، وتكشف الدقائق من الحقائق، وتميط اللثام عما استتر من نوايا العدو والآثام، فيما يتعلق بالقدس الشريف ومسجدها المبارك وشعبها المسلم.

إننا جميعاً - مسلمين وعرباً - مستهدفون، أفراداً وجماعات، وحكومات ومؤسسات، وأنظمة وشركات، للهجمة اليهودية الصهيونية المعاصرة، التي دعمتها وقوّى ساعدها وشد أزرها مكر صليبي مسيحي قديم وحديث، لم يكن في يوم من الأيام متخفياً ولا مستتراً، ولا مجاملاً ولا متعذراً.

فالمسلمون اليوم لا يواجهون اليهود وما في نفوسهم من حقد قديم وثارات تاريخية ماضية فقط، بل إنهم بكل صراحة وعلانية كذلك في مواجهة النصارى الذين قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، فكان من نصارى عصرنا لليهود الغازين لبلادنا - في خضم هذا الصراع - الدعم المالي والتأييد السياسي والمدد العسكري، وكانت منهم البيانات والتصريحات المساندة، والتهديدات والإرعادات المتوعدة، والأعتدة والأسلحة المقاتلة، والتعهدات المتكررة المطمئنة إلى مصير واحد للطرفين: اليهود والنصارى، كيف لا، والنصارى المعاصرون لم ينسوا الحروب الصليبية التي حشدوا فيها كل طاقاتهم، ودمروا فيها كل ما نالته أيديهم، وخرجوا منها خائبين يلعقون جراحهم، ويجرون أذيال خيبتهم.

ألم يحق بعد ذلك أن نكتب باستفاضة عن القدس؟!

ويأتي الاهتمام بمدينة القدس تاريخاً نسرده بأمانة، وعقيدة نتحث عنها بإخلاص وتفاعل، وفضائل جمة تتعلق بالمكان والناس والأحداث، وأمانيّ وأحلاماً وتطلعات تداعب الخيال ويضطرم بها الفؤاد... في الوقت الذي تشهد فيه أرض الإسراء وما حولها (القدس وفلسطين) أحداثاً أسماها البعض (انتفاضة) وأسماها آخرون (ثورة) وما هي إلا جهاد أولي، وحرب واضحة، وصراع وجود بين عقيدتين متنافرتين لا يمكن أن تتعايشا معاً ما دامت الصهيونية اليهودية تسعى لتزييف التاريخ وتغيير معالم الأرض وطمس الوجود البشري، وتحقيق الأحلام المريضة على حساب العرب المسلمين في فلسطين.

ولن تتخلى العقلية الصهيونية عن ذلك، لأنه أساس بنيتها وقاعدة عمودها وأركان دعوتها، فكيف لها أن تؤمن بالسلام والأمن والتعايش السلمي والعدل والإنصاف

وغير ذلك من مفردات وكلمات!!! وهي التي قامت على اغتصاب الأرض وطرد الشعب وانتهاك الحقوق؟

إن اليهود منذ أن دخلت جحافلهم القسم الشرقي من بيت المقدس في عام ١٩٦٧ لم يتوقفوا لحظة واحدة عن العمل الدؤوب المتواصل لطمس المعالم التاريخية للمدينة، وتغيير جغرافيتها السكانية، وهدم وتعطيل كل بقعة شريفة وأثر خالد للمسلمين، وذلك ابتداء من المسجد الأقصى الذي يوجه إليه النصيب الأكبر من المكر والأذى، إلى مسجد قبة الصخرة الذي جرت عدة محاولات لتدنيسه، إلى الحرم القدسي بما فيه من حائط البراق الذي استولى اليهود على قسم كبير منه، إلى حي المغاربة الذي هدم بالكامل، إلى حفر الأنفاق تحت أساسات المقدسات الإسلامية، إلى طمس مقابر حَوَتْ جَدَثَ بعض الصحابة والتابعين، إلى تحويل المدارس الوقفية القديمة إلى مراكز للسلطة الإسرائيلية، إلى إجلاء سكان القدس والاستيلاء على بيوتهم، إلى العمل على تفريغ القدس من جميع المؤسسات الإسلامية الخيرية والتعليمية، إلى العمل الجاد على تزييف تاريخ المدينة وإظهاره بالمظهر اليهودي عبر آلاف السنين، إلى توسيع رقعة القدس الكبرى لتضم الأراضي التي سكانها من اليهود مما يجعل القدس مدينة ذات أغلبية يهودية وأقلية مسلمة لا صوت لها ولا حقوق بعد أن فقدت النصير والظهير.

نعم... في خضم هذا الواقع المرير والظرف الخطير يأتي حديثنا عن القدس الإسلامية عروس المدن ودرة عقدها وتاج هامتها... مدينة السلام والإسلام.. مدينة الماضي والحاضر... مدينة التضحيات والذكريات... مدينة عمر وصلاح الدين وأشبالهما.

القدس للمسلمين، اليوم أو غداً، فالعاقبة للمتقين، وهذا وعد الله لعباده المؤمنين، ولن يخلف الله الميعاد، ولن تقف آلة اليهود العسكرية مهما عظمت دون ذلك.

والقدس للمسلمين لأنهم هم الذين بذلوا أرواحهم رخيصة حتى أخرجوا الروم ثم الصليبيين ثم التتار منها، ودفعوا عنها غائلة وشرور ومكائد تسع حملات أوروبية جرارة استترت وراء الصليب، وزعمت أنها تريد حماية المسيحيين، فعاثت في الأرض فساداً حتى أُخرجت منه قهراً، فأين كان اليهود كل هذه القرون الطويلة من الحروب المريرة والأحداث الجسيمة!!!

القدس للمسلمين، لأنها أرض وقفية لا يحق بيعها ولا التنازل عنها ولا التفريط في شبر منها، لا لليهود ولا لغيرهم، فليس ذلك لأحد أبداً ولا في مقدوره. فالله سبحانه جعل هذه الأرض المقدسة لأطهر وأقدس أمة... أمة محمد صلى الله عليه وسلم، التي

جاءت البشارات بأنها الغالبة دائماً على مرور الأزمنة، وفي نهاية الزمن على وجه الخصوص، في هذه البلاد الطاهرة، مهما تكالب أعداء الله وتقادم الزمن وغلت التضحيات.

وما سنستعرضه في هذا الكتاب من تاريخ وأحداث وقعت في أرض الإسلام والإسراء، أو ارتبطت بها، إنما نحاول من خلاله تسليط الضوء على الحقيقة... وكشف ركام الزيف عنها، مع استثارة حمية المسلمين جميعاً ليهبوا دفاعاً عن الأقصى السليب، وفلسطين الطاهرة، والإسلام الجريح.

فعلى بركة الله نمضي... ومنه نستمد العون... وإليه نجأر بالدعاء.

اللهم يسر الصعب، وقرب البعيد، وحقق الآمال، وأَعِنّا على ما ندبنا أنفسنا إليه، وارزقنا القبول بعد حسن القصد... إنك سميع مجيب.

خصائص المسجد الأقصى ومزاياه

مقدمة:

لبيوت الله في الأرض مزية خاصة من حيث نسبتها إلى الله، وترداد الملائكة عليها، وإلف قلوب المؤمنين لها، واتخاذها مواطن للعبادة والانصراف عن الدنيا... لذلك كانت المساجد أفضل بقاع الأرض على الإطلاق.

إلا أن لبعض المساجد فضائل خاصة ومزايا كبيرة تفوق ما أعطيت بيوت الله الأخرى من منزلة ومكانة...

وأهم تلك المساجد المفضلة على غيرها ثلاثة: المسجد الحرام في مكة المكرمة، والمسجد النبوي في المدينة المنورة، والمسجد الأقصى في بيت المقدس.

وبالإمكان معرفة فضائل المسجد الحرام والمسجد الأقصى بالرجوع إلى المصادر الخاصة، ومنها كتابنا (تاريخ المساجد الشهيرة في العالم).

مزايا المسجد الأقصى المبارك:

وسوف نسرد باختصار هنا فضائل المسجد الأقصى... وهي كما يلي:

١) شد الرحال إليه:

إن زيارة المسجد الأقصى والسعي بقصد عبادة الله وإقامة شتى أنواع العبادات فيه، كالصلاة والدعاء والصوم والاعتكاف والذكر وقراءة القرآن سنة متفق عليها عند علماء المسلمين، لما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى)، وفي رواية (تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد...) وفي رواية (إنما يُسَافرُ إلى ثلاثة مساجد: الكعبة ومسجدي هذا ومسجد إيلياء).

وهذا ما يقصده العلماء بشد الرحال أو إعمال المَطِيّ.

وقد نقل عن السلف الصالح أنهم رحلوا لزيارة المسجد الأقصى، يدفعهم إلى ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه الطبراني، فعن ميمونة بنت سعد قالت:

(يا رسول الله أفتنا في بيت المقدس؟ قال: أرض المحشر وأرض المنشر، ائتوه فصلوا فيه فإن صلاة فيه كألف صلاة. قلنا: يا رسول الله فمن لم يستطع أن يتحمل إليه؟ قال: من لم يستطع أن يأتيه فَلْيُهْدِ إليه زيتاً يسرج فيه، فإن من أهدى إليه زيتاً كان كمن أتاه).

٢) الصلاة فيه مضاعفة الأجر:

الصلاة في المسجد الأقصى المبارك مضاعفة بما يساوي خمسمائة ضعف أو ألف ضعف. روى الطبراني والبزار عن أبي الدرداء رضي الله عنه - وكان ممن جاور في بيت المقدس - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، والصلاة في مسجدي هذا بألف صلاة، والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة).

وإذا كانت بعض الأحاديث تشير إلى المضاعفة للصلاة الواحدة بألف ضعف، وبعضها يشير إلى خمسمائة ضعف، فالمسألة مسألة فضيلة أكثر منها مسألة عدد، وهذا ما كان يأخذه السابقون في الحسبان.

٣) المجاورة سنة مستحبة:

وتبعاً لذلك فإن المجاورة والمقام في مدينة بيت المقدس مستحب عند كثير من العلماء، لما يحصل في ذلك للعبد المسلم من الطاعات والثواب، مما لا يحصل له في غير بيت المقدس عموماً والمسجد الأقصى على وجه الخصوص. ولذلك فإن بيت المقدس في بعض الأحاديث هي عُقْر دار المؤمنين يوم اشتداد المحن، كما أنها محرمة على الدجال لا يدخلها... وكانت منذ القديم محط رحال كثير من الصحابة والتابعين والعلماء..

وقد جاء في الحديث الشريف: (عليكم بالشام فإنها صفوة بلاد الله يسكنها خيرته من خلقه) أخرجه ابن عساكر عن واثلة بن الأسطح رضي الله عنه.

وجاء في الحديث الآخر الذي رواه الطبراني في الكبير عن مرة البهزي: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين على من ناوأهم - وهم كالإناء بين الأَكَلَة - حتى يأتي أمر الله وهم كذلك. قلنا: يا رسول الله وأين هم؟ قال: بأكناف بيت المقدس).

وجاء في حديث جنادة الأزدي - يذكر الدجال آخر الزمان - قال: (وعلامته يمكث في الأرض أربعين صباحاً يبلغ سلطانه كل منهل، لا يأتي أربعة مساجد: الكعبة ومسجد الرسول والمسجد الأقصى والطور) رواه أحمد.

٤) الأرض من حول الأقصى مباركة:

والمسجد الأقصى أرض مبارك فيها وفيما حولها بنص القرآن الكريم في آيات كثيرة عديدة، أوضحها وأظهرها قوله سبحانه: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير)، وقوله سبحانه عن إبراهيم ولوط وقد هاجرا إلى فلسطين: (ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين)، وقوله سبحانه عن موسى وهو يخاطب قومه: (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم)، وقوله عز من قائل عن موسى بن عمران عندما أتاه الوحي: (فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين).

٥) نهاية الأسراء وبداية المعراج:

ويكفي بيت المقدس شرفاً وفضلاً أن يكون منتهى إسراء النبي صلى الله عليه وسلم من مكة في ليلة الإسراء والمعراج إليه، فكأنه هو المستهدف من الإسراء أو الغاية الأخيرة منه، واقترانه بالمسجد الحرام وبالنبي صلى الله عليه وسلم أمر ليس بالسهل ومسألة ليست بالهيّنة.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أتيت بالبراق، وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، قال: فركبت حتى أتيت بيت المقدس. قال: فربطته بالحلْقة التي يربط به الأنبياء. قال: ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت، فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال عليه السلام: اخترت الفطرة. ثم عرج بنا إلى السماء).

وفي قوله: (ثم عرج بنا إلى السماء...) إشارة إلى أن بداية المعراج إلى السماوات العلا برسول الله صلى الله عليه وسلم كانت من بيت المقدس.

٦) مقر الأنبياء ومهدهم:

ومن شرف بيت المقدس ومنزلته السامية أن ارتبط اسم تلك البلدة العريقة بأسماء معظم الأنبياء في حياتهم وبعد مماتهم، فهذا إبراهيم عليه السلام يهاجر إليه، وهذا لوط يرافقه في هجرته، وهذا إسحاق ثم يعقوب يولدان ويعيشان فيه، ليأتي بعدَهما يوسفُ

والأسباط وتبدأ الصلات القوية في عهدهما بين بيت المقدس ومصر، ثم يكون موسى عليه السلام الذي يقود بني إسرائيل ومعه أخوه هارون نحو العودة إلى بيت المقدس، ويستكمل طريق العودة طالوت وداود، ويوطن بني إسرائيل في بيت المقدس سليمان عليهما السلام، ثم تتوالى طوائف من الأنبياء لاعداد لها كزكريا وابنه يحيى وعيسى عليهم جميعاً وعلى نبينا أفضل الصوات وأتم التسليم... هؤلاء وغيرهم كثير، كان محياهم في بيت المقدس أو مماتهم فيه... حتى إذا بعث خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم توجه إلى بيت المقدس في صلاته منذ صلى، ثم شد الرحال على متن البراق قاصداً المسجد الأقصى ليتبع سنن الأنبياء من قبله، بل إن الله سبحانه جمع له الأنبياء في بيت المقدس جمعاً حقيقياً معجزاً كإسرائه ومعراجه، وليس جمعاً منامياً، فوقف بينهم خطيباً وقام فيهم إماماً.

ففي مسند أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل المسجد الأقصى قام يصلي، فالتفت ثم التفت، فإذا النبيون أجمعون يصلون معه).

قال ابن كثير: بيت المقدس الذي بإيلياء معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام. ولهذا جمعوا له كلهم فأَمَّهم في محلتهم ودارهم فدل على أنه الإمام الأعظم والرئيس المقدس... قال عطاء الخراساني: بيت المقدس بنته الأنبياء وعمرته الأنبياء ووالله ما فيه موضع شبر إلا وقد سجد فيه نبي.

٧) أرض المحشر والمنشر:

وأرض بيت المقدس، ومن حولها الأرض المباركة فلسطين، هي أرض جمع الخلائق ساعة الحشر يوم الدين.

روى الإمام أحمد بسنده عن ميمونة بنت سعد مولاة النبي صلى الله عليه وسلم قالت: (يا رسول الله أفتنا في بيت المقدس؟ فقال: أرض المحشر والمنشر).

وفصّل بعض العلماء - تبعاً لبعض النصوص المأثورة ولو أنها ضعيفة - في ذلك تفصيلاً، فقال أبو عبدالله المنهاجي في كتابه "إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى": (وتوضع الموازين يوم القيامة ببيت المقدس، وينفخ إسرائيل في الصور ببيت المقدس... ويتفرق الناس من بيت المقدس إلى الجنة والنار).

ويقول ابن الجوزي: قال كعب: العرض والحساب ببيت المقدس.

٨) أولى القبلتين:

ومن فضائل المسجد الأقصى ببيت المقدس أنه كان أولى القبلتين، فإليه توجه المسلمون بصلاتهم قبل أن تحول القبلة إلى الكعبة المشرفة، وهذا باتفاق العلماء، وفيه دلالة على أن هذا البيت شرفه الله وكرمه، فوجه أنظار المسلمين إليه فترة من الزمن ابتداء من فرض الصلاة في أول الإسلام إلى ما بعد الهجرة النبوية بستة عشر شهراً أو بثمانية عشر شهراً.

٩) من الأحكام الشرعية الخاصة بالمسجد الأقصى:

وقد جمعت الموسوعة الفقهية جملة كبيرة من فضائل المسجد الأقصى فقالت: (تتعلق بالمسجد الأقصى أحكام منها ما يأتي:

الأول: استحباب ختم القرآن الكريم فيه. فعن ابن مجلّز قال: كانوا يستحبون لمن أتى المساجد الثلاثة أن يختم بها القرآن قبل أن يخرج: المسجد الحرام ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم وبيت المقدس.

كما روي أن سفيان الثوري كان يختم به القرآن.

الثاني: استحباب الإحرام بالحج والعمرة منه، ذكره الزركشي وقال: ففي سنن أبي داود وغيره من حديث أم سلمة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أَهَلّ بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر) أو (وجبت له الجنة).

الثالث: حكي عن بعض السلف أن السيئات تضاعف في المسجد الأقصى. رُوي ذلك عن كعب الأحبار.

وذكر أبو بكر الواسطي عن نافع قال: قال لي ابن عمر: اخرج بنا من هذا المسجد فإن السيئات تضاعف فيه كما تضاعف الحسنات. وذكر الزركشي عن كعب الأحبار أنه كان يأتي من حمص للصلاة فيه فإذا صار منه قدر ميل اشتغل بالذكر والتلاوة والعبادة حتى يخرج منه بقدر ميل، ويقول: السيئات تضاعف فيه.

الرابع: أنه يحذّر من اليمين الفاجرة فيه، وكذلك في المسجدين فإن عقوبتها عاجلة.

الخامس: يكره استقبال بيت المقدس واستدباره بالبول والغائط ولا يحرم. قاله الشيخ محي الدين النووي في الروضة.

السادس: ذهب الفقهاء إلى أن إقامة صلاة العيد في المصلى أولى منها في المسجد إلا في مسجد مكة. قال الرافعي: وألحق الصيدلاني به مسجد بيت المقدس.

السابع: استحباب الصيام فيه، فقد روي: (صوم يوم في بيت المقدس براءة من النار).

الثامن: قاله الزركشي في إعلام الساجد: لا يجوز الاجتهاد بمحراب بيت المقدس يمنة ولا يسرة، إلحاقاً له بمسجد المدينة.

ومضات من التاريخ القديم للمسجد الأقصى وبيت المقدس

عصر ما قبل الكتابة:

للمسجد الأقصى تاريخ قديم سبق عصور التدوين والكتابة ولكنه أُشير إليه في تاريخ الأمم الأولى للبشرية، ونقلت إلينا النصوص الشرعية والروايات التاريخية على اختلاف درجاتها نبذاً ونبأً عن مبدئه وخبره الأول.

وتقترن البدايات الأولى للمسجد الأقصى بالبدايات الأولى لبيت الله الحرام في مكة المكرمة.

فإذا كانت الكعبة المشرفة أول بيت وضع للناس لعبادة الله (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين) فإن المسجد الأقصى لم يبعد عن الكعبة المشرفة زمنياً إلا قليلاً.

روى البخاري في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه قال: (قلت يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول. قال: المسجد الحرام. قال: قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى. قلت: كم كان بينهما؟ قال: أربعون سنة).وهذا الحديث لا شك يتحدث عن البناء الأول على الإطلاق لكل من الكعبة والمسجد الاقصى.

وقد ذكر بعض العلماء أن الباني الأول للكعبة إنما هو آدم عليه السلام وأن بعض ولده بعده بأربعين عاماً بنى المسجد الأقصى، كما ذكر بعضهم أن الباني الأول لكليهما كان الملائكة، أو أن الباني الأول لهما آدم. أولاً بنى الكعبة ثم بنت الملائكة بيت القدس بعد ذلك بأربعين عاماً. وهذه الاحتمالات كلها واردة، والله أعلم.

إبراهيم الخليل ومن بعده يوشع:

ويذكر التاريخ بعد ذلك أن إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن وأبا الأنبياء اعتزل أباه وقومه في العراق، وهاجر منها واستقر به المقام في الشام أخيراً بعد تطواف بين الشام ومصر... لقد سكن بيت المقدس قبل أن ينقل إحدى زوجتيه - وهي سارة وولدها إسماعيل - إلى مكة البلد الحرام.

ويقوم في فترة لاحقة ببناء الكعبة المشرفة مع ولده إسماعيل ليعود أدراجه إلى بلده الأول - القدس - فيبني المسجد الأقصى بعد بناء المسجد الحرام بأربعين سنة. وهذا يتفق مع قوله سبحانه (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا) إذا جمعنا إليه حديث أبي ذر السابق... وهذا معنى ما نقله بعض المؤرخين من أن إبراهيم عليه السلام اتخذ عند الصخرة معبداً ومذبحاً. وقد أشار القرآن الكريم إلى هجرة إبراهيم ولوط عليهما السلام إلى فلسطين بقوله سبحانه (ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين).

و لم يمض وقت طويل حتى قام يعقوب بإعادة بناء المعبد بعد أن هرم بناء إبراهيم عليه السلام على مكان الصخرة نفسها.

وقد خرج بنو يعقوب (وهم بنو إسرائيل) من بيت المقدس إلى مصر في عهد يوسف بن يعقوب عليهما السلام فاستقروا فيها إلى أن بعث موسى بن عمران عليه السلام وأمره الله أن يحرر بني إسرائيل من العبودية لفرعون وقومه فخرج بهم صوب فلسطين وأمرهم بقتال الجبارين فيها. فلما نكلوا عن ذلك وجبنوا عوقبوا بالتيه في سيناء أربعين سنة. ولقد مات موسى وهارون عليهما السلام في مدة التيه وكانا يأملان دخول الأرض المقدسة فلما أدركهما الموت قبل ذلك سألا الله أن يدفنا قريباً منها رمية حجر.

ففي الصحيحين أن موسى قال عندما أدركته المنية: رب أمتني من الأرض المقدسة رمية بحجر وفي رواية أنه سأل الله أن ينظره حتى يدنو من الأرض المقدسة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والله لو أني عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر). وجاء في رواية: (مررت على موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره).

هذا ثم إن يوشع بن نون - وهو فتى موسى الذي صحبه للقاء الخضر - عليه السلام تولى شئون بني إسرائيل بعد وفاة موسى عليه السلام - وكان نبياً كما ثبت في السنة الصحيحة - فجمع بني إسرائيل وخرج بهم من التيه إلى الأرض المقدسة (بيت المقدس) وحاصرها، إلا أن الشمس أوشكت على الغروب - وكان الوقت عشية جمعة - فخشي أن تغيب الشمس ويحبس عنه الفتح، فدعا ربه فأمسك له الشمس حتى فتح بيت المقدس، وكانت تلك معجزة ظاهرة بينة.

ودخل يوشع بن نون عليه السلام بيت المقدس بجيشه منتصراً، ونصب قبة موسى عليه السلام موضع الصخرة، فكانوا يصلون إليها، فلما بادت صلوا إلى محلتها وهي

الصخرة، فلهذا كانت تلك الصخرة قبلة الأنبياء بعد إلى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم.

طالوت وتحرير بيت المقدس:

وبقيت مدينة القدس مدة طويلة في عهدة بني إسرائيل، وذلك في الفترة التي تسمى عهد القضاة، وامتدت قرابة ٤٠٠ سنة، ولكن القضاة عجزوا عن سياسة بني إسرائيل، مما أطمع فيهم الأعداء فقهروهم على بيت المقدس ونصبوا جالوت ملكاً فيها، مما دفع بني إسرائيل إلى اللجوء إلى أحد أنبيائهم طالبين منه أن يدعو الله ليبعث لهم ملكاً يلتفون حوله فيجمع أمرهم، ويقاتلون معه في سبيل الله دون تردد ولا توان،.. قال الله تعالى: (ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله. قال: هل عسيتم إن كتب عليكم القتال أن لا تقاتلوا قالوا: وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا. فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا فريقاً منهم والله عليم بالظالمين. وقال لهم نبيهم: إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً. قالوا: أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال. قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم. وقال لهم نبيهم: إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين فلما فصل طالوت بالجنود قال: إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني. إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلاً منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين. ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا: ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء) سورة البقرة من الآية ٢٤٦ - ٢٥١.

وواضح من تلك الآيات أنها تتحدث عن فتح بيت المقدس على يد طالوت وجنوده على قلة فيهم بعدما عبروا نهر الشريعة (نهر الأردن) باتجاه البلدة المقدسة وبعدما نازل داود الجندي الشجاع جالوت الملك الجبار فقتله. ليخلف طالوت في ملك بني إسرائيل ويورث الملك عقبه.

داود وسليمان ملكان ونبيان:

وذكر المؤرخون أن داود عليه السلام لما فتح مدينة القدس - وكان ذلك عام ٩٧٧ ق. م - نقل تابوت بني إسرائيل إليها، وقد حوى التابوت آثاراً من آثار موسى وهارون عليهما السلام وآثار أهلهما، كعصا موسى، والرضاض من ألواح التوراة، وشيء من المنّ المنزّل عليهم في التيه، وثياب هارون، ونعلان. فلما فتح داود بيت المقدس نقل التابوت إليها وأعد في وسط المدينة ساحة منبسطة فسيحة ليشيد عليها المسجد الأقصى من جديد، فقد يكون جالوت قد عفى آثاره أو أنه اندرس لطول العهد ببنائه.

وكان داود في ذلك الحين قد بلغ سن الشيخوخة وأحس أن أجله لن يمهله حتى يكمل البناء فعهد إلى ابنه ووريث عرشه سليمان عليه السلام الذي ولد في القدس ونشأ بها واستمر ملكه أربعين سنة (٩٦٣ - ٩٢٣ ق. م).

وذكر بعض المفسرين أنه غاب عن سرير ملكه أربعين يوماً ثم عاد إليه، وإذ ذاك بدأ في بناء المعبد على هيئة فخمة ضخمة تليق بما أعطاه الله سبحانه من ملك لم يؤت أحد من العالمين مثله، ولفخامة الهيئة التي بنى سليمان عليها المسجد الأقصى - الذي يسميه بنو إسرائيل الهيكل - نسب هذا المعبد إليه، وإلا ففي الحقيقة لم يكن هو منشؤه ولا بادئه.

اكتساح مملكة اليهود في فلسطين:

وبعد فترة من الزمن - قرابة مئتي سنة عقب وفاة سليمان عليه السلام - أقدم ملك الآشوريين (سرجون) على تدمير مملكة إسرائيل التي كانت إحدى مملكتين يهوديتين انقسمت إليهما مملكة داود وسليمان، وشَرَّد سرجون عند تدمير المملكة شعبها واعتقل آخر ملوكها.

أما المملكة الأخرى وهي مملكة يهوذا فقد غزاها فرعون مصر سنة (٦٠٨) ق. م، ولم يقف عند حدودها، بل اكتسح بعدها أيضاً مملكة إسرائيل، مما أثار حفيظة ملك الآشوريين في بابل (بختنصر) فزحف على فلسطين، وهزم فرعون مصر، واستعاد منه المملكتين (إسرائيل ويهوذا)، ودمر المسجد الأقصى، وسبى أكثر بني إسرائيل وساقهم إلى أرض بابل، حتى عرفت تلك الفترة بفترة السبي البابلي. قال تعالى في إشارة إلى ذلك (وقضينا إلى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً. فإذا جاء

وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً).

زوال محنة اليهود:

ولما احتل ملك الفرس الأخميني (قورش) بلاد بابل تبعته بلاد فلسطين تلقائياً، فرفع الاضطهاد عن بني إسرائيل وأعادهم إلى أرض يهوذا، وسموا منذ ذلك الحين (اليهود) وسميت ديانتهم (اليهودية) وقام اليهود بإعادة إعمار مدينة القدس والهيكل، ولكنهم كانوا شعباً بلا دولة ولا سلطة.

وتتابع على حكم بيت المقدس كل من الفرس والاسكندر المقدوني ثم البطالة ثم بعدهم الرومان الذين استولوا على بيت المقدس عام ٦٣ (ق. م) ونصبوا هيرودس ملكاً عليها فقرب إليه اليهود، وبنى لهم الهيكل ثانية على نسق بناء سليمان عليه السلام، وذلك فيما بين (٢٠ و١٨ ق. م).

زكريا ومريم عليهما السلام:

وبقي المسجد الأقصى إلى عهد زكريا عليه السلام، وقد ذكر لنا ربنا سبحانه وتعالى في القرآن الكريم أنه تكفل بمريم ابنة عمران، فرباها في حجره، وكان رئيساً لسدنة الهيكل، فأودع مريم في المحراب ورباها أحسن تربية إلى أن عرفت بالاستقامة والتدين، ثم كان من شأنها أن وهبها الله عيسى عليه السلام معجزة لم تر البشر لها مثيلاً.

عيسى واليهود... وتدنيس المسجد الأقصى:

وتذكر كتب التاريخ أن جرائم بني إسرائيل في عهد عيسى عليه السلام كثرت وزادت وامتدت حتى دنست المسجد الأقصى فجعلوه سوقاً للصيارفة والمرابين وملعباً للحمام ومكاناً للاستهزاء، بل إنهم طغوا طغياناً كبيراً عندما أقدموا على قتل زكريا وابنه يحيى عليهما السلام في حادثتين شائنتين، فأنذرهم عيسى عليه السلام أن هذا الافساد عاقبته وخيمة، وأن الدمار سيلحق ببني إسرائيل وبمعبدهم وملكهم حتى يستحوذ عليهم عدوهم ويضرب على رقابهم الذل والهوان. وقد وقع ذلك عندما غزا الملك الروماني الامبراطور (طيطس) مدينة القدس عام ٧٠م وأحرق المدينة المقدسة ودمر المسجد تدميراً شديداً...

وقد أشار الله سبحانه إلى ذلك بقوله عن الإفساد الثاني لبني إسرائيل (فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً).

هذه صفحات مجملة من تاريخ القدس القديم لن تغنينا عن الوقوف مع الحديث المفصل في القرآن الكريم عن أعظم مملكة لليهود في القدس وهي مملكة داود وسليمان عليهما السلام. وهو حديث ممتع شيق.

مملكة داود وسليمان عليهما السلام كما يحدثنا عنها القرآن

تمهيد:

انسجاماً مع الدعوة العامة في القرآن الكريم لاحترام كافة الأنبياء والرسل والإيمان بهم وعدم التفريق بينهم (لا نفرق بين أحد من رسله)، تحدث القرآن الكريم بكل احترام عن داود وسليمان وهما نبيان وملكان يهوديان.

وجاء حديث القرآن الكريم عنهما مفصلاً في بعض الجوانب، وذلك ابتداء من بزوغ نجم داود عليه السلام الذي كان جندياً قوي الشكيمة شديد البأس انخرط في جيش طالوت، وانتهاء بوفاة ابنه سليمان بعد ملك واسع في مدينة القدس.

القرآن الكريم وداود:

وقد بين القرآن الكريم أن بروز داود عليه السلام بدأ وظهر عندما تقدم كمصارع بطل تصدى للجبار جالوت ملك الظلمة فصرعه وقتله، قال تعالى: (وقتل داود جالوت) ومن ثمة آتاه الله النبوّة (وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء).وبعد قتل جالوت عاد بنو إسرائيل فدخلوا إلى البلدة المقدسة التي كانوا طردوا منها مصداق وعد الله لهم (ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم).

فضائل داود عليه السلام:

وكان داود عليه السلام ملكاً عادلاً حكيماً، ونبياً عابداً صالحاً. قال تعالى: (ولقد آتينا داود منا فضلاً)، وقد فُسّر هذا الفضل المطلق بأنه: النبوة، والزبور، وفصل القضاء بالعدل، والفطنة والذكاء والرحمة بالضعفاء، وحسن الصوت، وتسخير الجبال له والطير. ثم يقول سبحانه: (يا جبال أَوِّبي معه) أي رَجَّعي صدى تسبيحه لربه وقراءته في مزاميره (والطير) فقد أُمرت كذلك بالترجيع وراءه (وأَلَنّا له الحديد) فكان بين يديه مطواعاً له، حتى قيل: إنه أول من صنع دروع الحرب بعد أن علمه الله (أن اعمل سابغات وقدر في السرد، واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير).

عفة اليد وحسن القضاء:

وهكذا كان داود عليه السلام نبياً ملكاً جمع بين الوحي والعدل، والعبادة والقضاء، والرحمة والقوة، وأضاف إلى ذلك أنه كان يتعفف عن الأموال العامة فلا يأكل إلا من كسب يده وكسب عياله (اعملوا آل داود شكراً)... قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن نبي الله داود كان يأكل من كسب يده).

ويذكر لنا كتاب الله موقفاً من مواقف حياة داود، يقول سبحانه: (واذكر عبدنا داود ذا الأيد "أي القوة" إنه أواب، إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق، والطير محشورة كل له أواب، وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة فصل الخطاب، وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب، إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط، إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم، وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب، فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب).

ثم بيّن الله سبحانه بعض ما أوحاه إلى الملك داود في بيت المقدس: (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب).

سليمان بن داود شاب مثالي:

وكان من فضل الله سبحانه على النبي الملك داود أن رزقه ولداً ذكياً نبيهاً فطناً يليق بالملك والنبوة وارثاً لهما من بعده عن جدارة وكفاءة (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب)، وأروع مثال على نباهة سليمان ما حكى القرآن الكريم عن سليمان في حياة أبيه الذي كان يدربه على تصريف أمور المملكة المقدسية، قال تعالى: (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين، ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً).

محراب داود أثر عظيم:

وقبل أن ننتقل إلى الحديث عن مملكة سليمان عليه السلام وحكمه لبيت المقدس بعد أبيه داود نقف مع الإمام أبي بكر بن العربي في كتابه "أحكام القرآن" وقد سطر لنا بعض ما رآه عياناً في بيت المقدس التي أقام فيها من آثار مملكة داود، يقول: شاهدت محراب داود عليه السلام (أي مكان تعبده) في بيت المقدس بناءً عظيماً من حجارة صلدة لا تؤثر فيها المعاول، طول الحجر خمسون ذراعاً وعرضه ثلاثة عشر ذراعاً، وكلما قام بناؤه صغرت حجارته، ويرى له ثلاثة أسوار، لأنه في السحاب أيام الشتاء كلها لا يظهر لارتفاع موضعه وارتفاعه في نفسه، له باب صغير ومدرجة عريضة، وفيه الدور والمساكن، وفي أعلاه المسجد، وفيه كوة شرقية إلى المسجد الأقصى في قدر الباب، وليس لأحد في هدمه حيلة، وفيه نجا من نجا من المسلمين حين دخلها الروم حتى صالحوا على أنفسهم بأن أسلموه إليهم على أن يَسْلموا في رقابهم وأموالهم فكان ذلك، وتخلوا لهم عنه.

ولا مانع عندنا أن يكون هذا القصر المشيد من أعمال سليمان عليه السلام الذي سخر له الجن فيما سخر له من جنود.

مملكة سليمان عليه السلام قوية غنية:

ولقد حدثنا القرآن الكريم عن سليمان ونبوته وملكه - وهو أعظم ملوك بني إسرائيل في بيت المقدس - وكان عنده من الخيل المطهمة وعدة الحرب وأبهة الملك الشيء الكثير.

فقال سبحانه عن سليمان: (إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد، فقال: إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب، ردوها عليّ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق)، فكان خير خبير ومتعامل مع الخيل المعروفة بالذكاء والشفافية.

ابتلاء ثم عطاء:

وحدثنا القرآن الكريم كذلك عن تعرض ملك سليمان لهزة عنيفة كادت تودي به لولا لطف الله وتأييده له (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب، قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب). وهكذا عاد له ملكه، بل آتاه الله ملكاً عظيماً واسعاً شاسعاً لم يتحقق مثله لأحد بعده، فقد أضيف إلى إعطائه الأسباب المادية المعروفة في ملك الملوك أن سخرت له قوى غير مادية (فسخرنا له

الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب) (ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين).

وإضافة إلى الريح المسخرة فقد أُعطي سليمان في بيت المقدس تسخير الجن كذلك، قال سبحانه: (والشياطين كل بناء وغواص، وآخرين مقرنين في الأصفاد).

وقال أيضاً في موطن آخر: (ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنا لهم حافظين).

وقال عن ذلك جل وعلا: (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور).

وقد ذكر المفسرون أن مما عُمل لسليمان: القصور والمساكن والصور التي من نحاس أو رخام سواء كانت صور طواويس وعقبان ونسورٍ يضعها حول عرشه لمزيد المهابة والجمال أو صور الأنبياء السابقين. أما الجفان (وهي صِحاف الطعام) فكانت غاية في الكبر والضخامة كأنها حياض أو حيطان وكذلك القدور الراسيات العظيمة التي لا مثيل لها.

قوة ومهابة، وتواضع وإنابة:

ويعرض علينا القرآن الكريم صورة أخرى من صور مملكة سليمان عليه السلام في بيت المقدس، وهي صورة الملك الذي يحف به موكب مهيب لكنه لا يبطر ولا يفتر، فيقول: (وحُشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون، حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون، فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحتمك في عبادك الصالحين).

وتفقد الطير...

وفي لفتة مهمة تكشف عن مدى قوة مملكة نبي الله سليمان عليه السلام وبلوغ نفوذه وسلطانه آفاقاً بعيدة عن أرض بيت المقدس، يقول سبحانه وتعالى عن قصة سليمان وبلقيس ملكة سبأ: (وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين، لأعذبنه

عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيّني بسلطان مبين، فمكث غير بعيد) فلما جاء واستدعاه سليمان وسأله عن سبب غيابه عن عرض الطير قال: (أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ) من اليمن (بنبأ يقين) ثم فصّل الأخبار له فقال: (إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون) ولقد تريث سليمان عليه السلام في معاقبة الهدهد أو تصديق ما ادعاه فرد عليه: (قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين، اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون، قالت يا أيها الملأ إني أُلقي إلي كتاب كريم، إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم، ألا تعلوا عليّ واتوني مسلمين، قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون، قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين، قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون، وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون، فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون، ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون)، ثم يعرج القرآن على استخدام سليمان لسلطة الجن (قال) مخاطباً حاشيته بعد أن جمعها (يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين، قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين، قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم، قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أن تكون من الذين لا يهتدون) وتدخل بلقيس بيت المقدس وافدة على سليمان (فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين، وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين، قيل لها ادخلي الصرح) أي قصر سليمان (فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها، قال إنه صرح ممرد من قوارير) وهنا استسلمت بلقيس و (قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين).

وهكذا أسلمت وتابعت وتزوجت سليمان عليه السلام أعظم ملوك بيت المقدس.

تسخير الجن وموت سليمان:

ولا نجد بداً من التعريج على نبأ وفاة نبي الله سليمان عليه السلام كما أشار إليه القرآن الكريم (فلما كتبنا عليه الموت ما دَلَّهم على موته) أي ما أخبر الجن الذين زعموا

علم الغيب والاطلاع على الأمور ماضيها وحاضرها ومستقبلها، فلما مات سليمان عليه السلام كان جالساً على عرشه وبقيت الجن تعمل بين يديه خائفة منه أمداً طويلاً (ما دَلَّهم على موته إلا دابة الأرض تأكل مِنْسَأَته) فلم يطلعوا على موته و لم يطلعوا على دابة الأرض وهي تنخر عصاه التي كان يَتوكأ عليها (فلما خَرّ) بعد تهالك العصا وأكل السوس لها (تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) صدق الله العظيم.

داود وسليمان والمسجد الأقصى:

ومما لا يخفى أن مما قام به سليمان في مملكته إعادة بناء المسجد الأقصى، أو بشكل أدق تنفيذ واستكمال بنائه، بعد أن بدأ بذلك أبوه داود عليهما السلام، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن سليمان لما تم له بناء المسجد الأقصى قام لله شاكراً داعياً... روى النسائي وابن ماجة وغيرهما عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لما فرغ سليمان ابن داود من بناء بيت المقدس سأل الله ثلاثاً: حكماً يصادف حكمه (أي سداداً وتوفيقاً في القضاء) وملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وألا يأتي هذا المسجد أحد لا يريد إلا الصلاة فيه إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه)، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أما اثنتان فقد أعطيهما، وأرجو أن يكون قد أعطي الثالثة).

يقول البغوي في تفسيره: قالوا: فلم يزل بيت المقدس على ما بناه سليمان حتى غزاه بختنصر فخرب المدينة وهدمها، ونقض المسجد وأخذ ما كان في سقوفه وحيطانه من الذهب والفضة والدر والياقوت وسائر الجواهر فحمله إلى دار مملكته في أرض العراق.

بيت المقدس في عهد زكريا ويحيى وعيسى

تمهيد:

لم يتوقف حديث القرآن الكريم عن بيت المقدس عند عهد إبراهيم ولوط حيث هاجرا إليها وأقاما بأطرافها، ولا عند عهد طالوت وداود وسليمان حيث نشأت في بيت المقدس أكبر ممالك بني إسرائيل، وإنما نجد في القرآن الكريم حديثاً عن بلدة بيت المقدس في عهد زكريا ويحيى وعيسى عليهم وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام.

زكريا... ورحمة الله له:

قال الله تعالى: (ذِكْرُ رحمة ربك عبده زكريا) أي هذا ذكر رحمة ربك لعبده زكريا (إذ نادى ربه نداءً خفياً، قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً، وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً، يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً، قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً، قال كذلك قال ربك هو عليّ هيّن وقد خلقتك من قبل ولم تكن شيئاً، قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً، فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً).

ثم ينتقل الخطاب القرآني إلى يحيى بن زكريا مباشرة (يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً، وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً، وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً، وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً).

هذا الكلام الرباني عن نبي الله زكريا الذي كان كبير سدنة بيت المقدس إنما يحكي لنا بعض تاريخ تلك البلدة في فترة شهدت ميلاد عيسى عليه السلام لأم دون أب، فكان معجزة المعجزات وآية الآيات على قدرة الله واصطفائه المبين لآل عمران فيمن اصطفى على العالمين.

مريم ابنة عمران... الصالحة الطاهرة:

ويحكي لنا القرآن الكريم السبب الذي دفع زكريا لتمني الذرية الصالحة. قال تعالى عن مبدأ قصة مريم وأمها امرأة عمران وهما من أهل بيت المقدس (إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً) أي خالصاً لخدمة مسجد بيت المقدس

(فتقبل مني إنك أنت السميع العليم، فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت) وكانت تتوقع أن تلد ذكراً يصلح أن تنذره خادماً خاصاً للمسجد المقدس (وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها وذريتها بك من الشيطان الرجيم، فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا).

وذلك أن زكريا كان زوج خالة مريم، فأراد أن يقوم بكفالتها دون غيره، فخاصمه السدنة الآخرون، فما كان منه ألا أن اتفق معهم على أن يلقوا أقلاماً من خشب كانت بأيديهم في الماء، قال تعالى: (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون) فلما طفا قلم زكريا أخذ مريم وأودعها في محراب بيت المقدس.

والمحراب هو المكان المخصص للعبادة بعيداً عن أعين الناس، قال تعالى: (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء، فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين).

وإذن فإن إعجاب واستحسان زكريا كبير سدنة بيت المقدس بالفتاة الناشئة الصالحة أو الصبية الصغيرة الطاهرة مريم وتقواها وإكرام الله سبحانه لها دفعه إلى سؤال الله أن يمنحه الذرية الصالحة لعلها تكون كمريم في عبادتها وصفائها ومقامها.

يحيى بن زكريا... نبي صالح:

وكما تحدث القرآن الكريم عن زكريا عليه السلام بكل تبجيل واحترام، تناول كذلك الحديث عن ولده يحيى الذي قال عنه: (يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً، وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً، وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً، وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً) وقال عنه كذلك: (فنادته الملائكة) أي نادت زكريا (وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين).لقد كان الحديث عن يحيى - وهو من الأنبياء الذين ولدوا وبعثوا وقتلوا في بيت المقدس .

عيسى بن مريم آية من آيات الله في الأرض:

ويرافق يحيى في الزمن مولداً وحياة عيسى ابن مريم عليهما السلام، وهو كما قدمنا ابن خالته.

ويأتي حديث القرآن الكريم عن ميلاد ودعوة عيسى عليه السلام مفصلاً تفصيلاً أكبر، وذلك ابتداء من حين حمل أمه مريم به دون أن يكون لها زوج، بل بأمر الله سبحانه، قال تعالى: (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً) أي اعتزلتهم واتخذت لنفسها متعبداً شرقي بيت المقدس تخلو فيه لوحدها لتعبد الله وحده لا شريك له.

وفي متعبدها ذلك شرقي بيت المقدس كانت الملائكة الكرام تخاطبها (إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين، يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين)، هكذا خوطبت مريم خطاب العابدات الصالحات وهي في متعبدها محراب بيت المقدس، وكان مما قالته لها الملائكة: (يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين، ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين)، وقالت لها الملائكة كذلك عنه (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربك أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين)... (فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً، قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً، قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أكن بغياً، قال كذلك قال ربك هو عليّ هيّن ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً)، كل ذلك تلقيه الملائكة إليها لتهدئ روعها وتطمئنها إلى الآية العظمى التي سيظهرها الله للعالمين منها، إنها أعظم ما مر من الآيات على بيت المقدس... بل على الأرض!!!

(فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً) يقال إنها خرجت به إلى بيت لحم بعيداً عن أنظار الناس في بيت المقدس.

(فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً) ولكنها ولدته تحت ظل النخلة (فناداها من تحتها أن لا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً) نهراً جارياً، (وهُزّي إليك بجذع النخلة تُساقط عليك رطباً جنياً، فكلي واشربي

وقري عيناً فإما تَرَيّن من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً).

وهكذا حملت مريم وليدها عيسى من بيت لحم وعادت به إلى مدينة القدس (فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً) ولكنها لم تجبهم بلسانها لأنها نذرت الصوم عن الكلام، فليس ثمة كلام يقنع الناس ببراءتها مهما كانت صادقة (فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً).

وهنا حدثت المعجزة ثانية بكلام الوليد الجديد عيسى في المهد بعد أن وُلد لغير أب (قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً، وجعلني مباركاً أينما كنت وأَوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً، والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً).

وهكذا ولد عيسى عليه السلام في أكناف بيت المقدس، ثم بعث إلى بني إسرائيل في المدينة المقدسة فخاطبهم بقوله (يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين).

دعوة عيسى إلى توحيد الله:

وكما بشرت الملائكة مريم ببركات وليدها عيسى على عموم أهل بيت المقدس من بني إسرائيل وسواهم، وخاصة المرضى وأصحاب العلل، فإنه دعا إلى عبادة الله وحده، وترك الانحراف عن الوحدانية الصافية، فآمنت به طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) وكانت هذه الطائفة المؤمنة قد دعت ربها بقولها (ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين).

براءة عيسى من المنحرفين:

ويبدو أن الذين آمنوا بعيسى لم يقف بعضهم عند حد الإيمان بأنه رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، بل غالوا فيه مغالاة منكرة حتى عبدوه إلهاً دون وجه

حق، ودون رضى منه أو دعوة إلى ذلك (وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق).

وآية المائدة من السماء للمؤمنين:

وعاش عيسى عليه السلام حياته يدعو إلى الله - هو ويحيى بن زكريا عليهما السلام في بيت المقدس وما حولها - وكان مما قصه علينا القرآن الكريم قصة المائدة العجيبة إذ قال بعض أهل بيت المقدس لعيسى عليه السلام (هل يستطيع ربك أن يتزل علينا مائدة من السماء) فزجرهم وقال: (اتقوا الله إن كنتم مؤمنين، قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين) عندها (قال عيسى اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين) وقد استجاب الله لعيسى دعوته لكنه سبحانه بَيَّن للناس ، (قال الله إني مترلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين).

عيسى ويحيى وتعاون على الدعوة مشترك:

وفي حديث فريد عن النبي صلى الله عليه وسلم نرى كيف كان ابنا الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام يتعاونان على الدعوة إلى الله في بيت المقدس، فعن الحارث الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها وإنه كاد أن يبطئ بها، قال عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم، فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب، فجمع الناس في بيت المقدس فامتلأ وقعدوا على الشُرُف (النوافذ) فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بها وآمركم أن تعملوا بها.

أولاهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وإن مَثَل من أشرك بالله كمثْل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق فقال هذه داري وهذا عملي فاعملَ وأَدِّ إليّ، فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك.

وإن الله أمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت.

وأمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال أنا أفدي نفسي منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم. وأمركم أن تذكروا الله فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحزر نفسه من الشيطان إلا بذكر الله.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن: السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة، فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع، ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جثاء جهنم، فقال رجل: يا رسول الله وإن صلى وصام؟ فقال: وإن صلى وصام، فادعوا الله الذي سماكم مسلمين عباد الله) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

هكذا استفاض حديث الإسلام عن أحداث عظام في بيت المقدس كان لها أثر كبير في صناعة تاريخه في فترة من الفترات.

بيت المقدس وأحداث الإسراء والمعراج

تمهيد:

بدأت صلة النبي محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه ببيت المقدس مع بداية البعثة النبوية، حينما فرضت عليه الصلاة - وكانت ركعتان بالغداة وركعتان بالعشي - إذ جعلت له قبلة صلاته إلى بيت المقدس يقيم وجهه تلقاءها كلما نهض إلى صلاته، وكان شأنه في ذلك شأن الأنبياء السابقين له - وإن كانت الروايات تذكر أنه كان يجعل الكعبة المشرفة بينه وبين بيت المقدس فذلك أمر آخر.

وبقي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يصلون إلى بيت المقدس طيلة مكثهم في مكة، وإلى ما بعد هجرتهم إلى المدينة بقرابة سنة ونصف قبل أن تحول القبلة نهائياً إلى الكعبة المشرفة، وهذا يعني أنهم صلوا نحو بيت المقدس أكثر من أربع عشرة سنة... سواء قبل فرض الصلوات الخمس أو بعدها.

الإشارات القرآنية إلى بيت المقدس:

ومما لا شك فيه أنه لم يخل القرآن الذي نزل في مكة - وهو المسمى بالمكي - من الحديث عن أهل الكتاب وأنبيائهم وبيت المقدس الذي أوى إليه أكثرهم.

وعلى سبيل المثال نقرأ من إشارات القرآن الكريم إلى بيت المقدس قول الحق سبحانه: (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) وقد قال بعض المفسرون: إن التين يقصد به الشام، والزيتون يقصد به بيت المقدس، وأما طور سينين فهو الجبل الذي كلم الله موسى عليه وأنزل عليه التوراة، وهو جبل الطور بجوار بيت المقدس...

وهذا المثال غيض من فيض من حديث القرآن المكي عن بيت المقدس وأهله وحوادثه.

الإسراء إلى بيت المقدس:

ولكن الشيء المؤكد أن أبرز ما يتعلق ببيت المقدس في فترة ما قبل الهجرة بل في فترة البعثة النبوية تلك الأحداث المتعلقة بمعجزة الإسراء من مكة إلى بيت المقدس، ثم

المعراج من بيت المقدس إلى السموات العلى، ثم العودة في نفس الطريق، وهي ولا شك أحداث غيبية جسام، ضعفت عقول المتشككين والكافرين عن فهمها والإيمان بها، لذلك أشير إليها في كتاب الله سبحانه بقوله تعالى: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير).

إن الإسراء آية حوت من الدلالات العظيمة والإشارات الكريمة الشيء الكثير.

الصلة الوثيقة بأرض الإسراء:

ولا شك أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان متشوقاً إلى المسجد الأقصى متطلعاً إليه، فهو القبلة التي يصرف وجهه ووجه أصحابه إليها، وهو معدن الأنبياء ومرقدهم، وجوهر الأرض المباركة وسرها. وقد دلت الأحاديث التي تتعلق ببيت المقدس في حادثة الإسراء والمعراج على صلة وثيقة للنبي صلى الله عليه وسلم بتلك الأرض لا يمكن للباحث المنصف تجاهلها.

ففي الطريق إلى بيت المقدس وبينما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم راكباً البراق (يقول: فانطلقتْ تهوي بنا يقع حافرها عند منتهى طرفها حتى بلغنا أرضاً بيضاء، فقال: انزل فنزلت، فقال صَلِّ فصليت ثم ركبنا، فقال:أتدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم، قال: صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى ابن مريم) رواه الترمذي.

وفي رواية الترمذي والطبراني والبزار أن جبريل قال له قبل ذلك في الطريق إلى بيت المقدس (انزل فصل يقول: فصليت ثم ركبنا فقال: أتدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم، قال: صليت بمدين عند شجرة موسى أو صليت بطور سيناء حيث كلم الله موسى تكليماً).

وفي رواية لمسلم يحدد النبي صلى الله عليه وسلم مكان قبر موسى قريباً من بيت المقدس فيقول: (مررت بموسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره) ويقول في رواية أخرى: (فلو كنت ثَمّ لأريتكم قبره).

أول المسلمين زيارة للقدس:

وبناء على القول الصحيح أن الإسراء والمعراج كان بالروح والجسد معاً لا بالروح فقط، وأنه كان يقظة لا مناماً، فإنا نقول جازمين إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل بيت المقدس دخولاً مادياً حقيقياً، فكان أول المسلمين الزائرين له من أمته،

يقول: (ثم انطلق "أي البراق" بي حتى دخلنا المدينة "بيت المقدس" من بابها اليماني فأتى "أي جبريل" قبلة المسجد فربط فيه دابته) وفي رواية (فأتى البراق إلى موقفه الذي كان يقف فيه فربطه فيه وكان مربط الأنبياء عليهم السلام، ودخلنا المسجد من باب تميل فيه الشمس والقمر، فصليت من المسجد حيث شاء الله).

لقاء الأنبياء وإمامتهم:

وقد جاء في حديث الإسراء والمعراج أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بالأنبياء إماماً في المسجد الأقصى. يقول: (ورأيت الأنبياء جمعوا لي فرأيت إبراهيم وموسى وعيسى)...

وقد قيل في تفسير قوله تعالى: (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) إن الآية تشير إلى اجتماع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأنبياء في بيت المقدس وكانوا سبعين نبياً.

وجاء في الحديث (وسألتهم) أي عما بعثوا به (فقالوا: بعثنا بالتوحيد) ويقول أيضاً (فظننت أنه لا بد من أن يكون لهم إمام فقدمني جبريل حتى صليت بين أيديهم).

وقد اختلف العلماء في اجتماعه عليه السلام بالأنبياء وصلاته بهم أكان قبل عروجه إلى السماء أم بعد نزوله منها، ويرجح ابن كثير أن صلاته بالأنبياء إماماً كانت بعد عودته صلى الله عليه وسلم من السماء عائداً إلى بيت المقدس.

ونقل لنا صلى الله عليه وسلم من داخل بيت المقدس صفة خَلْق بعض الأنبياء، يقول: (وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء فإذا موسى قائم يصلي فإذا رجل ضرب جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى بن مريم عليه السلام قائم يصلي أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم (يعني نفسه).

خطبته صلى الله عليه وسلم في الأقصى:

وجاء في دلائل النبوة للبيهقي وعند ابن جرير في تفسيره - قوله عليه السلام يذكر خطب الأنبياء في بيت المقدس - (فلما قضيت الصلاة قالوا: يا جبريل من هذا معك؟ فقال: محمد. فقالوا: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم. فقالوا: أوقد أرسل إليه. قال:

نعم. قالوا: حياه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء. قال: ثم لقي أرواح الأنبياء فأثنوا على ربهم.

فقال إبراهيم: الحمد لله الذي اتخذني خليلاً وأعطاني ملكاً عظيماً، وجعلني أمة قانتاً يؤتم بي، وأنقذني من النار، وجلعها عليّ برداً وسلاماً.

ثم إن موسى أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي كلمني تكليماً، وجعل هلاك آل فرعون ونجاة بني إسرائيل على يدي، وجعل من أمتي قوماً يهدون بالحق وبه يعدلون.

ثم إن داود أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي جعل لي ملكاً عظيماً، وعلمني الزبور، وألان لي الحديد، وسخر لي الجبال يسبحن والطير، وأعطاني الحكمة وفصل الخطاب.

ثم إن سليمان أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي سخر لي الرياح، وسخر لي الشياطين يعملون لي ما شئت من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، وعلمني منطق الطير، وآتاني من كل شيء فضلاً، وسخر لي جنود الشياطين والإنس والطير، وفضلني على كثير من عباده المؤمنين، وآتاني ملكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعدي، وجعل ملكي ملكاً طيباً ليس عليّ فيه حساب.

ثم إن عيسى أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي جعلني كلمته، وجعل مثلي مثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون، وعلمني الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وجعلني أخلق من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وجعلني أبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله، ورفعني وطهرني، وأعاذني وأمي من الشيطان الرجيم، فلم يكن للشيطان علينا سبيل. قال: ثم إن محمداً صلى الله عليه وسلم أثنى على ربه فقال: كلكم أثنى علي ربه، وأنا مثن على ربي: فالحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين، وكافة للناس بشيراً ونذيراً، وأنزل عليّ الفرقان فيه تبيان كل شيء، وجعل أمتي خير أمة أخرجت للناس، وجعل أمتي وسطاً، وجعل أمتي هم الأولون وهم الآخرون، وشرح لي صدري، ووضع عني وزري، ورفع لي ذكري، وجعلني فاتحاً وخاتماً. قال إبراهيم: بهذا فضلكم محمد).

اخترت الفطرة:

وأشارت أحاديث عدة إلى شيء حدث للنبي صلى الله عليه وسلم في بيت المقدس ساعةَ كان فيه. يقول صلوات الله وسلامه عليه: (وأخذني من العطش أشد ما

أخذني، فأُتيت بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر عسل، أُرسل إليّ بهما جميعاً، فعدلت بينهما، ثم هداني الله عز وجل فأخذت اللبن فشربت حتى عرقت به جبيني، وبين يدي شيخ متكئ على مثوات له، فقال: أخذ صاحبك الفطرة إنه ليهدى) رواه البيهقي في دلائله.

وفي رواية مسلم: (فأُتيت بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر خمر. فقيل لي: خذ أيهما شئت. فأخذت اللبن فشربته فقال: هُدِيت الفطرة أو أصبت الفطرة، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك).

بداية المعراج من بيت المقدس:

وإذا أردنا أكثر من كل ما مر من آيات بينات، ومواقف خالدات، لرسول الله صلى الله عليه وسلم داخل بيت المقدس ومسجدها، فلنقل إن الإسراء - وهو معجزة كبرى - لم يكن إلا مقدمة لأمر أعظم أعقبه وتلاه، وهو المعراج إلى السماء...

وباتفاق أهل العلم فإن معراج النبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء ابتدأ وانطلق من أرض المسجد الأقصى...

جاء في السيرة الحلبية: لم يختلف أحد أنه صلى الله عليه وسلم عرج به من عند القبة التي يقال لها قبة المعراج من عند يمين الصخرة.

والمعراج لم يكن بالبراق كما يتوهم البعض، بل إن البراق بقي مربوطاً بالحلقة خارج باب المسجد حيث يربطه الأنبياء من قبل... أما المعراج الذي نصب من بيت المقدس إلى السماء فهو شبيه السلم أو درج تعرج فيه الأرواح إذا قبضت، وهو من أمر الغيب، جاء في بعض الآثار أنه يعاينه المرء عند الموت فيشخص إليه بصره. وفي وصفه جاء عند أهل العلم: (فوضعت له مرقاة من فضة ومرقاة من ذهب، حتى عرج هو وجبريل، وأنه منضد باللؤلؤ، عن يمينه ملائكة وعن يساره ملائكة).

ويذكر الإمام الطبري والبيهقي في الدلائل قوله عليه السلام: (لما فرغت مما كان في بيت المقدس أُتي بالمعراج ولم أر شيئاً قط أحسن منه، وهو الذي يمد إليه ميتكم عينيه إذا حُضِر، فأصعدني صاحبي فيه (أي جبريل) حتى انتهى إلى باب من الأبواب، يقال له: باب الحَفظة).

وفي طريق عودته صلى الله عليه وسلم من السماء حل ثانية بأرض الإسراء في البلدة المقدسة بيت المقدس، ليعاود ركوب البراق متجهاً به صوب مكة المكرمة، فالمسجد الأقصى كما كانت فيه بداية المعراج ففيه نهايته. وكما كان المسجد الأقصى غاية الإسراء فمنه عودته، وأكرم بذلك من مسجد!!.

يا واصف الأقصى أتيت بوصفه:

ولا تنتهي أحداث الإسراء و المعراج عند هذا الحد الذي غلب عليه الجانب الإيماني المحض المتعلق بقدرة الله سبحانه وتعالى على ما يريد ويشاء.

لكن قريشاً لما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة وأخبرها بما أكرمه الله به رأت في حادثة الإسراء والمعراج فرصة للتكذيب ولإثارة الشكوك في نفوس المؤمنين إذ عجزت عقولهم عن استيعاب المعجزة، فكان مما قالوه له:

يا محمد صف لنا بيت المقدس، كيف بناؤه وهيأته وقربه من الجبل؟ - وفي القوم من سافر إليه -

وكان ذلك الموقف شديداً على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففي رواية مسلم: (لقد رأيتَني في الحِجْر وقريش تسألني عن مسراي فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أُثبتها، فكربت كَرباً شديداً ما كربت مثله قط. قال: فرفعه الله لي أنظر إليه، ما يسألونني عن شيء إلا أنبأتهم به).وفي المسند وعند البزار والطبراني: (فذهب ينعت لهم: بناؤه كذا وهيأته كذا وقربه من الجبل كذا... ثم قالوا: فكم للمسجد من باب؟ و لم يكن عدها، فجعل ينظر إليه ويعدها باباً ويعلمهم، وأبو بكر رضي الله عنه يقول: صدقت، أشهد أنك رسول الله. فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب).

وفي هذا يقول أمير الشعراء أحمد شوقي رحمه الله مادحاً رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذاكراً طرفاً من صلته عليه السلام بالمسجد الأقصى:

يا واصف الأقصى أتيت بوصفه فكأنك الرسّام والبناء

الفتح الإسلامي لبيت المقدس

تمهيد :

يعتبر كتاب (فتوح الشام) لأبي عبدالله محمد بن عمر الواقدي، المتوفى سنة (٢٠٧) للهجرة، من أوسع الكتب التاريخية التي تحدثت عن غزوات المسلمين لبلاد الشام في عهدي الخليفتين الراشدين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما بإسهاب وتفصيل.

ومما لا شك فيه أن هناك كتباً في التاريخ أوثق من ناحية الرواية، وأحفظ من جهة السند، إلا أن الواقدي في تاريخه (فتوح الشام) يبقى هو الأوسع والأبسط والأقرب إلى النفس من حيث التصوير الفني، والتعامل مع العواطف، والحديث عن المشاعر.

فتوح بيت المقدس عند الواقدي:

وفي فتوح بيت المقدس تمتزج ولا شك العواطف بالحوادث، ويتحول سرد الوقائع إلى شريط من الصور ناطق ملوّن، حتى لكأن القارئ يعيش الحدث لحظة فلحظة، وجزءاً فجزءاً، ابتداء من ساعة الصفر وحتى نهاية القصة.

ولذلك فسوف نعول على هذا الكتاب كثيراً في إيراد قصة الفتح الأول لمدينة المقدس.

وإذا كان فتح دمشق ثم حمص - وهما أعظم مدينتين سياسياً وتجارياً - قد هز وجود الروم في بلاد الشام هزاً عنيفاً، فإنهما قد مهدا لفتوح بيت المقدس أهم مدينة دينية للمسيحية في الشرق على الإطلاق.

أبو عبيدة ابن الجراح ومشاورة القادة:

وفي أول الأمر تردد أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه القائد العام للمسلمين في بلاد الشام، بين التوجه من دمشق بل تحديداً من الجابية - التي اتخذت قاعدة لتجمع الجيوش الشامية - إلى قيسارية، أو الانطلاق نحو بيت المقدس. ؟؟

فجمع مجلس مشورته وسألهم: أشيروا عليّ بما أصنع وأين أتوجه، فقال معاذ بن جبل: اكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فحيث أمرك فسر واستعن بالله.

وقد جاء رد عمر رضي الله عنه كما يلي:

(بسم الله الرحمن الرحيم

من عبدالله عمر بن الخطاب إلى عامله بالشام أبي عبيدة، أما بعد: فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي على نبيه، وقد ورد عليّ كتابك وفيه تستشيرني في أي ناحية تتوجه إليها، وقد أشار ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم - يقصد علياً رضي الله عنه - بالسير إلى بيت المقدس، فإن الله يفتحها على يديك. والسلام عليك).

التوجه نحو بيت المقدس:

وهكذا بدأ أبو عبيدة بالتخطيط والتحضير لفتح بيت المقدس وهو يعلم يقيناً أنها ليست سهلة المنال، وأن الروم لن يفرطوا بها دون جولات وجولات...

فدعا بخالد بن الوليد - سيف الله المسلول - وعقد له راية على خمسة آلاف فارس من خيل الزحف، وسرحه إلى بيت المقدس.

ثم دعا بيزيد بن أبي سفيان وعقد له راية على خمسة آلاف، وأمره أن يلحق بخالد في اليوم الثاني لرحيل خالد.

ثم دعا شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقد له راية وضم له خمسة آلاف فارس من أهل اليمن، وقال له: سِرْ بمن معك حتى تقدم على بيت المقدس، وانزل بعسكرك عليها، ولا تختلط بعسكر من تقدم من قبلك.

ثم دعا بالمرقال بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وضم إليه خمسة آلاف فارس مع جمع من المسلمين وسرحه على إثْر شرحبيل بن حَسَنة وقال له: انزل على حصنها وأنت منعزل بأصحابك.

ثم عقد راية فسلمها للمسيب بن نجية الفزاري وضم إليه كذلك خمسة آلاف من النخع وغيرهم من القبائل.

ثم عقد راية سادسة لقيس بن هبيرة المرادي، وسابعة لعروة بن مهلهل بن زيد الخيل...

وهكذا سار الأمراء السبعة في سبعة أيام متتالية بجموع عددها خمسة وثلاثون ألفاً.

الضغط المعنوي على نفوس الروم:

وكانت خطة أبي عبيدة أن يلقي الرعب في قلوب القوة الرومية التي تتحصن بأسوار بيت المقدس المنيعة... لذا فإن خالداً لما أشرف على بلدتهم كبّر وكبّر أصحابه، فلما سمع أهل بيت المقدس ضجيج أصواتهم انزعجوا، فلما تطلعوا من وراء السور إلى قلة المسلمين استحقروهم بادئ ذي بدء ظناً منهم أن هؤلاء كل المسلمين...

ونزل خالد قبالة باب أريحاء، ثم لحق به في اليوم الثاني يزيد بن أبي سفيان، ثم في الثالث شرحبيل بن حسنة، وهكذا بقيت الإمدادات تتوالى سبعة أيام تحت سمع وبصر الروم، الذين كانوا يزدادون خوفاً وفرقاً كلما صبحهم فريق من المسلمين وهم يرفعون أصواتهم بالتكبير، ويثيرون النقع، ويدكون الأرض تحت أقدامهم دكاً.

وأقام جيش المسلمين - وقد لحق بهم بقية المسلمين والذراري وأثقالهم وأموالهم - ثلاثة أيام حول أسوار القدس لا يكلمهم أحد من أهلها إلا أنهم أحصنوا أسوارهم بالمنجنيق وعدة الحرب والطوارق والدرق والجواشن والزرد الفاخرة.

تحريك الوضع والدعوة إلى الإسلام:

حتى كان اليوم الرابع، وقد أوشك صبر المسلمين على النفاد، وبدأت أصوات بعضهم تعلو بضرورة عمل شيء ما لتحريك الوضع.

فكان أول من برز من الأمراء لسؤال أهل بيت المقدس يزيد بن أبي سفيان الذي لبس سلاحه، وتقدم نحو الأسوار ومعه ترجمانه يبلغه عنهم ما يقولون، فدعاهم إلى الإسلام وحذرهم مغبة الحرب، فما كان منهم إلا الرد القبيح والإباء والعناد والاستهزاء بالمسلمين.

وتراجع يزيد عن السور ومشى إلى أمراء الجيوش يخبرهم بجواب القوم ويدعوهم إلى الهجوم فقالوا: نراجع في ذلك أبا عبيدة أميرنا، فكتب إليهم أبو عبيدة يأمرهم بالزحف ومهاجمة الأسوار فاستبشروا وباتوا ليلتهم تلك ينتظرون الصباح.

أبو عبيدة القائد العام يصل:

ويقول الواقدي: إن المناوشات الأولى استمرت أحد عشر يوماً قبل أن يتقدم أبو عبيدة، الذي كان المدد الأعظم والسواد الأكثر لجيش المسلمين، فتلقاه الناس بالتكبير والتهليل، وضجوا ضجة واحدة تجاوبت فيها القبائل والجموع، وملأ صداها الأرجاء، فأطلت الروم خائفة، فعلموا بمقدم أمير الأمراء وقائد الجند الأعلى أبي عبيدة، فداخلهم من الغم الشيء الكثير.

كتاب أبي عبيدة لأهل القدس:

وكان أبو عبيدة رضي الله عنه كما جاء في كتاب (الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل) قد بعث الرسل إلى أهل إيلياء (بيت المقدس) ومعهم كتاباً لأهلها نصه ما يلي:

(بسم الله الرحمن الرحيم

من أبي عبيدة بن الجراح إلى بطارقة أهل إيلياء وسكانها، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وبالرسول، أما بعد:

فإنا ندعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، فإن شهدتم بذلك حرمت علينا دماؤكم وأموالكم وذراريكم وكنتم لنا إخواناً، وإن أبيتم فأقروا لنا بأداء الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإن أنتم أبيتم سرت إليكم بقوم هم أشد حباً للموت منكم لشرب الخمرة وأكل لحم الخنزير، ثم لا أرجع عنكم إن شاء الله أبداً حتى أقتل مقاتليكم وأسبي ذراريكم).

النظر إلى أبي عبيدة من فوق السور:

وقد أطل من فوق سور بيت المقدس الجاثليق - وهو أكبر البطارقة - وطلب رؤية أبي عبيدة، وأعلن للمسلمين - على لسان ترجمانه - أنه إذا رأى فيه الصفات المعلومة عنده في كتبه ومراجعه حول من يفتح بيت المقدس، فسوف يسلم إليه بيت المقدس طواعية واختياراً.

فبرز إليه أبو عبيدة رضي الله عنه فنظر البطرك إليه ملياً، ثم قال لمن حوله: ليس هو هذا الرجل.

وأمرهم بالاستمرار في القتال وعاد إلى كنيسته دون أن يكلم أبا عبيدة.

تشديد الحصار وتضييق الخناق:

وعادت المناوشات كرة أخرى والروم صامدون بقوة، وهم يظنون أن المسلمين لا يقدرون عليهم بسبب الشتاء والبرد، ولكن المسلمين أبدوا من ضروب الشجاعة والاستبسال الشيء الكثير مما هو معهود عنهم في ساحات الوغى، فكيف إذا كانوا على أطراف المسجد الأقصى وعند مشارف بيت المقدس!!!

وقد أبلى بلاء حسناً في الهجمات على أسوار بيت المقدس النبالة من أهل اليمن. قال الواقدي: قال عوف بن مهلهل: لله در عرب اليمن، فلقد رأيتهم يرمون بالنبل الروم فيتهافتون من سورهم كالغنم.

كما أنكى يومها ضرار بن الأزور في الروم نكاية شديدة، وذلك حينما ترصد لأحد قواد الروم، فتخفى تحت السور، حتى إذا ساواه وقرب من برجه أطلق عليه نبلة شديدة - وكان رامياً جيد الرمي - فوقعت في فيه، فتردى وعليه عدة حرب كاملة إلى أسفل برجه، فسمعت للقوم ضجة عظيمة وصيحة هائلة وارتياع كبير.

واستمر حصار بيت المقدس أربعة أشهر، وأبو عبيدة لا يألو جهداً: في الحرب من جهة، والصبر على لأواء الشتاء من جهة أخرى.

وقد أشرف ذات مرة كبير الروم وبطركهم على السور، وخاطب أبا عبيدة وكان مما قاله: ما الذي تريدون منا في هذه البلدة المقدسة، ومن قصدها يوشك أن الله يغضب عليه ويهلكه. فأجابه أبو عبيدة: نعم إنها بلدة شريفة، ومنها أسري بنبينا إلى السماء، ودنا من ربه كقاب قوسين أو أدنى، وإنها معدن الأنبياء وقبورهم فيها، ونحن أحق بها منكم، ولا نزال عليها أو يملكنا الله إياها كما ملكنا غيرها. فقال البطرك: أقسم لو أقمتم علينا عشرين سنة ما فتحتموها أبداً، وإنما تفتح لرجل صفته ونعته في كتبنا ولسنا نجد صفته ونعته معك أبداً...

الكتابة إلى الخليفة الفاروق في المدينة:

وبعد أخذ ورد اتفق رأي أبي عبيدة أن يكتب إلى عمر بن الخطاب ليقدم إليه، راجياً أن يكون فتح بيت المقدس سلماً على يديه، فكتب أبو عبيدة رضي الله عنه الخطاب التالي:

(بسم الله الرحمن الرحيم

إلى عبدالله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من عامله أبي عبيدة بن الجراح، أما بعد:
السلام عليكم، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، واعلم يا أمير المؤمنين أنا منازلون أهل مدينة إيلياء، نقاتلهم أربعة أشهر كل يوم، نقاتلهم ويقاتلونا، وقد لقي المسلمون مشقة، عظيمة من الثلج والبرد والأمطار إلا أنهم صابرون على ذلك، ويرجون الله ربهم. فلما كان اليوم الذي كتبت إليك الكتاب فيه أشرف علينا بطرقهم الذي يعظمونه، وقال: إنهم يجدون في كتبهم أنه لا يفتح بلدهم إلا صاحب نبينا، وأنه يعرف صفته ونعته، وهو عندهم في كتبهم، وقد سألنا حقن الدماء فسر إلينا بنفسك وأنجدنا لعل الله أن يفتح هذه البلدة علينا على يديك. والسلام).

وقد حمل الكتاب إلى المدينة ميسرة بن مسروق العبسي فوصلها على جناح السرعة.

عمر في الطريق إلى بيت المقدس:

وجمع عمر بن الخطاب من عنده من الصحابة فاستشارهم، فوافقوا على سير عمر إلى بيت المقدس، فأمرهم بالاستعداد للخروج وأن يجتمعوا خارج المدينة.

وخرج عمر رضي الله عنه من المدينة وهو على بعير له أحمر، وعليه غرارتان في إحداهما سويق وفي الأخرى تمر، وبين يديه قربة ماء، وخلفه جفنة للزاد، ومعه جماعة من الصحابة ممن شهد وقعة اليرموك وعادوا إلى المدينة منهم الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت وآخرون. فما زال في مسيره ترفعه أرض وتهبط به أخرى، وهو في سفره يتفقد أحوال الناس ويعلمهم ويصلح شئونهم كلما مر بقرية أو خالط قوماً...

ينقل الواقدي عن عمر بن مالك قال: كنت مع عمر بن الخطاب حين سار إلى الشام، فمر على ماء لجذام وعليه طائفة منهم نزول - والماء يدعى ذات المنار - فأخبر أن فيهم رجلاً عنده امرأتان وهما أختان لأم وأب، فغضب ودعاه وانتهره، ثم عذره لجهله وخيره بينهما فأقرع بينهما فأمسك إحداهما وسرح الأخرى).

ولما دنا من العقبة - وهو يريد أن يصعد منها إلى بيت المقدس - لقيه قوم من المسلمين عليهم ثياب الديباج مما أخذوه من اليرموك، فأمر عمر من معه أن يحثوا التراب في وجوههم، وأن تمزق الثياب عليهم.

الفتح الأول لبيت المقدس:

الانتظار على أحر من الجمر:

وبقي أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه بعد كتابه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه للقدوم عليه منتظراً على أحر من الجمر، وكان يسرح بعض الخيالة أحياناً لتلقي الركبان، لعله يستبشر بقدوم أمير المؤمنين.

يقول أسلم بن برقان مولى عمر ورفيقه في سفره: فلما أشرفنا على الشام نظرنا إلى طائفة من خيل المسلمين، فقال عمر للزبير: أسرع وانظر ما هذه الخيل، فأسرع الزبير فلما قرب منها قال: من أنتم؟ قالوا: نحن من عرب اليمن قد وجهنا أبو عبيدة لنأخذ له خبر عمر. حتى إذا دخلوا عليه قالوا: يا أمير المؤمين قد ذرفت العيون وطالت الأعنق بطول قدومك، فلعل الله أن يفتح بيت المقدس على يدك.

ثم رجعوا مبشرين لأبي عبيدة ومن معه بقدوم الركب الميمون: عمر ومن معه.

لقاء الخليفة والخطبة العظيمة بعد الفجر:

وقريباً من أسوار بيت المقدس التقى الخليفة والأمير، ونظر عمر إلى أبي عبيدة وهو لابس سلاحه متنكب قوسه، راكب على قلوصه مغطى بعباءة قطوانية وخطام قلوصه من شعر، فلما نظر أبو عبيدة إلى عمر رضي الله عنهما أناخ قلوصه وأناخ عمر بيده وترجلا، ثم أقبل أبو عبيدة فصافح عمر وعانقه وسلم عليه، ثم تبعه الناس يسلمون على عمر.

وفي صبيحة اليوم التالي صلى عمر بالمسلمين صلاة الفجر ثم خطبهم خطبة حسنة قال فيها:

الحمد لله الحميد المجيد، القوي الشديد، الفعال لما يريد، إن الله قد أكرمنا بالإسلام، وهدانا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأزاح عنا الضلالة، وجمعنا بعد الفرقة، وألف بين قلوبنا من بعد البغضاء، فاحمدوا الله على هذه النعم تستوجبوا منه المزيد، فقد قال الله تعالى: (لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد)، ثم قرأ (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً).

أما بعد:

فإني أوصيكم بتقوى الله عز وجل الذي يبقى ويفنى كل شيء سواه، الذي بطاعته ينفع أولياءه، وبمعصيته يُفني أعداءه.

أيها الناس: أدوا زكاة أموالكم طيبة بها قلوبكم وأنفسكم، لا تريدون بها جزاء من مخلوق ولا شكوراً، افهموا ما توعظون به، فإن الكَيِّس من أحرز دينه والسعيد من اتعظ بغيره، ألا إن شر الأمور مبتدعاتها، وعليكم بالسنة سنة نبيكم صلى الله عليه وسلم فالزموها، فإن الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة، والزموا القرآن فإن فيه الشفاء والثواب.

أيها الناس: إنه قد قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كقيامي فيكم وقال: الزموا أصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يظهر الكذب حتى يشهد من لم يستشهد، ويحلف من لم يحلف، فمن أراد بحبوحة الجنة فليزم الجماعة، وتعوذوا من الشيطان، ولا يخلونّ أحد منكم بامرأة فإنهن من حبائل الشيطان، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن، والصلاة الصلاة)...

أذان بلال يحرك كوا من الشوك:

فلما فرغ عمر من خطبته جلس فجعل أبو عبيدة يحدثه بما لقي من الروم، فلم يزل كذلك إلى أن حضرت صلاة الظهر.

فقال الناس: يا أمير المؤمنين اسأل بلالاً أن يؤذن لنا، وكان بلال قد لحق بالناس لما نزلوا على بيت المقدس وشاهد قتالهم وجعل يقاتل معهم، فلما حضرت الصلاة وسأل الناس عمر أن يؤذن لهم بلال، قال بلال: نعم.

فلما أذن اقشعرت الأبدان، وخشعت الجلود، وبكى الناس بكاء شديداً حتى كادت قلوبهم أن تتصدع، لما تذكروا أذان بلال بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

تفقد أحوال الجيش ومنازل الناس:

وقام عمر فركب يتفقد أحوال الجيش ومنازل القبائل في حصار بيت المقدس، فلما هم بالركوب على بعيره وعليه مرقعة من صوف فيها أربع عشرة رقعة بعضها من

أَدَم، قال الناس: يا أمير المؤمنين لو ركبت بدل بعيرك جواداً ولبست ثياباً بيضاً، ففعل. فقدموا له برذوناً من براذين الروم وطرح على عاتقه منديلاً من كتان ليس جديداً ولا بالخَلَق دفعه إليه أبو عبيدة.

فلما سار البرذون جعل يُهملج بعمر ويتبختر، فلما نظر عمر إليه وما فعل، نزل عنه مسرعاً، وخلع ما كان عليه من الثياب، وعاد إلى مرقعته وجمله خوفاً من أن يدخله الكبر والعجب، ثم سار حتى نزل فوافى الجيش وقد ضربت له خيمة من شعر فجلس فيها هناك على التراب ثم قام فصلى أربع ركعات.

قال الواقدي: وعلت للمسلمين ضجة عظيمة وصياح مزعج بالتهليل والتكبير، فسمع أهل بيت المقدس الضجة والجلبة فأشرفوا من فوق الأسوار متسائلين عن ذلك فعلموا بوصول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

اللقاء المنتظر: عمر والبطرك :

فلما كان الغد وصلى عمر بن الخطاب بالناس صلاة الفجر وارتفعت الشمس قال عمر لأبي عبيدة: يا عامر تقدم إلى القوم وأعلمهم أني قد أتيت.

فخرج أبو عبيدة وصاح بهم: يا أهل هذه البلدة إن صاحبنا أميرَ المؤمنين قد ورد فما تصنعون فيما قلتم؟.

فأعلموا البطرك فخرج من كنيسته وعليه المسوح وترجل الرهبان والقسوس والأساقفة معه، وقد حُمل بين يديه صليب لا يخرجونه إلا في عيدهم، ثم صعد على السور وأشرف، فخاطبه أبو عبيدة قائلاً: هذا أمير المؤمنين عمر، وليس عليه أمير، قد أتى فاخرجوا إليه واعقدوا معه الأمان والذمة وأدوا الجزية.

فطلب البطرك أن يدنو عمر وأن يقترب من السور لينظر إليه عن قرب. ولما أخبر عمر بذلك هم أن يفعل فتخوف عليه بعض المسلمين من غدر الروم فقال: (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا).

ثم أمر ببعيره فقدم إليه فاستوى في ركوبه عليه وعليه مرقعته ليس عليه غيرها وعلى رأسه قطعة عباءة قطوانية قد عصب بها رأسه، وليس معه غير أبي عبيدة وهو سائر بين يديه.

حتى قرب من السور ووقف بإزائه، والبترك والبطاليق عليه، فلما رأوه وعاينوه صاح كبيرهم: هذا والله الذي نجد صفته ونعته في كتبنا، ومن يكون فتح بلادنا على يديه، هذا والله صاحب محمد بن عبد الله.

القدس تفتح أبوابها لعمر:

ونزل الروم، وقد ضاقت أنفسهم من الحصار، ففتحوا باب سور بيت المقدس وخرجوا إلى عمر بن الخطاب يسألونه العهد والميثاق، ويقرون له بالجزية.

أورد الطبري في تاريخه لما دخل عمر الشام تلقاه رجل من يهود دمشق فقال: السلام عليك يا فاروق، أنت صاحب إيلياء، لا والله لا ترجع حتى يفتح الله إيلياء...

ونقل الطبري كذلك أن الذين صالحوا على إيلياء هم عامة الناس، وذلك أن القائدين الرومانيين: (والتذارق وأرطبون) لما سمعا بقدوم عمر ووصوله الجابية من أرض الشام هربا من القدس ولحقا بمصر، وقد أصيبا فيما بعد في بعض البعوث.

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتاب أمان لأهل القدس - سنفرده بالحديث لأهميته - وعرف هذا الكتاب فيما بعد بالعهدة العمرية أو الوثيقة العمرية.

عمر يدخل القدس والأقصى:

وقد افتتحت بيت المقدس على يد عمر بن الخطاب في ربيع الآخر سنة ست عشرة، وكان دخوله إليها يوم الإثنين، وأقام بها إلى يوم الجمعة. وقال بعضهم: بل مكث عشرة أيام.

وعن رجاء بن حيوة عمن شهد فتح بيت المقدس قال: دنا عمر من باب المسجد - المسجد الأقصى - فقال: ارقبوا لي كعباً (كعب الأحبار) فلما انفرق به الباب قال: لبيك اللهم لبيك بما هو أحب إليك. ثم قصد المحراب، محراب داود عليه السلام، وكان الوقت ليلاً، فصلى فيه (أي قيام الليل) و لم يلبث أن طلع الفجر فأمر المؤذن بالإقامة فتقدم فصلى بالناس وقرأ بهم (ص) وسجد فيها - عند سجدة داود - ثم قام وقرأ بهم في الثانية صدر بني إسرائيل - سورة الإسراء - ثم ركع وانصرف فقال: عليّ بكعب فأُتي به فقال: أين ترى أن نجعل المصلى فقال: إلى الصخرة - صخرة بيت المقدس - فقال: ضاهيت والله اليهودية يا كعب، وقد رأيتك وخلعك نعليك - عند دخوله المسجد - فقال: أحببت أن أباشره بقدمي، فقال: قد رأيتك، بل نجعل قبلته صدره كما جعل رسول الله

صلى الله عليه وسلم قبلة مساجدنا صدورنا، اذهب إليك فإنا لم نؤمر بالصخرة ولكنا أمرنا بالكعبة.

ثم قام من مصلاه إلى كناسة قد كانت الروم منذ ما قبل النصرانية دفنت بها بيت المقدس (أي بعض معالم المسجد وآثاره) في زمان بني إسرائيل (استهانة منهم به) فلما صار بيت المقدس إلى النصارى أبرزوا بعضها وتركوا سائرها. وقال عمر: يا أيها الناس اصنعوا كما أصنع. وحثا في أصلها وحثا في فرج من فروج قبائه.

وسمع التكبير من خلفه، فقال: ما هذا؟ قالوا: كبّر كعب وكبّر الناس بتكبيره، فقال: عليّ به، فأُتي به فقال: يا أمير المؤمنين إنه قد تنبأ على ما صنعت اليوم نبي منذ خمسمائة سنة حينما قال: أبشري أوري شلم عليك الفاروق ينقيك مما فيك...

وأقام عمر بن الخطاب أيامه في بيت المقدس يصلح أحوال الناس ويطعمهم ويوسع عليهم.

عن أنس بن مالك قال: شهدت إيلياء مع عمر فبينما هو يطعم الناس يوماً بها أتاه راهبها وهو لا يشعر أن الخمر محرمة - أي عند المسلمين - فقال لعمر: هل لك في شراب نجده في كتبنا حلالاً إذا حرمت الخمرة؟ فدعاه به فقال: من أي شيء هذا؟ فأخبره أنه طبخه عصيراً حتى صار إلى ثلثه - أي غلاه حتى تبخر ثلثاه وبقى ثلثه - فغرف بأصبعه ثم حركه في الإناء فشطره فقال: هذا طلاء فشبهه بالقطران، وشرب منه وأمر أمراء الأجناد به، كتب في الأمصار: إني أُتيت بشراب قد طبخ من العصير حتى ذهب ثلثاه وبقي ثلثه كالطلاء فاطبخوه وارزقوه المسلمين.

الحنين إلى المدينة المنورة:

وعاد عمر أدراجه إلى المدينة المنورة واصطحب معه كعب الأحبار.

قال الواقدي: وكان أهل المدينة يظنون أن عمر يقيم بالشام لما يرون من كثرة خيرها وطيب فواكهها ورخص أسعارها، ولما يخبرون عنها أنها بلاد الأنبياء وهي الأرض المقدسة وفيها المحشر.

فبقي الناس يتطاولون نحوه ويخرجون في كل يوم ينظرونه، حتى قدم عمر رضي الله عنه فارتجت المدينة يوم قدومه، واستبشر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم برؤيته.

قال ابن كثير نقلاً عن سيف بن عمر عن شيوخه: وقد دخل عمر الشام أربع مرات: الأولى كان راكباً فرساً حين فتحت بيت المقدس.

والثانية على بعير.

والثالثة وصل إلى سرع ثم رجع لأجل ما وقع بالشام من الوباء.

والرابعة دخلها على حمار.

وينقل الطبري أن عمر فرّق فلسطين على رجلين - أي جعلهما واليين عليها - فجعل علقمة بن حكيم على نصفها وأنزله الرملة، وعلقمة بن مجزز على نصفها وأنزله إيلياء، فنزل كل واحد منهما في عمله في الجنود التي معه.

العهدة العمرية وثيقة مقدسية... قراءة وتحليل:

تمهيد:

تبدأ قصة العهدة العمرية لنصارى بيت المقدس بالساعة التي قرروا فيها الاستسلام له وفتح أبواب البلدة أمامه وتسليمه مفاتيحها.

والعهدة تعني: الميثاق والمعاهدة، وهي مأخوذة من العهد، وهو: حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال - كما يقول الراغب الأصفهاني - قال تعالى: (وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولاً) أي أوفوا بحفظ الأيمان، وعهد فلان إلى فلان يَعْهد: ألقى إليه العهد وأوصاه بحفظه، وقولهم في هذا الأمر عهدة: لما أمر به أن يستوثق منه.

العهدة العمرية كتاب أمان وعهد:

ويراد بالعهدة العمرية هنا: الكتاب الذي كتبه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأهل بيت المقدس غداة فتحها، بعد أن تحصنوا بأسوارها دون جيش المسلمين بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، وأبوا أن يستسلموا إلا لأمير المؤمنين نفسه، بعد أن استيقنوا أنه هو الذي تحدثت عنه الكتب السابقة بنعته وصفته وأنه يدخلها صلحاً برضا أهلها.

يقول الواقدي في فتوح الشام عن كبير نصارى بيت المقدس (البترك) لما نظر إلى عمر بن الخطاب من فوق السور فرآه في مرقعته وبساطته مهيباً جليلاً، أنه صاح بأعلى صوته:

هذا والله الذي نجد صفته ونعته في كتبنا، ومَنْ يكون فتح بلادنا على يديه بلا محالة. ثم إنه قال لأهل بيت المقدس:

ويحكم انزلوا إليه واعقدوا معه الأمان والذمة. هذا والله صاحب محمد بن عبدالله. قال الواقدي: فلما سمعت الروم كلام البترك نزلوا مسرعين وكانوا قد ضاقت أنفسهم من الحصار، ففتحوا الباب وخرجوا إلى عمر بن الخطاب يسألونه العهد والميثاق والذمة، ويقرون له بالجزية.

فلما نظر إليهم عمر وهم على تلك الحالة تواضع لله وخر ساجداً على قتب بعيره ثم نزل إليهم وقال: ارجعوا إلى بلادكم ولكم الذمة والعهد إذ سألتمونا وأقررتم بالجزية.

قال فرجع القوم إلى بلدهم ولم يغلقوا الأبواب. ورجع عمر إلى عسكره فبات فيه ليله. فلما كان الغد قام فدخل إليها، وكان دخوله يوم الإثنين.

نص الوثيقة العمرية لأهل بيت المقدس:

وها هو نص الوثيقة العمرية (العهدة العمرية) لأهل مدينة بيت المقدس (ايلياء) بين أيدينا كما جاء في المصادر التاريخية الموثوقة، وكما هو مثبت في نص الوثيقة الأصلية التي لا تزال إلى اليوم محفوظة في مكتبة كنيسة القيامة بالقدس. وهي من أقدم كنائس النصارى وأجلّها قدراً عندهم بلا منازع.

بسم الله الرحمن الرحيم.

هذا ما أعطى عبد الله: عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان. أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها، وسائر ملتها أن لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صُلُبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم.

ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود.

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن.

وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت (يقصد اللصوص وقطاع الطرق). فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم. ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه ما على أهل إيلياء من الجزية.

ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم. فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم. ومن شاء رجع إلى أهله.

فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصّادهم.

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا ما عليهم من الجزية.

ثم كتب عقب ذلك أسفل الكتاب: شهد على ذلك: خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبدالرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان...

وكتب وحضر سنة ١٥هـ.

اهتمام تاريخي بالوثيقة:

هذا هو النص الكامل للعهدة العمرية، التي تعتبر أهم وثيقة تاريخية مكتوبة تخص مدينة بيت المقدس... وقد لقيت خلال القرون الفائتة اهتمام المسلمين والنصارى على حد سواء، بل إن المسلمين كانوا كما يثبت ذلك التاريخ أكثر حرصاً على تنفيذها وهم أقوياء من التجاء النصارى إليها والاحتماء بها وهم ضعفاء.

ويهمنا هنا أن نوضح أهم النقاط والمعاني التي دارت حولها تلك العهدة وأبرزها.

أولاً: بداية الوجود الإسلامي:

إن العهدة العمرية تثبت لنا نقطة البداية للوجود الرسمي للإسلام. هذا الوجود الذي تمثل في محاصرة المدينة والتضييق على القوة البيزنطية الرومية التي كانت تحتلها منذ عام ٤٠٠ للميلاد، فكان رحيلها عن القدس عام ٦٣٨ أي بعد أكثر من مئتي عام من احتلالها.

ونحن إذ نقول: إن العهدة العمرية ثبتت الوجود الرسمي، لا ننسى أن بداية الوجود الإسلامي في بيت المقدس ابتدأ في ليلة الإسراء والمعراج، أي قبل ذلك الفتح العسكري بقرابة (١٨) عاماً...

ولقد صرح عمر في عهدته إلى أهل بيت المقدس بما يشير إلى إنهاء الوجود الروماني في بيت المقدس أن (عليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت).

ثانياً: افتتاح البلدة صلحاً:

لم يدخل المسلمون بقيادة عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح بيت المقدس بقوة السلاح، وإنما دخلوها صلحاً مع أهلها، و لم يكن هذا الصلح والتسليم من أهل بيت المقدس إلا نتيجة اعتقاد سابق لديهم أن بلدتهم المقدسة هذه لا يدخلها إلا أمير له صفات خاصة انطبقت على عمر بن الخطاب شخصياً دون من سواه، فأسلموا إليه قيادهم وفتحوا أمامه أبواب بلدتهم طوعاً واختياراً لا إكراهاً واضطراراً.

وفائدة اعتبار البلدة مصالحاً عليها أن شروط الصلح تبقى معتبرة وقائمة وملزمة ما دامت هذه البلدة بأيدي المسلمين إلى يوم الدين.

ثالثاً: فتح لا كالفتوح السابقة:

أثبتت العهدة العمرية للمرة الأولى في تاريخ القدس دخول المسلمين لها بكل طمأنينة تملأ قلوب أهلها، على خلاف ما عرف في تاريخها الطويل من مذابح ونكبات ودماء تسيل كالأنهار كلما انتقلت من سلطانِ ملكٍ إلى سلطان غيره، أو كلما دخلها جيش بعد حصار...

فالإسلام دين التسامح والسلام، ومدينة القدس أولى البلدان بالسلام في نظر الإسلام...

ومن أجل رعاية السلام فيها، واتخاذه رمزاً لها، ترك عمر بن الخطاب المدينة المنورة وسافر إلى فلسطين متجشماً مشاقّ السفر ووعثاءه، لاستلام بيت المقدس دون إراقة دماء وإزهاق أرواح، وكان في غاية التسامح مع أهلها في تلبية كل طلب ممكن لهم.

رابعاً: أمانان عُمَرِيّان... لا أمان واحد:

أعطى عمر بن الخطاب في وثيقة العمرية لأهل بيت المقدس أمانين أو حريتين..

الأولى منهما: الاختيار الكامل بين البقاء في المدينة مع الأمان الكامل، أو الرحيل عنها إلى حيث شاؤوا مع حق الأمان تحت حماية المسلمين إلى أن يبلغوا المكان الذي يرون أنهم آمنون فيه.
والثانية: أن لمن اختار البقاء في بيت المقدس كامل الحرية في البقاء على نصرانيته والمحافظة على أماكن عبادته وممارسة شعائر دينه إذا أدى الجزية. وهاتان الحريتان تمثلان قمة الحرية الدينية في الاعتقاد وممارسة الشعائر تحت رايات المسلمين، (فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن) و(لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صُلُبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم).

وبهذا أمّن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أهل القدس من النصارى على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وسائر ممتلكاتهم، ومنع المسلمين أجمعين من التعدي على أي من ذلك ما دام النصارى يؤدون الجزية كسائر أهل الكتاب.

خامساً: لا مقام لليهود في القدس:

وتوجساً من شرور اليهود وخوفاً من ادعائهم مشاركة النصارى في حق البقاء في بيت المقدس، فقد لبى عمر بن الخطاب في عهدته العمرية الشهيرة مطلباً للنصارى يتمثل في عدم السماح لليهود بالاستيطان في بيت المقدس، وضرورة إخراجهم منها لأسباب عديدة، تدل في مجملها على كراهية شعوب الأرض لليهود منذ القديم.

(ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود).

فالحذر من مكائدهم ومكرهم ليس مقصوراً على المسلمين.

وإن مما يذكر أن اليهود الذين أجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة واختاروا الإقامة في خيبر على أطراف الجزيرة العربية عاد عمر بن الخطاب فأجلاهم عن خيبر إلى ما وراءها من البلدان اتقاء لشرهم وإبعاداً لأذاهم.

إن إبعاد اليهود عن بيت المقدس قضية مهمة جداً. نظر إليها وأخذها بعين الاعتبار بكل جدية أكثر من قائد وملك ومفكر وذلك ابتداء من عمر بن الخطاب، إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب، إلى الخليفة العثماني عبدالحميد...

سادساً: القُوّاد هم شهود الوثيقة:

شهد على نص العهدة العمرية ثلة كريمة من كبار الصحابة وقواد الجيوش التي كانت تجوب بلاد الشام فتحاً ودعوة. كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان وهؤلاء الثلاثة من كبار القواد في جيوش الشام التي توجهت إليه منذ أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه واستمرت في فتوحاتها لأنحاء البلاد حتى استكملت ذلك أيام عمر بن الخطاب.

وكون هؤلاء القُوّاد شهوداً على الوثيقة يعني أنهم موافقون عليها، ومشاركون في إعداداها، ملتزمون بما فيها. عدا عن أنهم هم الذين كان لهم شرف رفع راية التوحيد على أول قبلة للمسلمين وثالث مسجد تشد إليه رحالهم ويقصد بقعتَه المباركة رجالُهم.

سابعاً: قرب الفتح من العهد النبوي تحقيق لبشارة عظيمة:

إن فتح المسلمين لبيت المقدس بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس سنين يدل دلالة واضحة على مدى تشوق المسلمين إلى تحقيق بشرى سابقة منه صلى الله عليه وسلم لأمته:

بفتح بيت المقدس ودخول الإسلام في أرجائه ورفع راية التوحيد فوق أسواره. ولا شك أن تحقيق تلك البشرى من أعلام نبوته ودلائل رسالته وبراهين صدق مقامه عند ربه.

روى عوف بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في غزوة تبوك (أي أنه كان على أطراف الشام غازياً) وهو في قبة من أَدَم فقال: (أعدد ستاً بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كعقاص الغنم، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً) رواه البخاري...

وواضح أن فتح بيت المقدس الذي بشر به صلى الله عليه وسلم واعتبره من علامات الساعة أو مقدماتها عده في الحديث عقب وفاته... وهكذا كان كما رأينا...

هذا تحليل مبسط للوثيقة العمرية أو العهدة العمرية أو وثيقة أمان فتح بيت المقدس التي عبرت عن سماحة الإسلام وحبه للسلام، وبعده عن التزمت وإنكاره لمبدأ إذلال البشر أو العدوان الأهوج عليهم...

بيت المقدس في العهد الأموي والعباسي

تمهيد:

كان معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه - كاتب الوحي على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم - والياً على فلسطين بما فيها مدينة القدس إضافة إلى دمشق، وذلك في عهد الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان ذي النورين رضي الله عنه منذ عام (٢١) للهجرة، ثم أصبح بعد عام (٤١) ه خليفة عاماً للمسلمين يحكم الدولة الإسلامية كلها، وبه بدأت الدولة الأموية، فولّى مدينة القدس لأحد عماله وهو سلامة بن قيصر الذي سكن في مكان قصر هيرودس الروماني.

بيت المقدس أيام معاوية:

ونستطيع أن ننقل وصفاً لبيت المقدس في بداية العهد الأموي من كتابة المؤرخ الغربي (جيمس روز ماكْبرسون) كما ينقل عنه عارف باشا الذي يقول: كان للقدس يومئذ سور، وكان على ذلك السور (٨٤) برجاً وله ستة أبواب، ثلاثة منها فقط يدخل الناس منها ويخرجون: واحد غربي المدينة والثاني شرقيها والثالث من الشمال.

وكان يؤم المدينة في اليوم الخامس عشر من شهر إيلول كل عام جماهير غفيرة من مختلف الأجناس والأديان بقصد التجارة.

وكان فيها مسجد مربع الأضلاع بني من حجارة وأعمدة ضخمة نقلت من الأطلال المجاورة، وهو يتسع لثلاثة آلاف مُصَلٍّ، وهو مسجد يُعتقد أن بانيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان جبل الزيتون مغطى بأشجار العنب والزيتون.

وقد تولى معاوية بن أبي سفيان بنفسه الخطابة والإمامة بالمسجد الأقصى أحياناً كما يستفاد ذلك من بعض الأحاديث، فعن يعلى بن شداد بن أوس قال: شهدت مع معاوية بيت المقدس فجمّع بنا فنظرت فإذا جل من في المسجد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيتهم محتبين والإمام يخطب.

قلاقل واضطرابات ضد الأمويين:

وكادت القدس وفلسطين كلها أن تنقلب على بني أمية وتوالي عبدالله بن الزبير بسبب نائل بن قيس الجذامي المؤيد لابن الزبير في حربه ضد الأمويين، إلا أن مروان بن الحكم خليفة الأمويين آنذاك أسرع إلى محاربته والتغلب عليه وتثبيت حكم الأمويين في فلسطين كلها.

وجاء بعد مروان بن الحكم ابنه عبدالملك بن مروان فولّى على فلسطين رجلاً من قبله اسمه منصور...

عبد الملك والآثار الخالدة:

وكان عهد عبدالملك بالنسبة لبيت المقدس مميزاً، حيث ترك أهم أثرين معماريين إسلاميين في بيت المقدس: المسجد الأقصى بصورته المقاربة لما هو عليه الآن ومسجد قبة الصخرة، وهذان الأثران ليسا من مفاخر بني أمية فقط بل هما من مفاخر المسلمين في الشرق كله.

فقد ابتدأ عبدالملك عمارة المسجد الأقصى وأتمها وأكملها من بعده ابنه الوليد بن عبدالملك، وكان كثير التردد إليه والجلوس فيه.

ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء عن إسماعيل بن عبيد قال: كان عبدالملك بن مروان جالساً في صخرة بيت المقدس وأم الدرداء الصغرى جالسة معه، حتى إذا نودي للمغرب قام وقامت تتوكأ على عبدالملك - وكانت امرأة كبيرة - حتى يدخل بها المسجد - أي المسجد الأقصى - فتجلس مع النساء، ويمضي عبدالملك إلى المقام يصلي بالناس.

كما انصرف بكل اهتمام وجد لعمارة مسجد الصخرة في بيت المقدس، فأنفق في هاتين العمارتين ما لا يوصف من المال والجهد والاتقان.

يقول ابن كثير: ولما أراد عبدالملك عمارة بيت المقدس وجه إليه بالأموال والعمال، ووكّل بالعمل رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام مولاه، وجمع الصناع من أطراف البلاد وأرسلهم إلى بيت المقدس، وأمر رجاء بن حيوة ويزيد أن يفرغا الأموال إفراغاً ولا يتوقفا فيه، فبثوا النفقات وأكثروا، فبنوا القبة وفرشاها بالرخام الملون وأقاما لها سدنة وخداماً بأنواع الطيب والمسك والعنبر والماورد والزعفران، ويعملون منه غالية (طيباً)

ويبخرون القبة والمسجد من الليل، وجعل فيها من قناديل الذهب والفضة، والسلاسل الذهب والفضة شيئاً كثيراً، وفرشاها والمسجد بأنواع البسط الملونة، وكانو إذا أطلقوا البخور شُمّ من مسافة بعيدة، وكان إذا رجع الرجل من بيت المقدس إلى بلاده توجد منه رائحة المسك والطيب والبخور أياماً، وكان فيه من السَّدَنة والقُوَّم القائمين بأمره خلق كثير. ولم يكن يومئذ على وجه الأرض بناء أحسن ولا أبهى من قبة صخرة بيت المقدس، وقد كان فيها من الفصوص والجواهر والفسيفساء وغير ذلك شيء كثير وأنواع باهرة.

رجاء ويزيد تبرعا للمسجد بمكافأتهما:

ولما فرغ رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام من عمارتهما على أكمل وجه فضل من المال الذي أنفقاه على ذلك ستمائة ألف مثقال، وقيل غير ذلك، فكتبا إلى عبدالملك يخبرانه بذلك، فكتب إليهما قد وهبته منكما، فكتبا إليه: إنا لو استطعنا لزدنا في عمارة هذا المسجد من حلي نسائنا، فكتب إليهما: إذا أبيتما أن تقبلاه فأفرغاه على القبة والأبواب، فما كان أحد يستطيع أن يتأمل القبة مما عليها من الذهب...

وقد قيل إن عبدالملك رصد خراج مصر لمدة سبع سنين على عمارة بيت المقدس. وقد وجد مكتوباً على إحدى قناطر قبة الصخرة: (بنى هذه القبة عبدالله عبدالملك بن مروان أمير المؤمنين في سنة اثنتين وسبعين، تقبل الله منه ورضي عنه).

بيعة الخلفاء في بيت المقدس:

وبلغ من شدة حب الوليد بن عبدالملك لبيت المقدس أنه تقبل بيعة الناس له بالخلافة على سطح صخرة بيت المقدس، بل إنه أراد أن يتخذ بيت المقدس مقراً لخلافته، كما أنه قام ببعض الترميمات والإصلاحات...

ومثل الوليد فعل أخوه من بعده سليمان بن عبدالملك، فقد بايعه الناس على ظهر مسجد الصخرة، وكان يحب الجلوس في قبة السلسلة ومن حوله الناس على الكراسي والوسائد، وإلى جانبه الأموال وكتاب الدواوين.

ولما جاءت خلافة عمر بن عبدالعزيز الأموي الراشد، كان من مواقفه المشرفة في بيت المقدس أنه أمر بإخراج اليهود منها لما أحس بسوء نيتهم فيها، كما أنه كان يلزم ولاته وعماله بالحلف ولاء وطاعة له في مسيرته الإصلاحية، وذلك في المسجد الأقصى ببيت المقدس.

المصلى المرواني:

ولا يفوتنا هنا أن ننوه إلى أن المسجد الأقصى في فترة خلافة الأمويين شهد بناء المصلى المرواني، وكان يطلق عليه قديماً التسوية الشرقية من المسجد الأقصى، ويقع هذا المصلى في الجهة الجنوبية الشرقية من المسجد الأقصى المبارك، وهو يتكون من (١٦) رواقاً جملة مساحتها (٣٧٧٧٥ م٢)، ولهذا المصلى مداخل عديدة منها مدخلان من الجهة الجنوبية وخمسة مداخل من الجهة الشمالية، وقد خصص هذا المصلى في زمن عبدالملك بن مروان لتدريس الفقه والعلوم الشرعية...

وقد هجر هذا المصلى لفترة طويلة من الزمن حتى تم إعادة افتتاحه وإعداده للصلاة فيه وتسميته باسمه الأصلي (المصلى المرواني) وذلك في عام ١٩٩٦م، بعد أن ساهم في إعماره وترميمه عموم المسلمين من فلسطين وخارجها.

دَجّالون في بيت المقدس:

ومن الأحداث المهمة التي شهدتها مدينة بيت المقدس في الفترة الأموية أن أحد مدعي النبوة الدجالين لجأ إليها - وكان على قدر كبير من الذكاء والتمويه - وكان اسمه الحارث بن سعيد المتنبي الكذاب ويقال له كذلك: الحارث بن عبدالرحمن بن سعيد الدمشقي.

وقد بلغ من شأنه لما ادعى النبوة في دمشق أن عبدالملك بن مروان طلبه طلباً حثيثاً ليقتله فاختفى، وصار إلى دار بيت المقدس وهو يدعو إلى نفسه سراً، فازداد اهتمام عبدالملك به، فلحق به إلى النصرية فنزلها، فورد عليه رجل من أهلها ممن كان يدخل على الحارث وهو ببيت المقدس، فأعلمه بأمره وأين هو، وسأل من عبدالملك أن يبعث معه طائفة من الجند ليلقي القبض عليه، وفعلاً دخل عليه ليلاً ومعه الجند بأيديهم الشموع، فاختفى الحارث منه في سِرْب هناك، فأدخل النصري يده في ذلك السرب فإذا بثوبه، فاجتره وأخرجه وساقه إلى عبدالملك فقتله، وخلص الناس من فتنته.

الصحابة الكرام الذين تُوُفّوا ببيت المقدس:

وقد شهدت بيت المقدس في الفترة الأموية وفاة الصحابة الكرام الذين شدوا الرحال للإقامة الدائمة في بيت المقدس. ومنهم:

عبادة بن الصامت رضي الله عنه أبو الوليد ابن قيس الخزرجي الأنصاري السلمي، كان من نقباء الأنصار وشهد العقبتين وبدراً والمشاهد كلها. وجهه عمر رضي الله عنه إلى الشام قاضياً ومعلماً، كان يؤم في مسجد بيت المقدس، فكان أول قاضٍ للمسلمين في بيت المقدس، توفي ودفن في بيت المقدس سنة أربع وثلاثين للهجرة،وهو ابن اثنتين وسبعين سنة.

واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، من بني ليث بن بكر بن عبدمناف بن كنانة، أسلم والنبي صلى الله عليه وسلم يتجهز إلى تبوك. يقال إنه خدم النبي صلى الله عليه وسلم قرابة ثلاث سنين. كان من أهل الصفة، سكن الشام أولاً ثم تحول إلى بيت المقدس ومات بها في عام (٨٣) هـ وهو ابن مائة سنة.

شداد بن أوس رضي الله عنه، أنصاري خزرجي. وصفه عبادة بن الصامت بأنه ممن أوتي العلم والحلم. وأورد ابن حجر في الإصابة عن أبي هريرة: فُضّل شداد بن أوس الأنصاري بخصلتين: ببيان إذا نطق، وبكظم إذا غضب.

وأخرج الطبراني عن شداد أنه كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يجود بنفسه فقال عليه السلام: ما لك يا شداد؟ قال: ضاقت بي الدنيا، فقال: ليس عليك، إن الشام سيفتح وبيت المقدس سيفتح وتكون أنت وولدك من بعدك أئمة فيهم. توفي سنة (٥٨) هـ.

سلامة بن قيصر رضي الله عنه الحضرمي، ذكره ابن حبان في الصحابة وقال: سكن مصر وحديثه عند أهلها ومات ببيت المقدس وقبره فيها.

أبو أبي الأنصاري رضي الله عنه عبدالله بن عمرو بن زوجة عبادة بن الصامت، كان ممن صلى إلى القبلتين. سكن بيت المقدس وتوفي فيها. قال ابن حجر: هو آخر من مات من الصحابة بفلسطين.

سراج التميمي غلام تميم الداري الذي كان يسرج في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بسعف النخل (يضيء المسجد)، ولما استقر في بيت المقدس نذر نفسه لخدمة المسجد الأقصى فكان سادن المسجد، وكان اسمه قبل الإسلام فتحاً فسمّاه النبي صلى الله عليه وسلم سراجاً.

شمعون الأنصاري رضي الله عنه قيل إن اسمه عبدالله ويكنى أبا ريحانة، سكن بيت المقدس، أصله من حضرموت كان يكثر السجود والتورع، له خمسة أحاديث.

الصحابة الكرام الذين شدوا الرحال إلى بيت المقدس:

أما الصحابة الكرام الذين شدوا الرحال لزيارة المسجد الأقصى فهم كثير، منهم:

أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، وكان القائد العام لجيوش الفتح.

وبلال بن رباح رضي الله عنه، شهد فتح بيت المقدس مع عمر بن الخطاب وأذّن في المسجد الأقصى.

ومعاذ بن جبل رضي الله عنه، استخلفه أبو عبيدة على الناس بعد موته.

وعياض بن غنم رضي الله عنه، دخل بيت المقدس وبنى فيه حماماً له.

وخالد بن الوليد رضي الله عنه، سيف الله المسلول كان ممن شهد على الوثيقة العمرية لأهل بيت المقدس.

وتميم بن أوس الداري رضي الله عنه، وهو من أهل فلسطين قبل الإسلام أسلم وصحب النبي صلى الله عليه وسلم وأقطعه النبي صلى الله عليه وسلم بناء على طلبه ديار الخليل وكان أميراً على بيت المقدس.

وعبدالله بن سلام رضي الله عنه، أحد المشهود لهم بالجنة.

وأبو هريرة رضي الله عنه، راوي حديث: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى).

ومنهم كذلك معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أمير المؤمنين وأحد شهود الوثيقة العمرية، وعبدالله بن عمر بن الخطاب ابن الخليفة الثاني رضي الله عنهما، وأبو ريحانة رضي الله عنه كان يعظ في المسجد الأقصى، وأبو جمعة الأنصاري جندب بن سباع رضي الله عنه، وعوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه، وعمرو بن العاص رضي الله عنه أحد الشهود على الوثيقة العمرية، وعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه وهو كذلك ممن شهد على الوثيقة العمرية، وغيرهم عشرات بل مئات من الصحابة.

هذه هي القدس لقيت في فترة الأمويين عناية كبيرة واهتماماً بالغاً.

بيت المقدس في العصر العباسي:

تمهيد:

مما لا شك فيه أن لاهتمام الأمويين الشديد ببيت المقدس في فترة عبدالملك وابنه الوليد أسباباً سياسية خاصة زيادة على الدوافع الدينية العامة.

ذلك أن الأمويين في فترة من فترات حكمهم جوبهوا بثورات في الحجاز ضدهم، بل وثورات في أماكن عديدة، وكان عضدهم الأول وقوام جيشهم وعمود قوتهم نابعاً وراجعاً إلى التفاف أهل الشام حولهم ونصرتهم لهم، مما يفسر بقاء عاصمتهم عاصمة الأمويين في دمشق، بل وتفكير بعض خلفائهم بنقلها إلى القدس، وتلقي بعضهم البيعة في القدس، ولجوء بعضهم أيضاً إلى فرض يمين الولاء لهم على عمالهم وولاتهم في بيت المقدس.

بيت المقدس بين الأمويين والعباسيين:

لذلك كله فإنه لا يستطيع المؤرخ مهما اجتهد أن يرفع اهتمام العباسيين ببيت المقدس إلى رتبة اهتمام الأمويين به بناءً واحتراماً ومتابعة.

ففي الوقت الذي نجد فيه وفرة في الأخبار وكمّاً كبيراً من الاهتمام وتتابعاً واضحاً في جهود الأمويين تجاه القدس، فإننا نجهد أنفسنا ونَملّ من كثرة التنقيب ونعاني من شحّ الأخبار وقلة المرويات عن جهود بني العباس فيما يخص الموضوع نفسه... وإن كانت الحقيقة تقتضي منا أن لا نغمطهم حقهم فيما نقله لنا التاريخ.

أولاً: أبوجعفر المنصور:

وأول من تفرغ للنظر في شئون بيت المقدس من العباسيين الخليفة أبو جعفر المنصور الذي زار مدينة القدس عام (١٤١هـ) بعد أن حج في عامه ذاك، فرأى المسجد الأقصى الكبير وقد سقط شقه الشرقي والغربي بسبب زلزال ضربه أواخر عهد بني أمية (١٣٠هـ) وطلب منه أهل القدس أن يصلح مسجدهم، فزعم أنه ليس في بيت المال ما يسد نفقة الإصلاح، فأمر بقلع الصفائح الذهبية والفضية - التي كانت ملبسة على أبواب المسجد الأقصى من عهد بنائه الأول وضربت نقوداً - وأنفقت على تعمير المسجد الأقصى.

ثانياً: المهدي وجهود طيبة:

وعاد الزلزال فضرب بيت المقدس ثانية بعد ثلاث سنين فتضرر المسجد من جديد، وكان الضرر في هذه المرة بالغاً - كما يقول الأستاذ عارف العارف - وكانت الخلافة آلت إلى المهدي، ووقع البناء الذي بناه المنصور فأمر المهدي بإعادة البناء وإتقانه، ولم يكن في خزانة الدولة ما يكفي، فكتب إلى عماله في جميع أنحاء مملكته فلبى هؤلاء نداءه، وعمّر المسجد هذه المرة بعناية كبيرة، وأنفقت عليه أموال طائلة.

وتَكَوَّن بناء المسجد الأقصى الذي بناه المهدي من رواق أوسط كبير يقوم على أعمدة رخام، وتكتنفه من كل جانب سبعة أروقة موازية له وهي أقل ارتفاعاً منه... ومن المعلوم أن المهدي كان يرغب في تقليد الوليد بن عبدالملك في إعمار وإنشاء الآثار والاهتمام بإحكامها.

وترك المهدي الجزء القديم من المسجد الأقصى مما لم يتهدم ولم يتضرر كجانب جمالي وأثري، وصار ببناء المهدي للمسجد الأقصى ستة وعشرون باباً، سُمّي الباب الأوسط المواجه للمحراب - وهو الرئيسي - بالباب النحاسي الكبير، وكان على يمينه سبعة أبواب وعلى يساره مثلها، بينما كانت الأبواب الأحد عشر الأخرى في الحائط الشرقي من المسجد الأقصى... وقد انتصبت فوق المحراب قبة من الخشب جلدت من الخارج وغطيت بأفرخ من الرصاص، وكانت أعمدة المسجد كلها قَبْل المهدي من البناء، فلما عمّر أعمدته بالرخام أمكن التفريق بين أعمدته وأعمدة البناء القديم. وبلغ طول المسجد حينذاك (١٠٣متراً) وعرضه (٦٩متراً).

ويذكر المؤرخون أنه في عهد المهدي العباسي أمر بطرد البطريرك الأورشليمي إلياس الثالث ونفيه إلى بلاد الفرس لإساءاته وخطره، وأمر المهدي كذلك بأن يسكن المسيحيون في حي واحد من أحياء القدس، وأن تحصل منهم فدية على حسب شرط الوثيقة العمرية الأولى.

ثالثاً: الرشيد وعلاقات حسنة مع النصارى:

ولما كانت خلافة هارون الرشيد تميزت علاقته بالنصارى بحسن الجوار والمجاملات، فسمح الرشيد للامبراطور شارلمان الذي كانت له روابط قوية به بترميم الكنائس وبناء كنيسة العذراء حيث تقوم على آثارها كنيسة الدباغة.

وقد أهدى هارون لشارلمان هذا هدايا نفيسة منها ساعة وفيل وأقمشة، وأخذ على نفسه حماية الحجاج المسيحيين الذين يفدون لزيارة بيت المقدس، فقابله شارلمان بالمثل فكان يرسل في كل عام وفداً إلى القدس يحمل الهدايا إلى الخليفة والأموال للفقراء.

ومما يذكر أن وفد شارلمان عاد مرة إلى أوروبا حاملاً مفاتيح كنيسة القيامة والقبر المقدس الذي يزعم النصارى أن عيسى مدفون فيه.

رابعاً: المأمون وترميمات الأقصى والصخرة:

وفي أواخر سنة (٢١٦هـ) زار الخليفة المأمون العباسي بيت المقدس وهو سائر نحو مصر - وكانت حصلت زلزلة ثالثة بعد إصلاح المهدي أصابت المسجد ببعض الخراب - فأمر المأمون أمراء الأطراف والقواد أن يتولى كل منهم بناء رواق من المسجد على نفقته، وجعل المشرف على ذلك قائد جيوشه عبدالله بن طاهر، فتم بناء المسجد الأقصى وترميمه مرة أخرى.

ولما رمم المسجد الأقصى في عهد المأمون رممت كذلك قبة الصخرة، واستبدل العمال في الكتابة الكوفية حول قبة الصخرة اسم الخليفة المأمون باسم الخليفة الأموي، غير أنه - فيما يبدو - فاتهم أن يغيروا سنة الترميم بسنة البناء الأموي فبقيت على حالها (٧٢هـ) تشهد للباني الأموي الأول.

والكتابة الكوفية المذكورة هي - كما يقول الأستاذ محمد كرد علي :

(بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، بنى هذه القبة المباركة عبدالله الإمام المأمون في سنة اثنتين وسبعين. فليقبلها الله منه ويرضى عنه. آمين).

والذي تولى بناء القبة من قبل المأمون هو صالح بن يحيى أحد رجاله البارزين.

الأمن العام مستتب في بيت المقدس:

وقد عم الأمن مدينة القدس خاصة في العصور العباسية الزاهية، وقد زارها في تلك الفترة العالم المعروف (برنارد الحكيم) بعد أن نال رضا البابا في روحه وموافقته. ووصفها برنارد فقال: (إن المسلمين والمسيحيين فيها على تفاهم تام، وإن الأمن العام مستتب للغاية، حتى إن المسافر ليلاً يفرض عليه أن تكون بيده وثيقة تثبت هويته، وإلا

زُجّ به في السجن حتى يتحقق من أمره، وإذا سافرتُ من بلد إلى بلد ونفق جملي أو حماري وتركت أمتعتي مكانها وذهبت لاكتراء دابة من البلدة المجاورة، عدتُ فوجدت كل شيء على حاله لم تمسسه يد).

كما وصف برنارد الحكيم النزل الذي نزل فيه، وهو معد للحجاج الذيت يتكلمون اللغة الرومانية، فقال - نقلاً عن كتاب تاريخ القدس : إنه النزل الذي أسسه الملك شارلمان وبجانبه سوق يترتب على الشخص الذي يعمل فيه أن ينقد المحتسب (أي أن يدفع لمندوب المالية في الدولة) الذي يناظره قطعتين من الذهب كل سنة.

الوصف العام للأقصى والصخرة:

ويورد الأستاذ محمد محمد حسن شُرّاب من (مختصر كتاب البلدان) لابن الفقيه وصف المسجد الاقصى بحرمه وكامل معالمه في العصر العباسي عام (٢٩٠هـ) فيقول: إن طول مسجد بيت المقدس ألف ذراع وعرضه سبع مائة ذراع، وفيه أربعة آلاف خشبة وسبع مائة عمود وخمس مائة سلسلة نحاس، ويسرج منه كل ليلة ألف وست مائة قنديل، وفيه من الخدم مائة وأربعون خادماً، وفي كل شهر له مائة قَسْط زيت، وله من الحصر في كل سنة ثماني مائة ألف ذراع، وفيه خمسة وعشرون جُبّاً للماء، وفيه ستة عشر تابوتاً (خزانة) للمصاحف المسبلة، وفيه مصاحف لا يستقلها الرجل، وفيه أربع منابر للمطوعة وواحد للمرتزقة، وله أربعة مياضئ، وعلى سطوح المسجد مكان الطين خمسة وأربعون ألف صحيفة رصاص، وعلى يمين المحراب بلاطة سوداء مكتوب فيها: (خلقة محمد صلى الله عليه وسلم)، وفي ظهر القبلة في حجر أبيض كتابة (بسم الله الرحمن الرحيم. محمد رسول الله. نصره حمزة). وداخل المسجد ثلاث مقاصير للنساء طول كل مقصورة سبعون ذراعاً، وفيه خمسون باباً داخلاً وخارجاً. ووسط المسجد وكان (مرتفع) طوله ثلاثمائة ذراع في خمسين ومائة ذراع، وارتفاعه تسعة أذرع، وله ست درجات إلى الصخرة وسط هذا الدكان. وهي (أي صخرة بيت المقدس في عهد ابن الفقيه عام ٢٩٠هـ) مائة ذراع في مائة ذراع وارتفاعها سبعون ذراعاً، ودَوْرها - أي قطرها - ثلاثمائة وستون ذراعاً، يسرج في كل ليلة ثلاثمائة قنديل، وبها أربعة أبواب مطبّقة على كل باب أربعة أبواب، وعلى كل باب دكانة مرخّمة، وحجر الصخرة ثلاثة وثلاثون ذراعاً في سبعة وعشرين ذراعاً، تحتها مغارة يصلي فيها الناس، يسعها تسعة وثلاثون نفساً. وفرش القبة رخام أبيض وسقوفها بالذهب الأحمر في دَوْر حيطانها، وفي أعلاها ستة وخمسون باباً مزجية بأنواع الزجاج، والباب ستة أذرع في ستة أشبار.

بيت المقدس في عيون الرحالة المسلمين

تمهيد:

فن الرحلة فن جميل جليل يشبع نهمة الإنسان في التعرف على البلدان، ويسجل للغائب البعيد ما رآه الراحل القريب، ويُبقي للأجيال المتعاقبة صور الأشياء على ما كانت عليه في الأزمنة الغابرة، ويكشف للمستمع والرائي صدق أو كذب ما يشاع ويذاع عن غرائب الكون والأمم والأحوال...

وفي هذا الفن يستخدم الأسلوب القصصي المشوق أحياناً، أو أسلوب التحقيق والتمحيص والمقارنة أحياناً، وتتفاوت الرحلات المسطرة بأقلام كاتبيها في مستوياتها الأدبية، وفي دقة الوصف والملاحظة، وفي تدخل العواطف والقناعات...

وكان الرحالة قديماً بمثابة أبطال أو مغامرين، لما كان عليه السفر من مشقة ومخاطرة، ولما كان يتعرضهم في رحلاتهم من أهوال ومفاجآت، ولما يصلون إليه من بلاد نائية وممالك بعيدة...

لذلك فالرحلات القديمة خلّدت أصحابها وجعلتهم مثار إعجاب من بعدهم... وهي من طرف آخر تركت لنا وصفاً واقعياً من أشخاص سجلوا معاينتهم للأشياء كما هي أو كما تصوروها... وبذلك أمكننا الوقوف على حال البلدان والطرق والأمم والملوك في فترات تاريخية متعددة من غير طريق الرواية والنقل الذي يستخدمه المؤرخون عادة في تواريخهم.

بيت المقدس قبلة الرحالة القدامى:

ولا يكاد يوجد رحالة قديم من الرحالة الشرقيين لم يمر بمدينة بيت المقدس... فقد كانت تلك البلدة المقدسة منذ القديم مهوى القلوب، وعلى مفترق طرق القوافل، ومقصداً من مقاصد كل رحالة، ومن هنا سجل الرحالة وصفهم لها وإعجابهم بها، كما سجلوا الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية فيها.

ومن هؤلاء الرحالة القدماء: محمد بن أحمد المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) ت ٣٩٠ هـ، وناصر خسرو في رحلته المعروفة (سفر نامه) ومولده عام ٣٩٤ هـ، والشريف أبي عبدالله محمد بن عبدالله الإدريسي الذي كان حياً عام

٥٤٨ هـ، ومحمد بن عبدالله اللواتي المعروف بابن بطوطة المولود عام ٧٠٣ هـ، فكل من هؤلاء أثبت لنا في رحلته المكتوبة وصف المدينة قديماً في تلك العهود السالفة.

وقد انضم إلى وصفها الرحالة المتأخرون كذلك أمثال: أبي الحسن الندوي في (رحلة إلى الشرق العربي) والشيخ عبدالغني النابلسي في كتابه المسمى ب(النفخة الأنسية في الرحلة القدسية) وغيرهم كثير... لقد كانت مدينة القدس محوراً من المحاور المشتركة في حديث الرحالة عموماً.

المقدسي يصف بيت المقدس:

يقول **المقدسي** المتوفى عام ٣٩٠ هـ عن بيت المقدس:

ليس في مدائن الكور (الإقليم) أكبر منها، لا شديدة البرد وليس بها حر، وقلما يقع بها ثلج، جمع الله فيها فواكه الأغوار والسهل والجبال والأشياء المتضادة كالأترج واللوز والرطب والجوز والتين والموز، بنيانهم حجر لا ترى أحسن منه، ولا أتقن من بنائها، ولا أعف من أهلها ولا أطيب من العيش بها، ولا أنظف من أسواقها ولا أكبر من مسجدها، ولا أكثر من مَشَاهدها، فيها كل حاذق وطبيب، وإليها قلبُ كل حبيب، ولاتخلو كل يوم من غريب، عَليها حصن بعضه على جبل وعلى بقيته خندق، ولها ثمانية أبواب: باب صهيون، وباب التيه، وباب البلاط، وباب جب أرميا، وباب سلوان، وباب أريحا، وباب العمود، وباب محراب داود. والماء بها واسع، قلَّ دار ليس بها صهريج (خزان ماء) أو أكثر، وبها ثلاث برَك عظيمة: بركة بني إسرائيل وبركة سليمان وبركة عياض، عليها حماماتهم لها دواع منَ الأزقة (سواق) وفي المسجد عشرون جباً متبحرة، وقَلَّ حارة وإلا وفيها جبٌّ مسبّل غير أن مياهها منَ الأزقة، وقد عمد إلى واد فجعل فيه بركتان يجتمع إليهما السيول في الشتاء، وشق منهما قناة إلى البلد تدخل وقت الربيع فتملأ صهاريج الجامع وغيره...

هكذا وصف المقدسي البلدة عموماً.

ويقول **ناصر خسرو:**

أما ناصر خسرو المتوفى بعد ٤٥٠ هـ فإنه وصفها بقوله:

بلغنا بيت المقدس، وأهل اللشام وأطرافها يسمونها: القدس، يزورها المسلمون، وكذلك يأتي لزيارتها من ديار الروم كثير من النصارى واليهود، وذلك لزيارة الكنيسة

والكَنيش هناك، وسواد ورساتيق (مناطق) بيت المقدس جبلية كلها، والزراعة وأشجار الزيتون والتين وغيرها تنبت كلها بغير ماء، والخيرات بها كثيرة ورخيصة، وفيها أرباب عائلات يملك الواحد منهم خمسين ألف مَنّ من زيت الزيتون يحفظونها في الآبار والأحواض، ويصدرونها إلى أطراف العالم، ويقال: إنه لا يحدث قحط في بلاد الشام. وبيت المقدس مدينة - يتابع ناصر خسرو - مشيدة على قمة جبل ليس بها ماء غير الأمطار، ورساتيقها (مناطقها التابعة لها) ذات عيون، والمدينة محاطة بسور حصين من الحجر والجص، وعليها بوابات حديدية، وليس بقربها أشجار قط فإنها على رأس صخر، وهي مدينة كبيرة كان بها في ذلك الوقت عشرون ألف رجل، وبها أسواق جميلة وأبنية عالية، وكل أرضها مبلطة بالحجارة، وقد سووا الجهات الجبلية والمرتفعات وجعلوها مسطحة بحيث تغسل الأرض كلها وتنظف حين تنزل الأمطار، وفي المدينة صناع كثيرون لكل جماعة منهم سوق خاصة.

وللإدريسي وصف كذلك:

ويبسط الإدريسي الذي عاش في القرن السادس الهجري القول في بيت المقدس وبعض آثارها التي يقدسها النصارى فيقول:

بيت المقدس مدينة جبلية قديمة البناء أزلية، كانت تسمى إيلياء، وهي على جبل يصعد إليها من كل جانب وهي في ذاتها طويلة، وطولها من المغرب إلى المشرق، وفي طرفها الغربي باب المحراب، وهذا الباب عليه قبة داود عليه السلام، وفي طرفها الشرقي باب يسمى باب الرحمة وهو مغلق لا يفتح إلا من عيد الزيتون لمثله، ولها من جهة الجنوب باب يسمى صهيون، ومن جهة الشمال باب يسمى باب الغراب، وإذا دخل الداخل من الباب الغربي باب المحراب يسير نحو الشرق في زقاق شارع إلى الكنيسة العظمى المعروفة بكنيسة القيامة، وهي الكنيسة المحجوج إليها من جميع بلاد الروم التي في مشارق الأرض ومغاربها، فيدخل الكنيسة من بابها الغربي فيجد نفسه في وسط القبة التي تشتمل على جميع الكنيسة وهي من عجائب الدنيا. وفي جهة الشمال باب ينزل منه إلى أسفل الكنيسة على ثلاثين درجة يقال له باب (سنت مرية) أي السيدة مريم، ولا يمكن أحد من النزل فيه.

وعند نزول الداخل إلى القبو الأسفل تلقاه المقبرة المقدسة المعظمة ولها بابان وعليها قبة معقودة قد أتقن بنيانها وحصّن تشييدها وأبدع تنميقها... ويقابل هذه الكنيسة كنيسة عظيمة كبيرة جداً يقدس فيها إفرنج الروم (المسيحيون الشرقيون) ويقربون، وفي شرقي هذه الكنيسة منحرفاً بشيء لطيف إلى الجنوب الحبس الذي حبس فيه السيد المسيح

ومكان الصلوبية (أي مكان ادعاء صلبه كما يزعم النصارى)، وأما القبة الكبيرة فهي قوراء مفتوحة للسماء وبها دارٌ بها الأنبياء مصورون والسيد المسيح والسيدة مريم ويوحنا المعمدان. وعلى المقبرة المقدسة عند النصارى من القناديل المعلقة على المكان خاصة ثلاثة قناديل ذهب.

ابن بطوطة يشارك في الوصف: ويأتي وصف الرحالة ابن بطوطة - وهو ممن عاش في القرن الثامن الهجري - لمدينة القدس موجزاً بعض الشيء فيقول:

ثم وصلنا إلى بيت المقدس شرفه الله تعالى، ثالث المسجدين الشريفين في رتبة الفضل، ومَصْعَد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً ومعرجه إلى السماء، والبلدة كبيرة منيفة بالصخر المنحوت، وكان الملك الصالح الفاضل صلاح الدين ابن أيوب جزاه الله عن الإسلام خيراً لما فتح هذه المدينة هدم بعض سورها ثم استنقض (أي استكمل) الملك الظاهر هدمه خوفاً أن يقصدها الروم فيمتنعوا بها، ولم يكن بهذه المدينة نهر فيما تقدم، وجلب لها الماء في هذا العهد الأمير سيف الدين تنكز أمير دمشق.

ياقوت الحموي في معجم البلدان: وبعد أن يستفيض ياقوت الحموي في سرد فضائل بيت المقدس يعرج على القول في وصف البلدة المباركة فمما قال:

وقد وصفها القدماء بصفات إن استقصيتها أمللت القارئ، والذي شاهدته أنا منها أن أرضها وضياعها وقراها كلها جبال شامخة، وليس حولها ولا بالقرب منها أرض وطيئة ألبتة، وزروعها على الجبال وأطرفها بالفؤوس (أي تحرث) لأن الدواب لا صنع لها هناك، وأما نفس المدينة فعلى فضاء في وسط تلك الجبال، وأرضها كلها حجر من الجبال التي هي عليها، وفيها أسواق حسنة وعمارات كثيرة، وفيها مغاور كثيرة، ومواضع يطول عددها مما يزار ويتبرك به، ويشرب أهل المدينة من ماء المطر، ليس فيها دار إلا وفيها صهريج ودروبهم حجارة ليس فيها ذلك الدنس الكثير، وبها ثلاث برك عظام عليها حماماتهم، وعين سلوان في ظاهر المدينة في وادي جهنم مليحة الماء. وكان بنو أيوب قد أحكموا سورها ثم خرّبه الملك المعظم منهم وقال: نحن لا نمنع البلدان بالأسوار وإنما نمنعها بالسيوف والأساورة. يقول ياقوت: وهذا كافٍ في خبرها، وليس كل ما أجده أكتبه، ولو فعلت لم يتسع لي زماني.

هذا بعض ما قاله الرحالة القدماء عن بيت المقدس كمدينة أشغلت العالم كله فترات طويلة بين محب لها تتوق نفسه لرؤية المعالم، وطامع فيها يرنو ببصره نحو المجد

والملك والشهرة، ومتعبد فيها ألهاه الخوف من الله والشوق إليه عن العالم فانقطع في صوامعها ومحاريبها.

المجاورون المتعبدون لا يبارحون بيت المقدس:

ومن الضروري أن ننوّه وننبه إلى أن الذين زاروا بيت المقدس رحالة متجولون في الآفاق وأطراف الأرض هم غير أؤلئك الذين ساقهم التعبد أو الحنين إلى بيت المقدس يشدون الرحال إلى مسجده ويتبركون ببقاعه وأرضه، ويقفون طويلاً أمام معالمه ولسان حالهم يقول:

أيدعوك للقدس الخيال الذي يسري فمالك في ترك الزيارة من عذر

وهؤلاء أرتال وجموع من المسلمين - بل ومن غيرهم - لم تنقطع يوماً ما عن القدس، وقد سطر الكثير منهم ذكرياته ويومياته عنها فكانت في عيونهم عروساً مجلية ووردة ندية وصورة جميلة زهية...

وسنترك الحديث عن وصف المسجد الأقصى وقبة الصخرة وبقية المعالم المعمارية في بيت المقدس صفحة أخرى.

الأحوال السياسية عند بداية دخول الصليبيين للمشرق

تمهيد:

كانت سنة ٤٩٢هـ إحدى سنوات الحزن العام والقلق العميق والخوف والحيرة والاضطراب النفسي على مستوى العالم الإسلامي كله**!!!**

وسبب ذلك أن مدينة بيت المقدس سقطت مضرجة بدمائها مخضبة بجراحها تحت سنابك جيش عرمرم سالت به الأرض من كل جانب، وفتك في طريقه من أوربة إلى أورشليم بالأخضر واليابس، وبكل مظاهر الحياة البشرية، وضم بين أفراده عشرات الألوف من الجنود المدربين والمتطوعين المدججين بالسلاح فرساناً ورجّالة محترفين ومتطوعين، يسوقهم هوس أعمى وقادة دمويون وقساوسة متعصبون، قد أسكرهم الرغبة في تخليص قبر المسيح - كما يزعمون - من أيدي المسلمين، وأطمعتهم ثروات الشرق وتفكك دوله في غزو المنطقة بأسرها واحتلالها.

السلجوقيون والفاطميون:

وكانت المنطقة العربية المسلمة المحيطة ببيت المقدس تحكم آنذاك من قبل دولتين ضعيفتين هزيلتين في أخريات أيامهما وأوهى حكوماتهما، وهما:

دولة العباسيين في بغداد التي نخر فيها السوس، واستقلت عنها كثير من الولايات، ونشأ تحت ظلالها العديد من الدول المبعثرة في الشام والعراق.

ودولة الفاطميين في مصر في طورها الأخير وأنفاسها المودِّعة، ولهذا فإن دخول الصليبيين إلى بلاد الشرق وافق سلطان السلاجقة في الشام - وهم تابعون شكلاً للعباسيين وخليفتهم المستظهر بالله - وسلطان الفاطميين العبيديين وخليفتهم المستعلي في مصر.

مدينة القدس بين الدولتين:

وكانت مدينة القدس محل تنازع وتبادل للسلطة بين هاتين الدولتين: السلجوقية والفاطمية.

يقول ابن الأثير في كتابه (الكامل) في بيان الحال السياسية للمدينة المقدسة آنذاك:

كان بيت المقدس لتاج الدولة تُتُش، وأقطعه للأمير سقمان بن أرتق التركماني، فلما ظفر الفرنج (الصليبيون) بالأتراك - السلاجقة - على أنطاكية وقتلوا فيهم ضعفوا وتفرقوا - أي السلاجقة الأتراك .

فلما رأى المصريون - يقصد الفاطميين - ضعف الأتراك ساروا إليهم ومقدمهم الأفضل بن بدر الجمالي وحصروه - بيت المقدس - وبه الأمير سقمان بن أرتق وأيلغازي أخوه وابن عمهما سونج وابن أخيهما ياقوتي، ونصب الأفضل بن بدر المهاجم على سور بيت المقدس نيفاً وأربعين منجنيقاً، فهدموا مواضع من سوره، وقاتلهم أهل البلد، فدام القتال والحصار نيفاً وأربعين يوماً، ثم ملكوه بالأمان في شعبان سنة تسع وثمانين وأربعمائة للهجرة، وأخرج الفاطميون بذلك أمراء السلاجقة من بيت المقدس وضموه إلى مملكتهم.

واستناب الفاطميون على بيت المقدس والياً من طرفهم لقب بافتخار الدولة وكان هو الذي استولى الصليبيون على القدس منه.

خط سير الصليبيين وخطتهم:

وإذا أردنا أن نعرف اتساع الحملة الصليبية التي استولت أخيراً على بيت المقدس فإن الذهبي في سير أعلام النبلاء ينقل عن يوسف بن الجوزي قوله: سارت الفرنج ومقدمهم - أي مليكهم - كندفري في ألف ألف - مليون إنسان - منهم خمس مئة ألف مقاتل - جندي محترف - وهذا ولا شك عدد ضخم منه جزء كبير كان من بر الروم.

وقد انطلقت طلائعهم من أوربة بحراً إلى بحر القسطنطينية، فاستولوا على بعض المدن من الروم بالقهر ابتداء ثم بالاتفاق أخيراً.

يقول: وجرت لهم مع طاغية الروم حروب، وعجز عنهم، ثم قالوا - تفاهموا - ما نفتحه من بلاد الروم مما هو في أيدي المسلمين السلاجقة فهو لك، وما نفتحه من بلاد الشام فهو لنا.

وهكذا انطلقوا نحو بلاد المسلمين وهم يفضلون الاستيلاء على المدن الساحلية أكثر من غيرها. قال ابن تغري في النجوم الزاهرة: كان أول حركة للفرنج لأخذ السواحل وخروجهم إليها في سنة تسعين وأربعمائة للهجرة، فساروا إليها فأول ما أخذوا

(نيقية) وهو أول بلد أخذوه من المسلمين، ثم أخذوا حصون الدروب شيئاً بعد شيء، ووصلوا إلى البارة وجبل السماق (أريحا السورية) وفامية وكفر طاب ونواحيها.

هزيمة قلج رسلان السلجوقي أمام الصليبيين:

ثم ساروا إلى أنطاكية ولم ينازلوها، بل انحرفوا عنها وتوجهوا نحو المعرة.

وكانت تلك المناطق تابعة للملك قلج رسلان السلجوقي الذي جمع عسكره والتقى الصليبيين في سنة تسعين وأربعمائة للهجرة، وجرت معركة مهولة أشرف فيها الملك قلج رسلان على النصر، ثم كسرته الفرنج، وقتل من جنده خلق وهرب هو، واستغاث بملوك النواحي على ما دهم الإسلام فوصلت كتبه إلى حلب بصورة مبكية، كانت مسخمة مشققة فيها بعض شعر النساء، فاضطرب الناس ودخلهم الذعر وأدركوا خطورة الموقف.

معركة معرة النعمان:

ولما وصل الصليبيون إلى المعرة تحصن أهلها داخلها فنصبوا على سورها السلالم.

قال ابن القلانسي: وزحف الفرنج في محرم من هذه السنة (٤٩٢هـ) إلى سور المعرة من الناحية الشرقية والشمالية، وأسندوا البرج - الحربي - إلى سورها فكان أعلى منه، ولم يزل الحرب عليها - هجوماً وقصفاً - إلى وقت المغرب من اليوم الرابع عشر من المحرم، وصعدوا السور وانكشف أهل البلد، بعد أن ترددت إليهم رسل الفرنج وأعطوهم الأمان على نفوسهم وأموالهم وألا يدخلوا إليهم، بل يبعثوا إليهم شحنة - أي والياً عليهم - فمنع من عقد الاتفاق الاختلاف بين أهل البلد قبولاً ورفضاً، فملكت الفرنج البلد بعد المغرب بعد أن قتل من الفريقين خلق كثير، ثم أعطوهم الأمان فلما ملكوها غدروا بهم وفعلوا تلك الأفعال القبيحة، فقتلوا مائة ألف إنسان من أهلها، قاله أبو المظفر سبط ابن الجوزي قال: وسبوا مثلهم، ثم دخلوا كفر طاب وفعلوا مثل ذلك.

العودة إلى أنطاكية:

وكان أخطر بلد أخذه الصليبيون في طريقهم إلى القدس مما يلي البلاد الشامية بلدة (أنطاكية) إذ كانت مفتاح بلاد الشام، وأول الأرض من بلاد الروم، وهي من أحصن المدن وأمنعها.

فعادوا إليها بعد المعرة، وكان واليها الأمير شعبان من السلاجقة فدافع عنها ما استطاع ضد هجوم الصليبيين الهائجين الذين أسلموا أمرهم إلى قائدهم الشرس صنجيل، واستمر الحصار فترة قصيرة استطاع خلالها صنجيل أمير الفرنجة أن يشتري ذمة رجل من أنطاكية ذو سطوة يقال له فيروز، يل يقول أبو يعلى بن القلانيسي: إن قوماً من أهل أنطاكية عملوا عليها - أي خانوا وتآمروا - وواطأوا الفرنجة على تسليمها إليهم، ووجدوا الفرصة في برج من الأبراج التي للبلد مما يلي الجبل فباعوهم إياه وفتحوا لهم في الليل طريقاً إليه.

فصعدوا إليه متسللين، حتى إذا كان وقت السحر صاحوا وزعقوا، وانطلقوا في المدينة، فوضعوا السيف فهرب شعبان وقتل من معه، وترك أهله وأمواله وأولاده بها. فلما بعد عن البلد ندم على ذلك، فنزل فحثا التراب على رأسه وبكى ولطم، وتفرق عنه أصحابه وبقي وحده، فمر به رجل أرمني حطاب فعرفه فقتله وحمل رأسه إلى صنجيل.

وقد قتل في أنطاكية بعد سقوطها بيد الفرنج من أهلها كثير جداً، وسبي من الرجال والنساء ما لا يدركه حصر، وهرب إلى القلعة قدر ثلاثة آلاف فتحصنوا بها.

مؤتمر قمة لزعماء متفرقين:

وأحس أمراء الشام من السلاجقة بأنهم أصبحوا جميعاً مع بلدانهم والمسلمين عامة مستهدفين، والخطر محدق بهم، والعدو قادم بكثافة لا محالة.

فاجتمعوا في الشام في مؤتمر أشبه ما يكون بالمؤتمرات التي سبقت سقوط القدس بيد اليهود وقيام إسرائيل.

وكان المجتمعون هم: رضوان صاحب حلب وأخوه دقماق، وطغتكين، وصاحب الموصل، وسكمان بن أرتق صاحب ماردين، وأرسلان شاه صاحب سنجار، ولم يشاركهم قائد العبيديين في مصر الأفضل بن بدر بإخراج عساكر مصر - يقول ابن تغري - ولا أدري ما كان السبب في عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال - فاجتمع هؤلاء والأمراء وقرروا مهاجمة الصليبيين في أنطاكية قبل أن يستفحل أمرهم.

محاصرة الصليبيين في أنطاكية:

ونازل هؤلاء الأمراء المحليون - الذين كان يطلق عليهم لقب ملوك - أنطاكية وضيقوا على الفرنج حتى أكلوا أوراق الشجر، وبلغوا غاية الجهد حتى خشي صنجيل أن يستسلم الصليبيون - وكان عنده دهاء ومكر –

يقول ابن تغري: فرتب مع راهب حيلة، وقال: اذهب فادفن هذه الحربة في مكان كذا، ثم قل للفرنجة بعد ذلك: رأيت المسيح في منامي وهو يقول لكم: في المكان الفلاني حربة مدفونة فاطلبوها، فإن وجدتموها فالظفر لكم وهي حربتي، فصوموا وصلوا وتصدقوا واخرجوا إلى المسليمن. ففعلوا ذلك وخرجوا متحمسين غاضبين وقاتلوا المسلمين حتى دفعوهم عن البلد، فثبت جماعة من المسلمين فقتلوا عن آخرهم رحمهم الله.

يقول صاحب النجوم الزاهرة: والعجب أن الفرنج لما خرجوا إلى المسلمين كانوا في غاية الضعف من الجوع وعدم القوت حتى إنهم أكلوا الميتة، وكانت عساكر الإسلام في غاية القوة والكثرة، فكسروا المسلمين وفرقوا جموعهم وانكسر أصحاب الجرد السوابق ووقع السيف في المجاهدين المتطوعين.

الخليفة العباسي أضعف مما يتصور:

ولما انهزم أولئك الأمراء المسلمون أمام جموع الصليبيين قرروا الاستنجاد بالخليفة العباسي في بغداد - وهم يعلمون ضعفه وقلة حيلته - فكتب دقماق ورضوان والأمراء الآخرون إلى الخليفة المستظهر بالله يستنصرونه، ويطلبون منه المدد، ويحذرونه من الخطر الداهم على الإسلام والمسليمن، فأخرج الخليفة أبا نصر بن الموصلايا إلى السلطان بركياروق ابن السلطان مكشاه السلجوقي يستنجده، ويأمره بالخروج للقاء الفرنجة.

نتائج خطيرة لوجود الصليبيين:

وهكذا بعد احتلال أنطاكية ومعرة النعمان وبعض الحصون التي على مداخل سورية من البحر ومن جهة تركيا، ثبت الفرنجة أقدامهم في الساحل الشرقي الشمالي للبحر المتوسط.

وانطلقوا نحو تحقيق هدفهم الأكبر الذي خرجوا من أجله وهو احتلال القدس، وإقامة الدولة الصليبية في الشرق العربي، توصلاً منهم بعد ذلك - كما كشفت الأحداث

والوثائق - إلى احتلال الجزيرة العربية ومكة المكرمة والمدينة المنورة على وجه الخصوص، والقضاء على الإسلام إلى الأبد.

أما ما حدث بعد ذلك، وكيف سقطت الوردة الندية (القدس) في كف العفريت الأسود (الصليبيين)، وماذا حصل بُعَيْد ذلك من دوي وآثار واضطراب، فذلك ما سنتناوله في الفصل التالي.

وصول الصليبيين إلى القدس واحتلالها:

تمهيد:

تقدم معنا سرد المرحلة الأولى لتثبيت الصليبيين أقدامهم في السواحل الشمالية الشرقية من بلاد الشام وما والاها من بلاد الروم، وكيف أنهم استولوا في تلك المرحلة على أنطاكية والمعرة وغيرهما، ثم منهما توجهوا في جحافلهم الجرارة صوب بيت المقدس.

محاولات يائسة لإيقاف الخطر:

يقول ابن تغري: لما كان يوم الجمعة ثالث عشرين من شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة سار الفرنجة من أنطاكية ومقدمهم (أميرهم) كندهري في ألف ألف: منهم خمسمائة ألف مقاتل فارس، والباقون رجالة وفَعَلة وأرباب آلات من مجانيق وغيرها، وجعلوا طريقهم على الساحل.

ويبدو أن بعض عساكر السلجوقيين كان قد اعترض طريقهم بعد احتلال المعرة، لكنه لم يُغنِ شيئاً، فانهزم واستشهد ممن معه ألوف، مما دفع صاحب حمص إلى مصالحة الفرنجة والخضوع لهم قبل أن يتوجهوا إلى بيت المقدس.

الوضع السياسي للقدس قبل الاحتلال:

وكانت بلدة المقدس تتداولها أيدي السلاجقة تارة والفاطميين تارة أخرى. وقبل وصول الفرنجة إليها بأربع سنوات كان أميرها أرتق بن أكسك التركماني، وهو من عمال محمد ملك شاه بن ألب أرسلان السلجوقي.

ولما توفي أرتق ترك القدس لولديه أيلغازي وسقمان، فحكما معاً القدس وسائر فلسطين إلى أن جاء الأفضل أمير الجيوش الفاطمية من مصر إلى القدس، فحاصرها ونصب عليها المنجنيق وقاتل أهلها أربعين يوماً...

وتواطأ سكان بيت المقدس مع الأفضل بعد أن أمنهم، ففتحوا له أحد أبواب سور القدس عام (٤٧٩هـ) فدخل منه، وخرج سقمان وأخوه أيلغازي من باب آخر.

وأظهر المقدسيون الطاعة لأمير الجيوش الفاطمية الأفضل، ووَلّى عليهم رجلاً من قبله يُلقّب بافتخار الدولة، يتبع الخليفة الفاطمي المستعلي خليفة مصر.

الصليبيون يحاصرون مدينة القدس:

ووصلت جحافل الصليبيين إلى مشارف بيت المقدس تاركين عكا وراء ظهورهم بعد أن عجزوا عنها، فحاصروها وضيقوا عليها الخناق أكثر من أربعين يوماً متوالية.

حتى إذا ظنوا أن المقاومة انهارت، نصبوا برجين على السور بقصد الوصول إلى مواقع المدافعين عن البلدة أعلى السور، ولكن أهل بيت المقدس - الذين كانوا قد طلبوا النجدة من خليفة الفاطميين في مصر - استطاعوا أن يلقوا النار على البرج الذي كان قبالة باب صهيون جنوبي القدس وقتلوا من كان فيه إلا أنهم فوجئوا - في غمرة انشغالهم بإحراق هذا البرج - أن البرج الآخر الذي كان قبالة باب العمود وباب الأسباط استطاع المهاجمون فيه النزول على السور بأعداد كبيرة، مما أدخل الرعب في قلوب المدافعين فانشمروا هاربين.

وجاء المستغيث يصيح أن المدينة قد ملكت من الجانب الشمالي.

يقول صاحب النجوم الزاهرة: وأما البرج الآخر فزحف به الفرنج حتى ألصقوه بالسور وحكموا به على البلد، وكشفوا من كان عليه من المسلمين، ثم رموا بالمجانيق والسهام رمية رجل واحد، فانهزم المسلمون، فنزلوا إلى البلد وهرب الناس إلى الصخرة والأقصى...

وكان دخول الصليبيين إلى بيت المقدس ضحوة نهار الجمعة لسبع بقين من شعبان.

القدس تسقط بيد الصليبيين:

وكان الصليبيون قد بلغهم أن الأفضل قائد جيوش الفاطميين خرج من مصر، وجد في السير نحو القدس نجدة لأهلها، فدفعهم ذلك إلى زيادة الضغط على المدينة حتى دخلوها وهم في قمة الهياج والرغبة في القتل والفساد.

نعم لقد ترنحت القدس وأنهكتها ضربات الصليبيين حتى سقطت بين أيديهم، وحققوا بذلك حلم الراهب الفرنسي (بطرس الناسك) الذي زار القدس قبل بضع سنين، ونقل إلى البابا (أوربانوس الثاني) صورة كاذبة عن الوضع في القدس، مما دفع البابا المذكور إلى الدعوة لإنقاذ المسيحيين في الأرض المقدسة، وإنقاذ ضريح السيد المسيح من يد المسليمن الذين وصفهم بالكفرة، واعداً أولئك الذين يشتركون في الحملة الصليبية بأن يغفر لهم ذنوبهم ما تقدم منها وما تأخر...

مذابح يندى لها الجبين في القدس:

وكان سقوط القدس ودخول الصليبيين لها في ذلك اليوم مرعباً وفظيعاً في ذاته داخل البلدة المقدسة، وفي صداه ودويه في جميع بلاد المسلمين!!!

إذ لم يدخلوها دخول العابد الخاشع المعظم لحرماتها، ولا دخول الفاتح النبيل الذي لم تسكره نشوة الظفر، ولم يدخلوها دخول الملوك الذين إن قتلوا قرناءهم من القادة تجاوزوا عن السوقة والعامة واستبقوهم، وإن تلذذوا بمنظر إذلال المقاتلين وقهرهم رقّوا لمنظر النساء والأطفال والشيوخ وعجزهم...

يقول الأستاذ عارف باشا العارف في كتابه تاريخ القدس: وما كادوا يدخلونها حتى حكموا على كل مسلم بقي فيها بالموت، فقتلوا سبعين ألفاً، ولم يُجْدِ المسلمين توسلهم ولا التجاؤهم إلى المسجد الأقصى، ولم يختلف اثنان من المؤرخين لا من الفرنجة ولا من المسلمين في استفظاع المنكرات التي اقترفها الصليبيون، تلك المنكرات التي أقل ما قيل فيها: إنه يندى لها جبين الدهر، وإنها مناقضة لتعاليم السيد المسيح الذي زعموا أنهم إنما جاؤوا لنصرته...

وأرسل الصليبيون بعد انتهائهم من هذه المجزرة البشرية إلى البابا رسالة أخبروه فيها بما جرى قائلين له: إن القدس فتحت على أيديهم، وإنهم قتلوا عدداً لا يحصى من

المسلمين، وإن خيولهم في إيوان سليمان كانت تخوض في بحر من دماء المسلمين حتى ركبها...

لم يسلم العلماء والعباد من بطش الصليبيين:

ويقول ابن الأثير في الكامل: ولبث الفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين... وقتل الفرنج المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم، ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف.

وعلى سبيل المثال قال الحافظ الذهبي في ترجمته للإمام الرميلي:

الإمام الحافظ العالم الشهيد أبو القاسم مكي بن عبدالسلام بن الحسين الرميلي المقدسي، أحد الجوالين، كان كثير التعب والسهر والطلب ثقة متحرياً ورعاً ضابطاً شرع في تاريخ لبيت المقدس، ولد سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة وكان مفتياً على المذهب الشافعي، وكانت الفتاوى تجيئه من البلاد، وكان عالماً ثبتاً ابتلي بالأسر وقت أخذ العدو بيت المقدس، وطلبوا في فدائه ذهباً كثيراً فلم يُفْدَ، فقتلوه بالحجارة عند البترون رحمه الله... وقتلوا بالقدس نحواً من سبعين ألفاً.

سرقات بالجملة لأموال وتحف القدس:

ويقول ابن تغري: وقتلوا الشيوخ والعجائز وسبوا النساء، وأخذوا من الصخرة والأقصى سبعين قنديلاً منها عشرون ذهباً، في كل قنديل ألف مثقال، ومنها خمسون فضة في كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم بالشامي، وأخذوا تنوراً من فضة (ثريا ضخمة) زنته أربعون رطلاً بالشامي، وأخذوا من الأموال ما لا يحصى.

مقاومة متفرقة داخل القدس:

وقد لجأ فريق من الرجال الأشداء من جنود المسلمين إلى أحد المعاقل الحصينة في المسجد الأقصى ويقال له محراب داود، فتحصنوا فيه وهم مسلحون.

يقول ابن الأثير في الكامل: واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود، فاعتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة أيام، فبذل لهم الفرنج الأمان فسلموه لهم، ووفى لهم الفرنج وخرجوا ليلاً إلى عسقلان فأقاموا فيها...

والذي يبدو لي أن هؤلاء النفر لم يسلموا قلعتهم (محراب داود) إلا بعد أن يئسوا من وصول نجدة الفاطميين من مصر لمساعدتهم.

ويضيف ابن تغري في النجوم الزاهرة: إن الصليبيين جمعوا اليهود في كنيسة وأحرقوها عليهم وهدموا المشاهد وقبر الخليل عليه السلام.

وصول الفاطميين متأخرين:

والحقيقة هي أن قائد جيوش الفاطميين الأفضل بن بدر الجمالي وصل بعساكره إلى بيت المقدس لكن بعد فوات الأوان، و لم يكن على قدر كبير من الاستعداد.

يقول ابن الأثير: جمع الأفضل أمير الجيوش العساكر وحشد وسار إلى عسقلان، وأرسل إلى الفرنج ينكر عليهم ما فعلوا ويتهددهم، فأعادوا الرسل بالجواب، ورحلوا على إثره (أي شدوا مهاجمين) وطلعوا على المصريين (الفاطميين) عقيب وصول الرسول، و لم يكن عند المصريين خبر عن وصولهم ولا من حركتهم، و لم يكونوا على أهبة القتال، فتنادوا إلى ركوب خيلهم، ولبسوا أسلحتهم، وأعجلهم الفرنج (أي فاجأوهم) فهزموهم وقتلوا منهم من قُتل، وغنموا ما في العسكر من مال وسلاح وغير ذلك، وانهزم الأفضل فدخل عسقلان ومضى جماعة من المنهزمين فاستتروا بشجر الجميز وكان هناك كثيراً، فأحرق الفرنج بعض الشجر حتى هلك من فيه وقتلوا من خرج منه، وعاد الأفضل في خواصه إلى مصر.

ونازل الفرنج عسقلان وضايقوها، فبذل لهم أهلها قطيعة (فدية) اثنتي عشر ألف دينار، وقيل عشرين ألف دينار، ثم عادوا إلى القدس.

غصة المسلمين بسقوط القدس:

ثم راحوا يديرون المدينة كما يشاؤون، فاستولوا على معظم المباني والممتلكات التي كانت فيها... ولقد حولوا قبة الصخرة إلى كنيسة، واستعملوا المسجد الأقصى (وحرمه الواسع) لمصالحهم، فأنقصوا من حجمه كثيراً، وقسموه إلى أقسام، فاتخذوا قسماً منه كنيسة، وقسماً آخر مسكناً لفرسان الهيكل، والباقي استعملوه مستودعاً لذخائرهم، واتخذوا السراديب التي تحت المسجد الحالي اسطبلاً لحيواناتهم.

تثبيت الصليبيين أقدامهم في القدس:

ولما تمت هذه الحادثة هزت أرجاء العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، وكان أول الصارخين دمشق المجاورة التي صعقت لما حدث، ولكنها كانت أضعف من أن تغيث أو تنجد، فاهتزت خوفاً وقلقاً. يقول ابن كثير: وذهب الناس على وجوههم هاربين من الشام إلى العراق مستغيثين على الفرنج إلى الخليفة والسلطان، وخرج المستنفرون من دمشق مع قاضيها زين الدين أبي سعد الهروي - والكلام هنا لابن تغري مع ابن كثير - فوصلوا بغداد وحضروا في الديوان وقطعوا شعورهم وبكوا، وقام القاضي في الديوان وأورد كلاماً أبكى الحاضرين، وتناقلت منابر بغداد كلامه وأخباره، فلما سمع الناس ببغداد هذا الأمر الفظيع هالهم ذلك وتباكوا، وندب الخليفة الفقهاء إلى الخروج إلى البلاد ليحرضوا الملوك على الجهاد، ونُدب من الديوان من يمضي إلى العسكر السلطاني ويوفهم المصيبة، وخرج ابن عقيل وغير واحد من أعيان الفقهاء فساروا في الناس فلم يُغْنِ ذلك، ووقع التقاعد لأمر يريده الله، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

هذه صورة السقوط المريع للدرة النفيسة والوردة الندية والعذراء البكر بأيدي الفجرة الهائجين المعربدين الذي لا يعرفون خلقاً ولا ديناً.

سقوط القدس وأصداؤه

شهادة مؤرخ فرنسي:

ينقل الأستاذ رفيق التميمي في كتابه الحروب الصليبية عن المؤرخ الفرنسي (فنك برنتانو) وصف سقوط مدينة القدس بأيدي الغزاة الصليبيين من كتابه المسمى كذلك (الحروب الصليبية) فيقول:

حين سقطت المدينة أخذ المسلمون يفرون من الشوارع الضيقة، ولجأت طائفة كبيرة منهم إلى هيكل سليمان (يقصد المسجد الأقصى) وهو المكان الذي اتفقوا مع (طنكرو) أحد قواد الحملة أن يلجأوا إليه فوعدهم للدفاع عن أنفسهم، وكان سلمهم راية ليركزوها هناك دلالة على حمايته لهم، وغص المكان بألوف اللاجئين حتى ضاق بهم، فصعد فريق منهم على السطح.

وحين احتل الصليبيون المدينة انقضوا على المسلمين، وأخذوا يذبحونهم ذبح النعاج دون أن ينظروا إلى راية طنكرو، وإلى ما كانت تحمله تلك الراية من الوعود، فسالت الدماء في المعبد، وملأته حتى بلغت ما يوازي ارتفاع اليد. وقد ذُبح أيضاً المسلمون اللاجئون إلى السطح ثم رُموا إلى أسفل البناء فكانت تنفلق جماجمهم وتتكسر عظامهم.

ولجأ المسلمون إلى جامع عمر رجالاً ونساءً وأطفالاً، وهم بحالة جزع وفزع لا مزيد عليهما إزاء الدماء التي ملأت المسجد وارتفعت حتى ركبتي الفارس الصليبي كما أكده كثير من الصليبين.

وبغض النظر عن استثناءات نادرة فإن المدينة نظفت من سكانها المسلمين رجالها ونساءها وأطفالها، وكانت الشوارع تعج بجماجم الموتى وأذرعهم وأرجلهم المقطعة، وكان الصليبيون يتفنَّنون في تعذيب وإماتة هؤلاء المساكين.

وبعد سقوط القدس قلع غود فروادي يون عشرين فارساً مسلماً مخالفاً بذلك سنة الفروسية.

وشهادة مؤرخ صليبي:

ويقول المؤرخ الصليبي ريموند دا كيلر:

لقد عذب الكفرة، وشويت أجسادهم على نار حامية، وخطر على بال الصليبيين احتمال ابتلاع المسلمين لدراهم ذهبية، فأخذوا يبقرون بطونهم ليخرجوا تلك الدراهم منها، ثم رأوا أن بقر بطن الواحد تلو الآخر عملية طويلة تتنافى مع شره الصليبيين وغرامهم في التعذيب، فأخذوا يجعلون من الأسرى أكواماً مكدسة ثم يحرقونها، وينتظرون انتهاء عمل النار، ليبدأوا بالتحري عن النقود الذهبية الذائبة بين الجثث المحترقة.

نجاة بعض سكان القدس ووصولهم إلى دمشق:

وفي أثناء الفوضى التي عمت البلدة والهلع الذي سكن قلوب أهلها، استطاع بعضهم الهرب إلى دمشق، ومنها ذهبوا إلى بغداد بصحبة القاضي أبي سعد الهراوي، واجتمعوا بالخليفة المستظهر بالله بن المقتدي، فذكروا في ديوانه حالتهم وحالة مدينة القدس وأهلها بكلام أبكى العيون وأوجع القلوب وقاموا بالجامع فاستغاثوا وبكوا، ولشدة ما أصابهم أفطروا في رمضان.

فأمر الخليفة الذي لا حول له ولا قوة، ولا جيش لديه ولا سلاح، بل كان صورة شكلية من صور الحكم لا أثر له في القرار الحاكم، أمر الخليفة هذا أن يسير القاضي أبو محمد الدامغاني وأبوبكر الشاشي وأبوالقاسم الزنجاني وغيرهم من العلماء والوجهاء إلى سلاطين الدولة السلجوقية يستنفرونهم ويستمدونهم... ولكن دون فائدة أو جدوى فقد انشغل هؤلاء السلاطين ببعضهم البعض.

قصائد الرثاء للقدس الذبيحة:

الأبيوردي... أولاً:

وكان من أكثر الناس تأثراً بالحدث الفاجع والمصيبة المهولة الشعراء المسلمون أصحاب الحس المرهف والعاطفة الجياشة، فانطلقت ألسنتهم ترثي القدس وتنعيه، وتتوجع للإسلام وتبكي ما أصابه وحل فيه، قال أبو المظفر الأبيوردي:

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرصة للمراجم
فإيهاً بني الإسلام إن وراءكم ... وقائع يلحقن الذرى بالمناسم

وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هفوات أيقظت كل نائم
تسومهم الروم الهوان وأنتم ... تجرون ذيل الخَفْض فعْلَ المسالم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... إذ الحرب شبت نارُها بالصوارم
أَتَهْوِيَةٌ في ظل أمن وغِبطة ... وعيش كنوّار الخميلة ناعم
وإخوانكم بالشام يضحي مقيلهم ... ظهور المذاكي أو بطون القشاعم
وكم من دماء قد أبيحت ومن دمى ... توارى حياء حسنها بالمعاصم
بحيث السيوف البيض محمرة الظبا ... وسمر العوالي دامعات اللهاذم
وتلك حروب من يغب عن غمارها ... ليسلم يقرعْ بعدها سن نادم
يكاد لهن المستجير بطيبة ... ينادي بأعلى الصوت يا آل هاشم
ويجتنبون النار خوفاً من الردى ... ولا يحسبون العار ضربة لازم
فليتهمو إذ لم يذودوا حمية ... عن الدين ضَنُّوا غيرةً بالمحارم
لئن أذعنت تلك الخياشيم للبرى ... فلا عطسوا إلا بأَجدع راغم
نراقب فينا غارة عربية ... تطيل عليها الروم عض الأباهم
وبين اختلاس الطعن والضرب ... وقفة تظل لها الولدان شيب القوادم
سللن بأيدي المشركين قواضباً ... ستغمد منهم في الكلى والجماجم
أرى أمتي لا يشرعون إلى العدى ... رماحهم والدين واهي الدعائم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى ... ويغضي على ذلٍ كماة الاعاجم
وان زهدوا في الأجر إذ حمس الوغا ... فهلا أتوهُ رغبة في الغنائم
دعوناكم والحرب ترنوا ملحة ... إلينا بألحاظ النسور القشاعم
فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه ... رمينا إلى أعدائنا بالجرائم

وشاعر آخر... ثانياً:

وقال شاعر آخر اضطرب جنانه لسقوط القدس فانطلق لسانه يعبر عن بعض عواطف المسلمين بقوله:

أحل الكفر بالإسلام ضيما ... يطول عليه للدين النحيب
وكم من مسلم أمسى سليباً ... لها حرم سليب
لخنزير فيه لهم خلوق ... لمصاحب فيه طيب
أتسبى المسلمات بكل ثغر ... وعيش المسلمين إذاً يطيب
فقل لذوي البصائر حيث كانوا ... أجيبوا الله ويحكمو أجيبوا
فحق ضائع وحمى مباح ... وسيف قاطع ودم صبيب

وكم من مسجد جعلوه ديراً على محرابه نصب الصليب
أمور لو تأملهن طفل لطفل في عوارضه المشيب
أما لله والإسلام حق يدافع عنه شبان وشيب

ومن المراثي أيضاً:

ومما قيل في مصيبة القدس ما نقله في بغية الطلب في تاريخ حلب عن اسماعيل المغربي أنه أنشد بيتين لنفسه وكتبهما على حائط كنيسة صهيون بالقدس بعدما خربت.

هي الديار فقف في ربعها الخالي لا يوحشنك فهو العاطل الحالي
واستسقه القطر والثم تربة سحبت أذيالها في ثراها ربةُ الخال

بل نقل عن إسماعيل بن محمد المغربي هذا قال: أخبرني فقير صالح كان ببيت المقدس، قال: أخبرني بعض الصالحين ببيت المقدس أنه لما خرب البيت المقدس سمع هاتفاً يهتف بهذين البيتين: على لسان المسجد:

إن يكن في الشام قل نصيري ثم خربت واستمر هلوكي
فلقد أصبح الغداة خرابي سمة العار في جباه الملوك

وكان مما قاله أحد الشعراء على لسان المسجد الأقصى الأسير في يد الصليبيين الحاقدين مخاطباً أحد الملوك المسلمين مستنجداً به ومستغيثاً:

يا أيها الملك الذي لمعالم الصلبان نكّسْ
جاءت إليك ظلامة تسعى من البيت المقدس
كل المساجد طُهرت وأنا على شرفي أدنس

قطع عنق شاعر شامت:

ويذكر ابن الطُوَير القيسراني في (نزهة المقلتين في أخبار الدولتين) أن الأفضل بن بدر الجمالي قائد جيوش الفاطميين لما هزمه الصليبيون في عسقلان بعيد سقوط القدس، وذلك لعدم استعداده وتأهبه، كان عند الفرنج الصليبيين شاعر منتجع إليهم (خائن مسترزق) فقال يخاطب ملك الفرنج واسمه صنجل لعنه الله تعالى، قال:

نصرتَ بسيفك دين المسيح فلله درك من صَنْجل
فما سمع الناس فيما رووه بأقبح من كَسْرَة الأفضل

فما كان من الأفضل لما بلغه ذلك إلا أن اجتهد واحتال، حتى ألقى القبض على الشاعر فذبحه ذبح النعاج.

جيش من مصر يحاول نصرة القدس:

و لم تقف ردات فعل أمة الإسلام عند حد التحسر والتوجع.

يقول ابن تعزي في (النجوم الزاهرة) إن الأفضل بن بدر أمير الجيوش جهز من مصر جيشاً كثيفاً وعليه سعد الدولة القواسي في سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة، فخرج سعد الدولة المذكور من مصر بعسكره، فالتقى مع الفرنج في عسقلان، ووقف سعد الدولة في القلب فقاتل قتالاً شديداً، فكبا به فرسه فقتل وثبت المسلمون بعد قتله وحملوا على الفرنج فهزموهم إلى قيسارية.

المسجد الأقصى في قبضة الصليبيين

سقوط القدس وأصداؤه :

دخل الصليبيون مدينة القدس والمسجد الأقصى بعد انهيار التحصينات التي أقامها المسلمون، وذلك في تمام الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الجمعة في الثالث والعشرين من شهر شعبان عام (٤٩٢هـ) الموافق للخامس عشر من شهر تموز سنة (١٠٩٩م)...

بينما تم طردهم من بيت المقدس وإخراجهم منها صبيحة يوم الجمعة في السابع والعشرين من رجب عام (٥٨٣هـ) الموافق للثاني من أكتوبر عام (١١٨٧م)...

ومعنى هذا أن القدس والمسجد الأقصى بقيا تحت القبضة الصليبية أكثر من تسعين سنة هجرية، كانت سنوات عجافاً مليئة بالأحزان والمآسي والدماء!!.

سرقات وقتل وإرهاب:

وقد استفتح الصليبيون حكمهم لبيت المقدس بالقتل الذريع والنهب الفظيع لكل ما صادفوه أمامهم من بقايا وآثار المسلمين.

يقول ابن الأثير: (وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم، ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف... وأخذوا من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة كبيرة، وأخذوا تنوراً (ثريا) من فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي، وأخذوا من القناديل مائة وخمسين قنديلاً (صغيراً) ومن الذهب نيفاً وعشرين قنديلاً (صغيراً)، وغنموا منه ما لا يقع عليه الإحصاء).

و لم تكن تلك المذابح والسرقات إلا البداية المروعة لما حل بالمسجد الأقصى بكل معالمه من بلاء تشيب لهوله الولدان.

تحويل المسجد الأقصى وقبة الصخرة إلى كنيستين:

يقول استرانج في كتابه (فلسطين في العهد الإسلامي): استولى الصليبيون على المدينة المقدسة، واستولى فرسان الهيكل على منطقة الحرم، وقد اشتق هؤلاء الفرسان

اسمهم من قبة الصخرة التي ظنها المسيحيون هيكلاً منذ أيام المسيح، فدعوا أنفسهم فرسان الهيكل.

وقد أحدث هؤلاء الهيكليون تغيرات كثيرة في المسجد الأقصى وفيما جاوره من أجزاء منطقة الحرم. لكنهم لم يمسوا قبة الصخرة بسوء.

فبنوا مستودع أسلحتهم مكان الأروقة المعمدة التي وصفها ناصر خسرو، وبنوا اصطبلات خيولهم في أجزاء الزاوية الجنوبية الشرقية لمنطقة الحرم غربي مهد عيسى، وربما استعملوا البوابة الثلاثية أو المنفردة كمخرج لهم من تلك الأقبية.

ويقول الأستاذ عارف العارف: (إن الإفرنج لم يغيروا شيئاً من بناء مسجد الصخرة سوى أنهم قلبوه إلى كنيسة، ووضعوا به الصور والتماثيل وأنشأوا على الصخرة مذبحاً (مكان للقداس) كما أنشأوا حول الصخرة سياجاً من الحديد المشبك، وكسوا الصخرة نفسها بالرخام ونصبوا فوق القبة صليباً).

مملكة الصليبيين في الشرق المسلم:

ويضيف عارف العارف: وأسس الصليبيون من القدس والبلاد المجاورة لها مملكة لاتينية جعلوا مقرها القدس، وأقاموا عليهم أميراً هو غود فري دو بويون فأخذوه إلى كنيسة القيامة وتوّجوه، ولما مات دفنوه في داخل الكنيسة...

وفي زمن خلفه وأخيه (بلدوين الأول) الذي حكم ثمانية عشر عاماً أصبحت القدس عاصمة مملكة تمتد من بيروت إلى العقبة، وكان لها في ميناء العقبة أسطول وكانت تجبي الضرائب من القوافل التي تسير بين سوريا ومصر والحجاز...

غير أن الأمن كان مفقوداً، ولا سيما على الطريق التي تصل اريحا بالقدس، فقد كان يرابط في هذه الطريق عدد كبير من الأشخاص، وإن سماهم الراهب الروسي (دانيال) الذي زار القدس في تلك الفترة (١١٠٦م) بقطاع الطرق، إلا أنهم هم الذين نجوا من المذابح، فراحوا يتكتلون ويتحينون الفرص للانقضاض على الصليبيين... ولم تنعم القدس ولا المدن التي حولها بالراحة وهناء البال لوقوعها بين أصقاع آهلة بالمسليمن، وما تخلى هؤلاء عن غزو الصليبيين وإقلاقهم بهجماتهم المتكررة...

وقد تعاقب كرسي مملكة بيت المقدس الصليبية بعد بلدوين الأول عدد من ملوك النصارى وكانوا ربما نصبوا أكثر من ملك في وقت واحد: فجاء بلدوين الثاني، ثم من

بعده مليسندة وفولك أنجو، ثم حكم مليسندة وبلدوين الثالث، ثم تولى الحكم بلدوين الثالث وحده، ثم آموري الأول الذي شهد بداية تخلخل مملكة القدس النصرانية، ثم من بعده بلدوين الرابع فبلدوين الخامس، ثم سيبل وغاي دولوسينيان الذي في عهده افتتح صلاح الدين بيت المقدس وطرد الصليبيين منها.

الوضع الإجتماعي والأخلاق العامة:

وكذلك قُلْ عن الأخلاق العامة السائدة في ظل الصليبيين، فقد انحطت يومئذ إلى درجة لا تطاق... والضرائب والرسوم التي فرضت على السكان والمسافرين كانت باهظة، وما كان هناك نظام مالي ولا طرق منظمة لجباية تلك الضرائب والرسوم...

ولم تؤثر الحملة الصليبية على البلاد من حيث اللغة، إذ ظل سكانها عرباً ويتكلمون اللغة العربية.

وخلال الفترة التي حكم فيها ملوك الفرنجة بيت المقدس كان الحكم قائماً على أساس (الإقطاع)، وكان أمراء الإقطاع يتمتعون باستقلال شبه تام عن الملك الجالس على عرش القدس إلى الحد الذي كانوا يشنون فيه حروباً على بعضهم البعض ولا يقيمون للملك الحاكم وزناً ولا اعتباراً.

وينقل لنا الأمير المسلم (أسامة بن منقذ) الذي كانت له بحكم موقعه السياسي صلة بطرفي الصراع في القدس - الأيوبيين والصليبيين - تحت عنوان (مثل من جفاء أخلاقهم)، يقول: فكل من هو قريبُ العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقاً من الذين تبلدوا (أي سكنوا البلدان) وعاشروا المسلمين.

فمن جفاء أخلاقهم - قبحهم الله - أنني كنت إذا زرت البيت المقدس دخلت إلى المسجد الأقصى، وفي جانبه مسجد صغير قد جعله الإفرنج كنيسة، فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى وفيه الداوية (فرسان الهيكل) وهم أصدقائي، يُخْلون لي المسجد الصغير أصلي فيه، فدخلته يوماً فكبرت في الصلاة، فهجم عليّ واحد من الإفرنج مَسَكَني ورد وجهي إلى الشرق وقال: كذا صَلِّ، فتبادر إليه قوم من الداوية أخذوه أخرجوه عني، وعدت أنا إلى الصلاة، فاغتفلهم وعاد فهجم عليّ ذلك بعينه، ورد وجهي إلى الشرق وقال: كذا صَلِّ. فعاد الداوية، دخلوا إليه وأخرجوه واعتذروا إليّ، وقالوا: هذا غريب وصل من بلاد الإفرنج في هذه الأيام، وما رأى من يصلي إلى غير الشرق. فقلت: حسبي

من الصلاة، فخرجت، فكنت أعجب من ذلك الشيطان وتغير وجهه ورعدته، وما لحقه من نظر الصلاة إلى القبلة!!.

الرحالة الهروي يصف الصخرة:

ويصف لنا المؤرخ الرحالة الهروي الذي دخل الحرم الشريف في زمن الصليبيين سنة (٥٦٩هـ) في كتابه (الإشارات إلى معرفة الزيارات)، يصف لنا المسجد الأقصى تحت ظل الاحتلال الصليبي فيقول:

قبة الصخرة، وهو موضع عُرِج بالنبي صلى الله عليه وسلم، وبه الصخرة التي عرج به من عليها وقدمه فيها، وهذه الصخرة رأيتها في زمان الفرنج شمالي هذه القبة، ودائرها درابزين من الحديد كالبيت وهي الآن من الجانب القبلي، وقرأت كتابة في سقف هذه القبة ما هذا صورتها: بسم الله الرحمن الرحيم. الله لا إله إلا هو الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولانوم... إلى آخر آية الكرسي، والكتابة بالفص المذهب، وهذه القبة لها أربعة أبواب وكان قبالة الباب الذي إلى مغارة الأرواح صورة سليمان بن داود عليهما السلام عند التأزير الحديد، وغربيه باب من الرصاص عليه صور السيد المسيح ذهباً وهو مرصع بالجواهر، وشمالي هذه القبة من دار القسوس بها من العُهَد وعجائب الصنعة ما أذكره عند ذكر الأبنية والآثار إن شاء الله تعالى.

فرقنا الداوية والاسبتارية:

وتكونت في القدس فرقتان كبيرتان هما قوام مملكة النصارى، فرقة أسموها فرسان الهيكل وتعرف باسم الداوية، وأخرى اسمها فرسان المستشفى وعرفت باسم الاسبتارية.

وتخصصت الفرقة الأولى (الداوية) في قتال المسلمين بشراسة وهمجية حتى لقي المسلمون منهم عنتاً واضطهاداً كبيرين.

وأما رجال الفرقة الثانية (الإستبارية) فكانوا في بادئ الأمر على شكل مبشرين مسالمين ينصرفون للعناية بالحجيج والمرضى من المسيحيين...

ثم تحولت الفرقتان (الداوية والإسبتارية) إلى هيئة حربية واتخذتا المسجد الأقصى مقراً لأعمالهما، وجعلتاه مستودعاً لأسلحتهما.

آثار الصليبيين في القدس:

ويسرد الأستاذ عارف باشا في (تاريخ القدس) الآثار التي خلفها الصليبيون في القدس فيقول:

من آثارهم كنيسة القديسة حنة الكائنة بين باب الأسباط وباب حطة، وهي التي يسمونها في يومنا هذا بالكنيسة الصلاحية (نسبة إلى صلاح الدين).

وكنيسة القديسة مريم الكبرى التي بنى الألمان على أنقاضها كنيسة المخلص في الدباغة، وكنيسة القديسة مريم اللاتينية في مدخل سوق الدباغة.

وكنيسة الداوية قبلي كنيسة القيامة.

وكانت كنيسة القيامة مجزأة فجمعوا أجزاءها تحت سقف واحد وبنوا القبة المعروفة الآن بـــ (كنيسة نصف الدنيا).

ومن آثارهم أيضاً: المستشفى المعروف بالمارستان، وكان بني في زمن الفاطميين إلا أن الصليبيين وسّعوه وأضافوا إليه.

ومن آثارهم كذلك: النزل (الفندق) الذي أقاموه إلى جانب هذا المستشفى، ومن بقاياه السوق المعروف بسوق البِزار.

تحرير القدس من الصليبيين

الإعداد والبداية:

تمهيد:

ارتبط تحرير القدس في ذاكرة المسلمين باسم الملك الناصر لدين الله يوسف بن أيوب رحمه الله، وذلك لأنه هو قاد جيش المسلمين فاتحاً للمدينة المقدسة...

من وراء الصورة وخلف الأحداث؟:

ولكن الذي يغيب عن الرؤية في صورة النصر والفتح من هيأ الطريق وذَلَّل الصعاب، واختط خطط النصر وأعد الرجال والأمة لهذا المجد التليد... إنه نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي، الذي لم يكن صلاح الدين الأيوبي إلا حسنة من حسناته، ونفحة من نفحاته، فقد عاش نور الدين حياته كلها يطارد الصليبيين ويطردهم من موقع إلى موقع، ومن حصن إلى حصن، وكان يحس بثقل المهمة وصعوبتها، حتى قيل: إن ما قضاه على ظهور الخيل من حياته كان أكثر مما قضاه على بساط الأرض، واستحق بجدارة لقب الشهيد، والمجاهد، والعادل، وغير ذلك من الألقاب التي لم يُجَامَل فيها، و لم يَغْتَرّ هو بها.

وما الروح الجهادية التي فاضت بها نفس صلاح الدين الأيوبي، وما الاستقامة السلوكية التي عاشها في حياته، وما الحرص الشديد الذي بذله لتوحيد الأمة تحت راية واعية قوية إلا تأثراً وتأسياً منه بعمه وسلفه نور الدين.

مقدمات مهمة لنتائج حاسمة:

وإذا كانت معركة بيت المقدس في عام (٥٨٣هـ) قد خضدت شوكة الصليبيين وأذلتهم وأيقظتهم من أحلامهم المريضة، وأفهمتهم أن المسلمين ليسوا لقمة سائغة ولا أمة تائهة ولا كلأ مباحاً، فإن معارك طاحنة قبل بيت المقدس وصدامات مهولة سبقت تلك المعركة هي التي مهدت الطريق لها، وأوصلت الجحافل الإسلامية إلى أسوار بيت المقدس، كما زرعت بذور الخوف والتراجع في صفوف الصليبيين الهائجين.

لذلك فلزاماً علينا أن نستعرض الخطوات التمهيدية لفتح الفتوح ومجد الأمجاد...

١) الوحدة الإسلامية السياسية:

حرص صلاح الدين على تحقيق هدف الوحدة الإسلامية بين الأقطار التي كانت تحيط ببيت المقدس، فبذل جهده مصمماً كل التصميم - غير عابئ بالمصاعب الجمة - في ضم قسم كبير من العالم العربي تحت لوائه، حتى دانت له مصر والشام والموصل وديار الجزيرة والحجاز واليمن وجزء من بلاد المغرب، ونتيجة لهذه الوحدة التي لملمت الصف ووفرت الإمكانات الكبيرة والدعم القوي والمدد المستمر، تهيأ بين يدي صلاح الدين من المال والرجال والعتاد الشيء الكثير الذي يناسب إيقاف جموع الصليبيين الهائجة الحاقدة المسلحة.

ويؤكد هذه القناعة لدى صلاح الدين كتابه الذي كتبه على لسان كاتبه القاضي الفاضل إلى الخليفة في بغداد يقول: (ذَكَر تسلمه حلب وأنه لا يؤثر إلا أن تكون كلمة الله هي العليا لا غير، وثغور المسلمين لها الرعاية ولا ضير، ولا نختار إلا أن تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها، لا متحاسدة بعتوّها، ولو أن أمور الحرب تصلحها الشركة لما عز عليه أن يكون كثير المشاركين، ولا ساءه أن تكون الدنيا كثيرة المالكين، وإنما أمور الحرب لا تحتمل في التدبير إلا الوحدة، والله العالم أنه لا يقاتل لعيشٍ ألين من عيش، ولا لغضب يملأ العيان من نَزَق ولا طيش).

٢) بناء الدولة القوية:

ومع الخطوات التي خطاها في توحيد الأمة فقد كان يعيد تركيب البنية الإدارية والمالية للدولة، فيزيل المظالم، وينصر المستضعفين، ويقيم أسس العدل في الحياة والعمل، ويكافئ المجد المحسن ويقدمه، ويؤنب المتكاسل المتطفل المسيء ويؤخره.

وأبرز مثال على ذلك إسقاطه المكوس التي كانت تفرض على حجاج مكة، فقد كان الرسم بمكة أن يؤخذ من الحجاج القادمين من المغرب ضرائب على كل فرد، فإذا دخل حاج حبس حتى يؤدي ما عليه، وإذا كان فقيراً لا يملك شيئاً حبس ولا يُترك ويفوته الوقوف بعرفة... فأبطل صلاح الدين ذلك، وعوّض أمير مكة عما خسره من تلك المكوس، وقرر أن يحمل إلى أمير مكة في كل سنة مبلغ ثمانية آلاف إردب قمح إلى ساحل جدة، فإن الأمير بها يحتاج إلى بيعها للانتفاع بأثمانها. وقرر أيضاً حمل الغلات إلى المجاورين بالحرمين...

وقد كان لهذه اللفتة الكريمة أثر بالغ في نفوس المسلمين. يقول ابن جبير الأندلسي مخاطباً صلاح الدين:

رفعتَ مغارم مكس الحجاز بإنعامك الشامل الغامر
فكم لك بالشرق من حامد وكم لك بالغرب من شاكر
وأمّنت أكناف تلك البلاد فهان السبيل على العابر
وكم بالدعاء لكم كل عام بمكة من معلن جاهر
وسُحْب أياديك فياضة على وارد وعلى صادر

٣) إعلان الجهاد الشامل:

وما كادت سنة (٥٨٣هـ) تطل في محرّمها حتى استنفر صلاح الدين قواته في جميع البلاد.

يقول ابن الأثير: وفي هذه السنة (٥٨٣هـ) كتب صلاح الدين إلى جميع البلاد يستنفر الناس للجهاد، وكتب إلى الموصل وديار الجزيرة وإربل وغيرها من بلاد الشرق، وإلى مصر وسائر بلاد الشام يدعوهم إلى الجهاد ويأمرهم بالتجهز له بغاية الإمكان... وكانت نتيجة تلك الدعوة أن التف حوله جيش قوي خاض به غمار معارك عدة في طريقه إلى القدس قبل أن يحسم أمرها. وكانت تلك المعارك المقدمات الممهدات وهي:

أ) معركة حطين:

وحطين اسم لقرية تقع غربي مدينة طبرية، يصف ابن كثير معركتها فيقول في مقتطفات مقتضبة: وجاء السلطان (صلاح الدين) بجحافله فالتفت عليه جميع العساكر، فرتب الجيوش وسار قاصداً بلاد الساحل، وكان جملة من معه من المقاتلة اثني عشر ألفاً غير المتطوعة، فتسامعت الفرنج بقدومه فاجتمعوا كلهم، وتصالحوا فيما بينهم، وجاؤوا بحدهم وحديدهم في خلق لا يعلم عددهم إلا الله، وأقبل السلطان ففتح طبرية وحاز البحيرة في حوزته، ومنع الله الكفرة أن يصلوا منها إلى قطرة، حتى صاروا في عطش عظيم، فبرز السلطان إلى سطح الجبل الغربي من طبرية عند قرية يقال لها حطين، وجاء العدو المخذول - وكان فيهم صاحب عكا وكفر كنّا وصاحب الناصرة وصاحب صور وغير ذلك من ملوكهم - فتواجه الفريقان، وتقابل الجيشان، وأسفر وجه الإيمان، واغبرّ وأقتم وأظلم وجه الكفر والطغيان، وذلك عشية يوم الجمعة فبات الناس على مصافّهم.

وأصبح صباح يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر، فطلعت الشمس، واشتد الحر، وقوي العطش بالفرنج، وكان تحت أقدام خيولهم حشيش قد صار هشيماً، وكان ذلك عليهم مشؤوماً، فأمر السلطان النفّاطة (قاذفوا النفط) أن يرموه بالنفط، فرموه فتأجج ناراً تحت سنابك خيولهم، فاجتمع عليهم حر الشمس، وحر العطش، وحر النار، وحر السلاح، وحر رشق النبال.

وتبارز الشجعان، ثم أمر السلطان بالتكبير والحملة الصادقة، فحملوا، وكان النصر من الله عز وجل فمنحهم الله أكتافهم، فقتل منهم ثلاثون ألفاً في ذلك اليوم، وأسر ثلاثون ألفاً من شجعانهم وفرسانهم... وكان في جملة من أسر جميع ملوكهم، سوى قومس طرابلس فإنه انهزم من أول المعركة.

ب) تحرير قلعة طبرية:

بعد معركة حطين التي زعزعت ثقة الصليبيين بأنفسهم توجه صلاح الدين الأيوبي إلى قلعة طبرية، فحاصرها حتى استسلمت، وأخذ من فيها من الفرنجة الذين كانوا يفرضون على بلاد حوران والبلقاء وما حولها من الجولان وتلك الأراضي كلها بالنصف - أي يأخذون من أهل تلك النواحي أتاوة تبلغ نصف محاصيلهم ومواردهم - فأراح الله المسلمين من تلك المقاسمة ونزع صلاح الدين هذه الشوكة من جسم الأمة، وسهل له الاستيلاء على قلعة طبرية تسلم إقليم الأردن وما فيه من قرى كبار وصغار.

ج) تحرير عكا:

ثم سار إلى عكا فنزل عليها يوم الأربعاءسلخ ربيع الآخر، فافتتحها صلحاً يوم الجمعة، وأخذ ما كان بها من حواصل الملوك وذخائرهم ومتاجر وغيرها، واستنقذ من كان بها من أسرى المسلمين، فوجد فيها أربعة آلاف أسير ففرج الله عنهم، وأمر بإقامة الجمعة بها، وكانت أول جمعة أقيمت بالساحل بعد أخذه الفرنج نحواً من سبعين سنة.

د) تطهير الساحل:

ومن عكا انطلق صلاح الدين يطهر الساحل المطل على البحر المتوسط، فسار أولاً شمالاً إلى صيدا ومنها إلى بيروت وتلك النواحي يأخذها بلداً بلداً، ثم رجع جنوباً نحو غزة وعسقلان ونابلس وبيسان وأراضي الغور فملك ذلك كله... وكان جملة ما افتتحه

صلاح الدين في هذه المدة القريبة خمسين بلداً كباراً، كل بلد له مقاتلة وقلعة ومنعة، وغنم الجيش والمسلمون من هذه الأماكن شيئاً كثيراً وسَبَوا خلقاً.

وفي بيان أهمية العودة من بيروت بعد تطهير الساحل الذي بينها وبين عكا والتوجه نحو عسقلان جنوباً، يقول ابن الأثير:

لما ملك صلاح الدين بيروت وجبيل وغيرهما، كان أمر عسقلان والقدس أهم عنده لأسباب منها: أنهما على طريق مصر يقطع بينهما وبين الشام، وكان يختار أن تتصل الولايات له ليسهل خروج العسكر منها ودخولهم إليها، ولِمَا في فتح القدس من الذكر الجميل والصيت العظيم، إلى غير ذلك من الأغراض.

فسار عن بيروت نحو عسقلان واجتمع بأخيه العادل ومَنْ معه من عساكر مصر ونازلوها يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة (٥٨٣هـ) وجَدّ في قتال المدينة ونصب المنجنيقات عليها وأخيراً فتحها بعد أربعة عشر يوماً.

ولما تم فتح عسقلان أقام بظاهرها وبث السرايا في أطراف البلاد المجاورة لها لتأمين المنطقة، ففتحوا الرملة والداروم (دير البلح) وغزة ومشهد إبراهيم (مدينة الخليل) وبيت لحم وبيت جيرين وكل ما كان للداوية (فرسان الهيكل الذين كانوا يستعمرون المناطق المحيطة بالقدس).

وكان مما فتحه بيت الأحزان الذي يزعم الناس أنه كان بيت النبي يعقوب عليه السلام أيام فراقه يوسف عليه السلام، وقد عمّره الفرنجة في زمنهم وبَنَوْا به حصناً ففتحه صلاح الدين وخرّبه، فقال الشاعر ابن الساعاتي الدمشقي:

أيسكن أوطان النبيين عصبة ... تمين لدى أيمانها حين تحلف
نصحتكمُ والنصح في الدين واجب ... ذروا بيت يعقوبٍ فقد جاء يوسف

٤) عقلية عسكرية فذة:

وإذا أردنا أن نوجز العقلية العسكرية لصلاح الدين من خلال دراسة معاركه التي خاضها.

فقد عرف رحمه الله بالحذر الشديد، وكان من حذره ذاك أنه لم يعقد صلحاً أو هدنة مع الفرنجة إلا وهو خائف أن ينقضوها مما يدفعه إلى الحيطة والتحفظ في الشروط والبنود...

ومخافة من أن يخطئ حذره كان يستشير دائماً من حوله أهل العلم والفهم ولو كان على ظهور الخيل.

وكان إذا التحم في معركة كبرى هجم بثقل جيشه ووزع فرقاً منه على دائرة واسعة من أرض المعركة، ليشتت دفاعات عدوه.

وكان يستعين في كل موقعة بجند العصابات والفدائيين، الذين يزرعون الرعب في قلوب أعدائهم ببطشهم وسرعتهم وتناولهم لمن شاؤوا من أعدائهم ولو كان في بروج مشيدة...

ومن رجال الغارة صنف كانوا يسمون لصوص الخيام، رُتِّبوا لنهب خيام العدو بطريقة ذكية مفاجئة...

ولم تكن لصلاح الدين خطة حربية واحدة بل كثيراً ما غيّر خطته كما تتطلب المعركة.
وكان يريح جنوده ويكثر من حروب الكمين ويعمد إلى إفساد المياه والآبار في طريق العدو.

تحرير بيت المقدس من الصليبيين

المعركة والانتصار:

تمهيد:

ابن الأثير المؤرخ (محمد بن محمد بن عبدالواحد الشيباني المعروف بابن الأثير، المتوفى عام "٦٣٠هـ") ليس إلا واحداً من عشرات بل مئات كتبوا قديماً وحديثاً عن صلاح الدين وفتح بيت المقدس من جوانب شتى...

ولكن أشهر أولئك كلهم قديماً - عدا ابن الأثير - ثلاثة.

الأول: القاضي الفاضل محي الدين عبدالرحيم بن علي بن الحسن اللخمي الشامي الكاتب صاحب ديوان الإنشاء الصلاحي، ولد عام (٥٢٩هـ) وتوفي عام (٥٩٦هـ).

والثاني: العماد الأصبهاني أبوعبدالله محمد بن صفي الدين المعروف بابن أخي العزيز، صاحب كتاب البرق الشامي، أديب بارع فذ ولد عام (٥١٩هـ) وتوفي (٥٩٧هـ).

والثالث: ابن شداد بهاء الدين يوسف بن رافع الأسدي، فقيه شافعي مقرئ محدث خدم في الدولة الأيوبية، ولد سنة (٥٣٩هـ) وتوفي سنة (٦٣٢هـ).

وكان هؤلاء الثلاثة صوت صلاح الدين وناشري خبره ومروجي مذهبه ولسانه وقلمه وآلته الاعلامية الناطقة. وقد كان لكل منهم دور إعلامي وتاريخي وعلمي رائع في الدعاية لصلاح الدين ونشر فضائله وتخليد ذكراه.

الكامل وابن الأثير:

وهذه الحلقة ليست سوى نص منقول عن كتاب تاريخ (الكامل) لمؤلفه الإمام ابن الأثير، حول فتح بيت المقدس... ذلك الفتح الذي طال انتظار الأمة الإسلامية له... فكان صلاح الدين الأيوبي الموفَّق له من عند الله والمؤيَّد فيه بأمره...

استكمال الاستعداد لفتح الفتوح:

يقول ابن الأثير لما فرغ صلاح الدين من أمر عسقلان وما يجاورها من البلاد، وكان قد أرسل إلى مصر أَخَرج الأسطول الذي بها في جمع من المقاتلة ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب، وهو معروف بالشجاعة والشهامة ويمن النقيبة، فأقاموا في البحر يقطعون الطريق على الفرنج، كلما رأوا لهم مركباً غنموه، أوشانياً (نوع من السفن الحربية) أخذوه، فحين وصل الأسطول (أي وصل أسطول المسلمين إلى سواحل فلسطين) وخلا سره من تلك الناحية (اطمأن صلاح الدين لقطع إمدادات البحر عن أعدائه) سار عن عسقلان إلى البيت المقدس.

بيت المقدس مليء بالفرنج وملوكهم:

وكان به البطرك المعظم عندهم وهو أعظم شأناً من ملكهم، وبه أيضاً باليان بن بيرزان صاحب الرملة - وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك - وبه أيضاً مَنْ خَلَص من فرسانهم من حطين، وقد جمعوا وحشدوا واجتمع أهل تلك النواحي، فاجتمع به كثير من الخلق (النصارى) كلهم يرى الموت أيسر عليه من أن يملك المسلمون البيت المقدس ويأخذوه منهم، ويرى أن بذل نفسه وماله وأولاده بعض ما يجب عليه من حفظه.

وحصّنوه تلك الأيام بما وجدوا إليه سبيلاً، وصعدوا على سوره بحدّهم وحديدهم مجتمعين على حفظه والذب عنه بجهدهم وطاقتهم، مظهرين العزم على المناضلة دونه بحسب استطاعتهم، ونصبوا المنجنيقات ليمنعوا من يريد الدنو منه والنزول عليه...

جس النبض وتسرع البعض:

ولما قرب صلاح الدين منه تقدم أمير (من المسلمين) في جماعة عن أصحابه غير محتاط ولا حذر، فلقيه جمع من الفرنج قد خرجوا من القدس ليكونوا يزكاً (حرساً) فقاتلوه وقاتلهم، فقتلوه وقتلوا جماعة ممن معه، فأهمَّ المسلمين قتلُه وفُجِعوا بفقده.

وساروا حتى نزلوا على القدس منتصف رجب، فلما نزلوا عليه رأى المسلمون على سوره من الرجال ما هالهم. وسمعوا لأهله من الغلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع.

اختيار موقع القيادة والمناوشة:

وبقي صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة، لينظر من أين يقاتله، لأنه في غاية الحصانة والامتناع، فلم يجد عليه موضع قتال إلا من جهة الشمال نحو باب عمود أو كنيسة صهيون، فانتقل إلى هذه الناحية في العشرين من رجب ونزلها.

ونصب تلك الليلة المنجنيقات، فأصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها. ونصب الفرنج على سور البلدة منجنيقات ورموا بها، وقوتلوا أشد قتال رآه أحد من الناس، كل واحد من الفريقين يرى ذلك ديناً وحتماً، واجباً فلا يحتاج إلى باعث سلطاني، بل كانوا يُمْنَعون ولا يمتنعون، ويزجرون ولا يتزجرون.

اشتداد القتال والمنازلة وتضعضع الفرنجة:

وكان خيالة الفرنج كل يوم يخرجون إلى ظاهر البلد، يقاتلون ويبارزون فيقتل من الفريقين.

وممن استشهد من المسلمين الأمير عزالدين عيسى بن مالك وهو من أكابر الأمراء وكان أبوه صاحب قلعة جعبر، وكان يصطلي القتال بنفسه كل يوم فقتل إلى رحمة الله تعالى، وكان محبوباً إلى الخاص والعام.

فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك وأخذ من قلوبهم فحملوا حملة رجل واحد فأزالوا الفرنج عن مواقفهم فأدخلوهم بلدهم.

ووصل المسلمون إلى الخندق فجاوزوه، والتصقوا إلى السور فنقبوه، وزحف الرماة يحمونهم، والمنجنيقات توالي الرمي لتكشف الفرنج عن الأسوار، ليتمكن المسلمون من النقب، وأنهم (أي النصارى) قد أشرفوا على الهلاك.

ميل النصارى للإستسلام:

فاجتمع مقدموهم يتشاورون فيما يأتون ويذرون، فاتفق رأيهم على طلب الأمان، وتسليم البيت المقدس إلى صلاح الدين، فأرسلوا جماعة من كبرائهم وأعيانهم في طلب الأمان، فلما ذكروا ذلك للسلطان امتنع من إجابتهم وقال:

لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله، حين ملكتموه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي، وجزاء السيئة بمثلها.

فلما رجع الرسل خائبين محرومين أرسل باليان بن بيرزان (صاحب الرملة) وطلب الأمان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين في هذا الأمر وتحريره، فأجيب إلى ذلك.

قائدا الصليبيين يفاوض بنفسه:

وحضر عنده ورغب في الأمان، وسأل فيه فلم يجبه إلى ذلك، واستعطفه فلم يعطف عليه، واسترحمه فلم يرحمه.

فلما أيس من ذلك قال له: أيها السلطان، اعلم أننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمهم إلا الله تعالى، وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان، ظناً منهم أنك تجيبهم إليه كما أجبت غيرهم، وهم يكرهون الموت ويرغبون الحياة، فإذا رأينا الموت لا بد منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغنمون منها ديناراً واحداً ولا درهماً، ولا تسبون وتأسرون رجلاً ولا امرأة، وإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع، ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير، ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً إلا قتلناه، ثم خرجنا إليكم كلنا فقاتلناكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه... وحينئذ لا يُقتل الرجل حتى يَقْتل أمثاله ونموت أعزاء أو نظفر كراماً...

قبول المصالحة ترجيحاً للمصلحة:

فاستشار صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان، وأن لا يُخرجوا ويُحملوا على ركوب ما لا يدرى عاقبة الأمر فيه عن أي شيء تنجلي، ونحسِب أنهم أسارى بأيدينا فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم. فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الأمان للفرنج.

ويتابع ابن الأثير ليخبرنا عن عهد الأمان وشروط الصلح بين صلاح الدين والصليبيين الذين كانوا في مدينة القدس:

فاستقر أن يُؤخذ من الرجل عشرة دنانير يستوي فيه الغني والفقير، ويَزِن الطفل من الذكور والبنات دينارين، وتزن المرأة خمسة دنانير (وكانت الدنانير تؤخذ بالوزن لا

بالعدد)، فمن أدى ذلك إلى أربعين يوماً فقد نجا، ومن انقضت الأربعون يوماً عنه و لم يؤد ما عليه فقد صار مملوكاً...

فبذل باليان بن بيرزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار فأجيب إلى ذلك.

القدس تعتق من الأسر وتعود حرة مسلمة:

وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وكان يوماً مشهوداً، ورفعت الأعلام الإسلامية على أسواره، ورتب صلاح الدين على أبواب البلد: في كل باب أميناً من الأمناء ليأخذ من أهله ما استقر عليهم...

الأموال الكثيرة التي بذلها النصارى فداء لأنفسهم:

ويشير هنا ابن الأثير إلى دخول الطمع في نفوس أمناء الأبواب وأمراء الجنود وأصحاب السلطة، ممن يرجح أنهم التحقوا بجيش صلاح الدين طمعاً، وألزموه بالصلح كرهاً، فيقول:

فاستعملوا الخيانة و لم يؤدوا فيه أمانة، واقتسم الأمناء الأموال، وتفرقت أيدي سبا، ولو أديت فيه الأمانة لملأ الخزائن وعم الناس، فإنه كان فيه (أي بيت المقدس) ستون ألف رجل ما بين فارس وراجل، سوى من يتبعهم من النساء والولدان.

ولا يعجب السامع من ذلك، فإن البلد كبير، واجتمع إليه من تلك النواحي من عسقلان وغيرها والداروم (دير البلح) والرملة وغزة وغيرها من القرى بحيث امتلأت الطرق والكنائس، وكان الإنسان لا يقدر أن يمشي.

ومن الدليل على كثرة الخلق أن أكثرهم وزن ما استقر من القطيعة (أي الواجب عليه) وأطلق باليان بن بيرزان (أمير الرملة) ثمانية عشر ألف رجل وزن عنهم ثلاثين ألف دينار (على اعتبار أنهم فقراء بينما نرجح أنهم كانوا أتباعه).

البقية العاجزة عن دفع الفداء:

يقول ابن الأثير: وبقي بعد هذا جميعه من لم يكن معه ما يعطي وأُخذ أسيراً ستة عشر ألف آدمي ما بين رجل وامرأة وصبي، هذا بالضبط واليقين... ثم إن جماعة من

الأمراء ادعى كل واحد منهم أن جماعة من رعية أقطاعه مقيمون بالبيت المقدس فيطلقهم ويأخذ هو قطيعتهم...

وكان جماعة من الأمراء يُلْبسون الفرنج زي الجند المسلمين ويخرجونهم ويأخذون منهم قطيعة (ضريبة) قرروها.

واستوهب جماعة من صلاح الدين عدداً من الفرنج فوهبهم لهم، فأخذوا قطيعتهم.

وبالجملة فلم يصل إلى خزائنه إلا القليل (وهذا ما يشير إلى أنه اعتبر تسلم القدس أعظم ما في الدين، فترك ما سواه رغبة عنه، ورغبة منه في إسعاد جنوده وقواده ومسايرتهم).

نماذج من السماحة والعفو:

وكان بالقدس بعض نساء الملوك من الروم وقد ترهبت وأقامت به، ومعها من الحشم والعبيد والجواري خلق كثير، ولها من الأموال والجواهر النفيسة شيء عظيم، فطلبت الأمان لنفسها ومن معها فأمنها وسيرها.

وكذلك أطلق ملكة القدس التي كان زوجها الذي أسره صلاح الدين قد ملك الفرنج بسببها ونيابة عنها كان يقوم بالملك، وأطلق مالها وحشمها، واستأذنته في المصير إلى زوجها وكان حينئذ محبوساً بقلعة نابلس فأذن لها فأتته وأقامت عنده.

وأتته أيضاً امرأة للبرنس أرناط صاحب الكرك وهو الذي قتله صلاح الدين بيده يوم المصاف بحطين، فشفعت في ولد لها مأسور فقال لها صلاح الدين: إن سلّمت الكرك (حصن عظيم على طريق القوافل الذاهبة من سوريا إلى الحجاز ومصر) أطلقته، فَسارت إلى الكرك فلم يسمع منها الفرنج و لم يسلموه، فلم يطلق ولدها ولكنه أطلق مالها ومن تبعها.

وخرج البطرك الكبير الذي للفرنج (ستانلي) ومعه من أموال البِيَع، منها الصخرة والأقصى وقمامة (كنسية القيامة) وغيرها ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وكان له من المال مثل ذلك، فلم يعرض له صلاح الدين، فقيل له: ليأخذ معه ما يقوّي به المسلمين، فقال: لا أغدر به. و لم يأخذ منه غير عشرة دنانير وسيّر الجميع ومعهم من يحميهم إلى صور.

هكذا فتح صلاح الدين وحرر وطهر مدينة القدس والطهر والتحرير، وأخرج منها القوة الغاشمة المعتدية وأزاح عن كاهلها كابوس الاحتلال الصليبي، وأراحها من شر مستطير وشرر متطاير ألمّ بها فطال ليله وثقل عبئه وحمله.

تثبيت أركان الفتح الكبير:

ولكن صلاح الدين كان يعلم تماماً أن تحرير بيت المقدس عسكرياً محفوف بالمخاطر ما لم يتم تطهير ما حولها من بقايا وجيوب للملكة الصليبية في الشرق العربي، وما لم يتم قطع مدد هؤلاء الرعاع الهمج من طريق البحر المتوسط، وما لم تترسخ أركان الدولة المسلمة الفتية، فلم يهنأ له بال، ولم تغمض له عين، ولم يقر له قرار حتى بعد فتوح القدس، وإنما انصرف سريعاً إلى الأهداف الأخرى والعمليات الصعبة المهمة.

ثوب الذل يجلل الصليبيين غداة الفتح:

قال ابن الأثير يصوّر حالة الفرنجة بعد طردهم من القدس أذلاء:

لبس القسوس السواد حزناً على القدس، وأخذهم (بترك) القدس (ستانلي) وركب بهم البحر يستنفرون الفرنج، وصوّروا المسيح عليه السلام وقد ضربه النبي صلى الله عليه وسلم وجرحه (حاشاه) فعظم هذا المنظر على النصارى، وحشدوا وجمعوا من الرجال والأموال ما لا يُحصى.

فحدثني كردي كان يغير مع الإفرنج بحصن الأكراد أنهم أخذوه معهم في البحر، قال: فانتهى بنا الطواف إلى رومية، فخرجنا منها وقد ملأنا الشواني (السفن) الأربعة فضة.

قال ابن الأثير: فخرجوا على الصعب والذلول براً وبحراً، ولولا لطف الله بإهلاك ملك الألمان وإلا لكان يقال: إن الشام ومصر كانتا للمسلمين.

ويكفي صلاح الدين شرفاً ونبلاً شهادات المؤرخين الغربيين في حسن معاملته للصليبيين وهم منهزمون. يقول اِسْتيفِن سن:

إن السلطان قد سمح لعدد كبير بالرحيل دون فدية... ويقول استانلي لين بول:

إن السلطان قد قضى يوماً من أول بزوغ الشمس إلى غروبها وهو فاتح الباب (باب المدينة) للعجزة والفقراء تخرج من غير أن تدفع الجزية.

الأوامر السلطانية غداة فتح القدس:

تمهيد:

يسمي بعض المؤرخين ما أمر به صلاح الدين بعد الفتح مباشرة من أعمال أعادت للقدس وجهها الإسلامي، ومسحت عنها قتامة الكفر والنصرانية، بالترتيبات الصلاحية في القدس...

والحقيقة هي أن الصليبيين حاولوا جهدهم طيلة احتلالهم للقدس - وقد دام تسعين عاماً - أن يغيروا كل شيء في المدينة: الشعائر والمباني والسكان والمعالم الأثرية وغير ذلك... وكان ذلك شديد الوطأة على المسلمين.

وقد استمر مقام صلاح الدين في القدس قرابة شهر بعد الفتح يرتب أمور البلد وأحواله، ويراقب خروج الفرنجة المهين وما ينوون عمله، ويتقبل التهاني، ويستقبل الوفود والشعراء والعلماء، ويكلل مظاهر الفرحة الإسلامية بتاج النصر الذي أعطاه الله إياه.

لقد بقي صلاح الدين من السابع والعشرين من رجب عام ٥٨٣ هـ إلى الخامس والعشرين من شعبان من العام نفسه.

الترتيبات الصلاحية:

وينقل لنا المؤرخون تلك الأوامر أو الترتيبات التي صاحبت الساعات الأولى لفتح القدس وما بعدها فيقول ابن الأثير:

وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير مذهّب. فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة تسلق جماعة منهم إلى أعلى القبة ليقلعوا الصليب، فحين صعدوا صاح الناس كلهم صوتاً واحداً: من البلد ومن ظاهره: المسلمون والفرنج.

أما المسلمون فكبروا فرحاً.

وأما الفرنج فصاحوا تفجعاً وتوجعاً، فسمع الناس صيحة كادت الأرض أن تميد بهم لعظمها وشدتها!!

الوالي والقاضي والسور:

ويجمع الاستاذ محمد محمد حسن شرّاب بعض تلك التراتيب الصلاحية أو الأوامر السلطانية عشية تحرير القدس وما بعدها فيقول:

إن صلاح الدين ولى الأمير ساروج أمْر بيت المقدس، وهو معروف بحسن سيرته وديانته. وقيل: إن اسمه حسام الدين شاروخ...

كذلك ولى بهاء الدين يوسف بن رافع - المعروف بابن شداد - قضاء القدس والعساكر وتدريس المدرسة الصلاحية.

وقام صلاح الدين بحفر خندق عميق حول مدينة القدس، وجدد بناء السور، وبنى أبراجاً حربية من باب العمود إلى باب الخليل، وشارك بنفسه في نقل الأحجار من المقالع.

قال الحنبلي في (الأنس الجليل): وكان يحمل الحجر على قربوس سرجه ويخرج الناس لموافقته على حمل الحجر إلى موضع البناء، ويتولى ذلك بنفسه وبجماعة خواصه والأمراء، ويجتمع لذلك العلماء والقضاة والصوفية والأولياء وحواشي العسكر وعوام الناس. فبني في أقصر مدة ما يتعذر بناؤه في سنين.

المسجد الأقصى ومنبر نورالدين:

أما ابن الأثير فيقول عن تلك الايام الأولى لتحرير القدس:

لما ملك صلاح الدين البلد وفارقه الكفار أمر بإعادة الأبنية إلى حالها القديم. فإن الداوية (فرقة فرسان الهيكل التي احتلت المسجد الأقصى وعبثت به) بنوا غربي الأقصى أبنية ليسكنوها، وعملوا فيها ما يحتاجون إليه من هري (مخازن) ومستراح وغير ذلك، وأدخلوا بعض الأقصى في أبنيتهم، فأعيد إلى الأول، وأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار والانجاس ففعل ذلك أجمع.

ولما كان الجمعة الأخرى رابع شعبان (لأن صلاة الجمعة يوم دخول القدس لم تتيسر إقامتها) صلى المسلمون فيه الجمعة ومعهم صلاح الدين وصلى في قبة الصخرة.

وكان الخطيب والامام محيي الدين بن الزنكي قاضي دمشق.

ثم رتب فيه صلاح الدين خطيباً وإماماً برسم الصلوات الخمس.

وأمر أن يعمل له (للأقصى) منبر فقيل له: إن نور الدين محموداً كان قد عمل بحلب منبراً أمر الصناع بالمبالغة في تحسينه واتقانه وقال: هذا عملناه لينصب بالبيت المقدس، فعمله النجارون في عدة سنين، لم يعمل في الاسلام مثله، فأمر بإحضاره من حلب ونصب بالقدس، وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة.

الخطبة الأولى بعد التحرير:

وقد نقلت لنا خطبة أول جمعة في القدس بعد التحرير، أي بعد أن انقطعت عنه تسعين عاما ألقاها القاضي ابن الزنكي. وكانت ما يلي:

الحمد لله معز الاسلام بنصره، ومذل الكفر بقهره، ومصرف الأمور بعدله، ومديم النعم بشكره، ومستدرج الكفار بمكره. الذي قَدَّر الأيام دولاً بعدله، وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأظهر دينه على الدين كله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله رافع الشك، وداحض الشرك، ورافض الإفك، الذي أسري به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى، وعرج به منه إلى السماوات العلا. (عند سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، إذ يغشى السدرة ما يغشى، ما زاغ البصر وما طغى).

تهنئة بالفتح:

أيها الناس أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى والدرجة العليا، لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة من الأمة الضالة، وردها إلى مقرها من الإسلام، بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مائة عام، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه، وإماطة الشرك عن طرقه بعد أن امتد عليها رواقه واستقر فيها رسمه، ورفع قواعده بالتوحيد فإنه بني عليه، وشيد بنيانه بالتمجيد.

الإشادة بالمسجد الأقصى:

فإنه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه، فهو موطن أبيكم إبراهيم ومعراج نبيكم عليه السلام، وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها في ابتداء الاسلام، فهو مقر الأنبياء مقصد الأولياء ومدفن الرسل ومهبط الوحي، وهو أرض المحشر وصعيد المنشر، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين، وثاني المسجدين، لا تشد الرحال بعد المسجدين الا إليه.

امتداح جيش المسلمين:

فلولا أنكم ممن اختاره الله من عباده، واصطفاكم من سكان بلاده، لما خصكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم لكم فيها مجارٍ، ولا يباريكم في شرفها مبارٍ، وطوبى لكم من جيش جددتم للإسلام أيام القادسية والملاحم اليرموكية، والمنازلات الخيبرية، والهجمات الخالدية، فجزاكم الله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الجزاء، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الاعداء، وتقبل الله ما تقربتم به، من مهراق الدماء، وأثابكم الجنة فهي دار السعداء، فاقدروا رحمكم الله هذه النعمة حق قدرها، وقوموا لله بواجب شكرها، أليس هو البيت الذي عظمته الملل، وتليت فيه الكتب الأربعة المترلة من الله عز وجل.

التذكير بفضائل الأقصى:

أليس هو البيت الذي أمسك الله لأجله الشمس على يوشع أن تغرب، وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب، أليس هو البيت الذي أمر الله عز وجل موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان، وغضب الله عليهم لأجله فألقاهم في التيه عقوبة للعصيان، فاحمدوا الله الذي امضى عزائمكم لما نكلت عنه بنو إسرائيل، ووفقكم لما خذلت فيه أمم كانت قبلكم من الأمم الماضيين وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى، فليهنكم أن الله قد ذكركم فيمن عنده، وشكر لكم الملائكة المترلون على ما أهديتم لهذا البيت من طيب التوحيد، ونشر التقديس والتمجيد، وما أمطتم عن طرقهم فيه من أذى الشرك والتثليث، والاعتقاد الفاجر الخبيث، فالآن تستغفر لكم أملاك السموات، وتصلي عليكم الصلوات المباركات، فاحفظوا رحمكم الله هذه الموهبة فيكم، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التي من تمسك بها سلم، ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم، واحذورا من اتباع الهوى، ومواقعة الردى ورجوع القهقرى والنكول عن العدى.

التحذير من التخاذل عن الجهاد ومطاردة العدو:

ثم قال خطيب الأقصى المحرر ابن الزنكي:

فاحذروا عباد الله بعد أن شرفكم الله بهذا الفتح الجليل والمنح الجزيل وخصكم بنصره المبين، وأعلق أيديكم بحبله المتين، أن تقترفوا كبيرة من مناهيه، وأن تأتوا عظيماً من معانيه (ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً) أو (الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين)... والجهاد الجهاد فهو من أفضل عباداتكم،

وأشرف عاداتكم، انصروا الله ينصركم، احفظوا الله يحفظكم، اذكروا الله يذكركم، اشكروا الله يزدكم ويشكركم، جّدوا في حسم الداء، وقطع شأفة الأعداء، وطهروا بقية الأرض من الأنجاس التي أغضبت الله ورسوله، واقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله، فقد نادت الأيام يالثارات الإسلامية والملة المحمدية، الله أكبر فتح الله ونصر، غلب الله وقهر، أذل الله من كفر...

لا تفوتوا فرصة النصر:

واعلموا رحمكم الله أن هذه فرصة فاغتنموها، وفريسة فناجزوها، وغنيمة فحوزوها، ومهمة فأخرجوا لها هممكم وأبرزوها، وسيّروا إليها سرايا عزماتكم وجهزوها، فالأمور بأواخرها، والمكاسب بذخائرها، فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول وهم مثلكم أو يزيدون، فكيف وقد أضحى قبالة الواحد منهم عشرون، وقد قال الله تعالى (إن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون) أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره، والازدجار بزواجره، وأيدنا معاشر المسلمين بنصر من عنده (إن ينصركم الله فلا غالب لكم، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده، وعلى الله فليتوكل المؤمنون).

ثم ختم ابن الزنكي رحمه الله خطبته العصماء في فتح القدس بقوله:

آمركم وإياي عباد الله بما أمر الله من حسن الطاعة فأطيعوه، وأنهاكم وإياي عما نهى الله عنه، من قبح المعصية فلا تعصوه، أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم لي ولكم ولجميع المسلمين فاستغفروه. ثم دعا للإمام الناصر.

عمارة المسجد الأقصى والصخرة:

ويقول ابن الاثير في تاريخه وهو يذكر ما فعله صلاح الدين من ترتيبات غداة الفتح:

ولما فرغ صلاح الدين من صلاة الجمعة تقدم (أي أمر) بعمارة المسجد الأقصى، واستنفاذ الوسع في تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه، فأحضروا من الرخام الذي لا يوجد، ومن القص المذهب القسطنطيني وغير ذلك مما يحتاجون اليه، فشرعوا في عمارته ومحو ما كان في تلك الأبنية من الصور..

وكان الفرنج فرشوا الرخام فوق الصخرة وغيبوها، فأمر بكشفها.

وكان سبب تغطيتها بالفرش أن القسيسين باعوا كثيراً منها للفرنج الواردين إليهم من داخل البحر من أوروبا للزيارة يشترونه بوزنه ذهباً، رجاء بركتها، وكان أحدهم اذا دخل إلى بلاده باليسير منها بنى له كنيسة ويجعل في مذبحها. فخاف بعض ملوكهم أن تفنى، فأمر بها ففرش فوقها حفظاً لها.

فلما كشفت نَقَل اليها صلاح الدين المصاحف الحسنة، والربعات الجيدة، ورتب القراء.

وأدرّ عليهم الوظائف الكثيرة (العطايا) فعاد الإسلام هناك غضاً طرياً.

رحيل الصليبيين من القدس:

وأما الفرنج من غير أهل بيت المقدس فإنهم شرعوا بعد فتح المدينة في بيع مالا يمكنهم حمله من امتعتهم وذخائرهم وأموالهم وما لا يطيقون حمله، فاشتراه التجار من أهل العسكر (عسكر صلاح الدين) واشتراه النصارى من أهل القدس الذين ليسوا من الفرنجة (نصارى العرب) فإنهم (نصارى العرب) طلبوا من صلاح الدين أن يمكنهم من المقام في مساكنهم ويأخذ منهم الجزية فأجابهم إلى ذلك.

وترك الفرنج أيضاً أشياء كثيرة لم يمكنهم بيعها من الأسرة والصناديق والبنيات وغير ذلك.

وتركوا أيضاً من الرخام الذي لا يوجد مثله من الأساطين والألواح والقص وغيره شيئاً كثيراً ثم ساروا.

توطين القبائل العربية في القدس:

ويقول الأستاذ عارف العارف:

إن من الأعمال التي قام بها صلاح الدين في القدس أنه أتى بعدد من القبائل العربية كبني حارث وبني مرة وبني سعد وبني زيد والجرامنة، فأقطعها بعض أجزاء المدينة ليستوطنوها كما رتب الأعياد والمواسم المعروفة في فلسطين.

وترك آثاراً في القدس منها: البيمارستان، والخانقاه الصلاحية، وقبة يوسف، والمدرسة الخنثية، والمدرسة الصلاحية، والمدرسة الميمونية...

وأنه انتعشت الحركة التجارية في المدينة إثر الفتح الصلاحي، فكثرت الموارد التي كانت تصدرها القدس إلى الخارج، ومنها الجبن والقطين والزبيب والزيتون والتفاح وفقم قريش والمرايا وقدور القناديل والإبر والألبان.

فتوح القدس على ألسنة شعراء الأمة

تمهيد:

الشعر ديوان العرب، وهو لسان الحال المعبر عما في خلجات النفس، وفيه من التصوير ما يفوق الواقع، وله من التأثير ما يربو على النثر كثيراً، وقد لعب دوراً في تاريخ الدعوة إلى الله لا ينكر، وكان وسيلة إعلام ناجحة في العديد من الحوادث والمواقف... إن الشعر ليخلد صاحبه ويخلد موضوعه ويخلد أمته... وجاءت سنة ٥٨٣ هـ، وهي السنة التي انهارت فيها دولة الصليبيين ومملكتهم في القدس.

تجاوب قرائح الشعراء مع الحدث العظيم:

ولم يكن حدث عظيم ذو دوي هائل وصدى شامل ووَقْعٍ كبير جاء بعد انتظار طويل وتضحيات باهظة وعون من الله ظاهر - كفتوح القدس وعودها إلى الحظيرة الإسلامية والسيادة المحمدية، بعد قرابة قرن كامل، دنّست فيه ببغي وعدوان أوروبا الصليبية - لم يكن ليمر مرور الكرام دون وقفة للشعراء طويلة معه، يبرّزون فيه ويغردون، ويقلّبون وجوه الكلام ويرددون، ويمتدحون فضائل جند الإسلام وملوكه ويعددون، ويبكّتون أنصار الشر والفساد والصليب ويندون.

لقد تغنوا بالقدس، وامتدحوا صلاح الدين الملك الناصر لدين الله يوسف بن أيوب، وشكروا لحماة الإسلام وكماته جهدهم ومجاهدتهم، ونثروا الفرحة، ونفحوا الطيب، وعطروا المجالس، وملأوا الدنيا شدواً وتغريداً بقصائدهم الرائعة العصماء، التي تستحق الكتابة بماء الذهب... لأنها كانت من أجل الفرحة بالقدس وتحرير القدس.

من بغداد صوت شاعر يمجد القدس:

فمن ذلك ما نقله الأصفهاني من شعر فخر الكتّاب أبي علي الحسن بن علي الجويهني من أهل بغداد في كتابه الفتح القدسي كما يذكر ذلك أبوشامة في كتاب الروضتين، يقول أبوعلي:

جند السماء لهذا المَلْك أعوان ... من شك فيهم فهذا الفتح عنوانُ
متى رأى الناس ما نحكيه من زمن ... وقد مضت فيه أزمان وأزمانُ
هذي الفتوح فتوح الأنبياء وما ... لها سوى الشكر بالأفعال أثمانُ

أضحت ملوك الفرنج الصِّيْد في يده ... صَيْداً، وما ضعفوا يوماً وما هانوا
كم من فحول ملوك غودروا وهم ... خوف الفرنجة وِلدان ونسوانُ
استصرخت بملكشاه طرابلسٌ ... فحام عنها وصمت منه آذان
هذا وكم ملك من بعده نظر ... الإسلام يطوى ويحوى وهو سكران
تسعون عاماً بلاد الله تصرخ والإِ ... سلامُ نُصّاره صمٌ وعميان
فالآن لبى صلاحُ الدين دعوتَهم ... بأمرِ مَن هو للمعوان معوان
للناصر ادُّخرتْ هذي الفتوح وما ... سَمَت لها همم الأملاك مذ كانوا
حباه ذوالعرش بالنصر العزيز فقال ... الناس داودُ هذا أم سليمان
في نصف شهر غدا للشرك مصطلحاً ... فطهرت منه أقطار وبلدان
فأين مَسْلمَة عنها وإخوته ... بل أين والدهم بل أين مروان
وعُدّ عما سواه فالفرنجة لم ... يبذّهم من ملوك الأرض إنسان
لو أن ذا الفتح في عصر النبي لقد ... تنزلت فيه آيات وقرآن
ياقبح أوجه عباد الصليب وقد ... غدا يبرقعها شؤم وخذلان
خَزَنتَ عند إله العرش سائر ما ... ملكته وملوك الأرض خُزّان
فالله يبقيك للإسلام تحرسه من ... أن يُضام ويُلفَى وهو حيران
وهذه سَنَةٌ أكرم بها سَنَةً ... فالكفر في سَنَة والنصر يقظان
يا جامعاً كَلْمةَ الإيمان قامعَ من ... معبوده دون ربِّ العرش صلبان
إذا طوى الله ديوان العباد فما ... يطوى لأجر صلاح الدين ديوان

ومن مصر شاعر يردد الصدى:

ورددت مصر الكنانة أصداء فتح بيت المقدس، وشاركت العالم الإسلامي فرحة النصر، وأرسلت على لسان نقيب أشرافها - لله دره من شاعر - الشريف محمد بن أسعد بن علي بن مَعْمر الحسيني الجواني تقول مسرورة جَذْلى:

أتُرى مناماً ما بعيني أُبصر ... القدس يفتح والفرنجة تكسرُ
وقمامة - أي كنيسة القيامة - قُمت من الرجس ... الذي بزواله وزوالها يتطهرُ
ومليكهم في القيد مصفودٌ ولم ... يُرَ قبلَ ذاك لهم مليك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذي ... وُعِد الرسول فسَبِّحوا واستغفروا
فَتَح الشآمَ وطهّر القدس الذي ... هو في القيامة للأنام المحشر
من كان هذا فتحه لمحمد ... ماذا يقال له وماذا يُذكر؟
يا يوسف الصديق! أنت لفتحها ... فاروقها عمر الإمام الأطهر

ولأنت عثمان الشريعة بعده ... ولأنت في نصر النبوة حيدر
مَلكٌ غدا الإسلام من عَجَب به ... يختال، والدنيا به تتبختر
نثرٌ ونظم طعنُه وضرابه ... فالرمح ينظم، والمهند ينثر
حيث الرقاب خواضع، حيث ... العيون خواشع، حيث الجباه تعفر
غاراته جَمْع، فإن خطبت له فيها ... السيوف فكل هام منبر
إذ لا ترى إلا طَلَى بسنابك ... تحذي نعالاً أو دماء تَهْدِر
وصوّافنا تختار أن تطأ الثرى ... فيصدها عنه طلى وسنور
تمشي على جثث العِدى عرجاً ولا ... عَرَج بها لكنها تتعثر

وفي الأندلس فرحة كبرى:

أما في العدوة الأخرى للعالم الإسلامي في الفردوس المفقود (الأندلس) الذي كان الجناح الغربي المحلق للأمة في سماء الحضارة، فإن رَنَّة الفرح قد طارت إليه، فحركت كوامن الشوق في مغاربته وأندلسييه، فانطلق لسان شاعر الأندلس أبو الحسين بن جبير الأندلسي بلبل الأفراح مغرداً بنشوة عودة الأقصى السليب، وطهر بيت المقدس المدنس بأهل الصليب:

أَطَلَّتْ على أُفْقك الزاهر ... سعود من الفلك الدائرِ
فأبشر إن رقاب العدى ... تُمَدّ إلى سيفك الباترِ
وعما قريب يحل الردى ... بكَنْدهم الناكث الغادرِ
وخصبُ الورى يوم تسقي الثرى ... سحائب من دمها الهامرِ
وكَم لك من فتكة فيهم ... حكت فتكة الأسد الخادرِ
كسرت صليبهم عنوة ... فلله درك من كاسرِ
وغيّرت آثارهم كلها ... فليس لها الدهر من جابر
وأمضيت جدّك في غزوهم ... فتعساً لجَدِّهم العاثر
وأدبر مُلْكهم بالشآم ... وولى كأمسهم الدابر
جنودك بالرعب منصورةٌ ... فناجزْ متى شئت أو صابرِ
فكلهمُ غرقٌ هالك ... بتيار عسكرك الزاخرِ
ثَأَرتَ لدين الهدى في العدى ... فآثرك الله من ثائر
وقمت بنصر إله الورى ... فسمّاك بالملك الناصر
وجاهدت مجتهداً صابراً ... فلله أجرك من صابر
تبيت الملوك على فرشهم ... وتَرْفل في الزَرَد السابري

وتُؤثر جاهدَ عيش الجهاد على طيب عيشهم الناضر
وتُسْهر ليلَك في حق مَنْ سيرضيك في جفنك الساهر
فتحت للقدس من أرضه فعادت إلى وصفها الطاهر
وجئت إلى قدسه المرتضى فخلّصته من يد الكافر
وأعليت فيه منار الهدى وأحييت من رسمه الداثر
لكم ذَخَرَ الله هذي الفتوح من الزمن الأول الغابر
وخصك من بعد فاروقه بها لاصطناعك في الآخر
محبتكم أُلقيت في النفوس بِذِكْرٍ لكم في الورى طائر
فكم لهم عند ذِكْر الملوك لِمثلك من مثل سائر

تهنئة أخرى أندلسية:

وكان مما قاله الشاعر الحكيم أبو الفضل عبدالمنعم بن عمر بن حسان الأندلسي مشاركة منه لأهل الإسلام والفاتح صلاح الدين في فرحة تحرير بيت المقدس:

أبا المظفر أنت المجتبى لهدى أُخرى الزمان على خبر بخبرته
فلو رآك وقد حزت العلا عمرٌ في قلة التل قضّى كُنْه عَبْرته
ولو رآك وأهل القدس في وله أبو عبيدة فدّى من مسرّته
غداة جزّوا النواصي في قمامته وأعولوا بالتباكي حول صخرته
دارت بك الملة الحَسنى فنحن على عهد الصحابة في استمرار مدته
وأنت كاسمك صديق وصاحبك الملك المظفر سام في مبرّته
وفي السلالة عثمان يؤيده عُلا عليٍّ على إيثار نصرته
ومن لديك ذوو قربى رَقَوْا شرفاً وكم بعيد رأى الزلفى بهجرته
يُشَبّه القَبْج (الحجل) ما بين البزاة لِقَى مُلْك الفرنج أخيذاً بين عترته
أما رأيت معالي يوسف نسقت حتى رمت كل ذي مُلْك بحسرته
أضحى لنشر الهدى في فتح منهجه وبات يطوي العدى في سَد ثغرته
واستقبح الرجس مَمْنوّاً بمشهده فاستفتح القدس محشواً بزمرته
لكن بأس صلاح الدين أَذْهَلَهم بوقعة التل واستشرى بسوْرته
تعيا الجوارح والفرسان وهو على بدء النشاط عشياً مثل بُكْرته
يا فاتح المسجد الأقصى على دُهُمٍ وقانص الجيش لا يحصي بقفزته
أبشر بمُلْك كظهر الشمس مطلع على البسيطة فتّاح بنشرته
حتى يكون لهذا الدين ملحمة تحكي النبوة في أيام فترته

ومن مصر... مرة أخرى ما أحلاها:

وشارك الوزير العزيزي في مصر نجم الدين يوسف بن الحسين الشهير بابن المجاور بقصيدة تمجد الفتح والفاتح، وتبارك الأرض والجند، وتخلد الحدث والفرحة بالانتصار، إذ عاد الحق إلى أهله بعودة القدس الشريف إلى سابق عهده وأصحاب أرضه، واندحار الغازي الغريب، المفسد في الأرض، الباغي على الآمنين:

الجد في هذا الزمان مبين ... والهزل فيه مع الغواية مختفِ
ملك إذا أمّ الملوك جنابه ... لاذوا بأكرم من يؤم وأشرفَ
عزل الفرنجة ثم ولى جيشه ... أعظم به من صارف ومصرف
عزم وحلم أنسيا ما كان من ... عزم ابن مِرْداس وحلم الأحنف
سنت سيوفك في الرؤس ختانةً ... ذهبت بمهجة كل علج أقلف
لم تستطع عصيان أمرك بل أتت ... منقادة طوعاً و لم تتخلف
فخذ الخراج من البسيطة كلها ... واستأد فرضي: جزية وموظَّف
فانهض بها وتقاض حقك موقنا ... أن الإله بما تؤمله حفي
إن صبحوا الأعداء في أوطانهم ... تركوا ديارهم كقاع صفصف
بالناصر المهدي والهادي إلى ... سبل الجهاد أبي المظفر يوسف
وإذا أتوا أسرى إلى أبوابه ... وقفوا بأعظم من يصول وأرأف
قد أنصف التوحيد من تثليثهم ... وأقام في الإنجيل حد المصحف
يا أيها الملك الذي لطباعه ... وسيوفه خلقا رضى وتعسف
آفاتهم وافت بأخذك منهم ... يافا فكم من حسرة وتأسف
أحييت دين محمد وأقمته ... وسترته من بعد طول تكشف
واقبض على الدنيا بكف زهادة ... وابسط لرحمتها جناح تعطف
هم فتية الأتراك كل مجفجف ... يغشى الكريهة فوق كل مجفجف
أنت اصطفيتهم لنصرة ديننا ... لله در المصطَفَى والمصطفِي
المستعين بربه والواثق المنصور ... والمستظهر البر الوفِي
مولى غدا للدين أكرم والد ... حَدْب على أبنائه مترفرف
ملك له في الحرب كل تَعفّةٍ ... وله غداة السلم زهد تصوف
لله يوم عروبة إذ أعربت ... ساعاته عن نصرك المتعرف
أو ما رأى الأعلاج حين دعوتها ... بلسان سيف في الكريهة ملحف
وضبطت ديوان الجهاد بعامل ... من عامل وبمشرف من مشرفي
جاءت جنود الله تطلب ثأرها ... وصدورها بك عن قليل تشتفي

قوم يخوضون الحمام شجاعة لا ينظرون إليه من طرف خفي

ومن الحاشية الصلاحية تحية شعرية:

وشارك العماد الكاتب: عماد الدين أبو حامد محمد بن محمد الاصفهاني بشعره هو نفسه، فكان من ذلك قوله في مناسبة فتوح القدس وهو يعدد نصر المدن الأخرى قبل ذلك ويشيد به:

رأيت صلاح الدين أشرف من غدا وأفضل من أضحى وأكرم من أمسى
وقيل لنا في الأرض سبعة أبحر ولسنا نرى إلا أنامله الخمسا
سجيته الحسنى وشيمته الرضا وبطشته الكبرى وعزته القَعْسا
جنودك أملاك السماء، وظنهم عداتك جن الأرض في الفتك لا الإنسا
فلا يستحق القدس غيرك في الورى فأنت الذي من دونهم فتح القدسا
وطهرته من رجسهم بدمائهم فأذهبتَ بالرجس الذي ذهب الرجسا
نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها وألبستها الدين الذي كشف اللبسا
وعادت ببيت الله أحكام دينه فلا بطركاً أبقيت فيها ولا قَسّا
وقد شاع في الأفاق عنك بشارة بأن أذان القدس قد بطل النَّقْسا
جرى بالذي تهوى القضاء وظاهرت ملائكة الرحمن أجنادك الحمسا
وقد طاب ريانا على طبرية فيا طيبها مغنى ويا حسنها مرسى
وعكا وما عكا فقد كان فتحها لإجلائهم عن مدن ساحله كنسا
وصيدا وبيروت وتبنين كلها بسيفك ألفى أنفه الرغم والتعسا
ويافا وأرسوف ويبنى وغزة تخذت بها بين الطلى والظبى عرسا
وفي عسقلان الكفر ذلٌ بملككم فمنظره بل أمره ارْبَدَّ وأرجسا
وصار بصورٍ عصبة يرقبونكم فلا تبطئوا عنهم وحسوهم حسا

هذا بعض ما فاضت به قرائح شعراء الإسلام جياشة ملهمة غداة الفتح المبين لقدس المسلمين على يد صلاح الدين.

القدس في عهد المماليك والعثمانيين

تمهيد:

عصر المماليك من العصور الزاهية بالنسبة للقدس، فقد كانت القدس كمدينة، والمسجد الأقصى وقبة الصخرة كمسجدين بارزين مهمين، محطة اهتمام كبير ورعاية بالغة من مختلف الأمراء والسلاطين المماليك، الذين دام حكمهم قرابة ثلاثمائة سنة ما بين ٦٥١هـ - ٩٢٢هـ (١٢٥٣ – ١٥١٦).

وتمثلت قمة اهتمامات المماليك بمدينة القدس بمنحها صفة الولاية المستقلة التي يعين فيها وال لا يتبع إلا للسلطان مباشرة، وهذا ما جعل القدس - فوق ما هي عليه أصلاً - مركزاً من أهم المراكز العلمية الدينية في العالم الإسلامي وقبلة طلاب العلوم الشرعية ومقصدهم.

الملك الظاهر بيبرس:

وأول السلاطين المماليك زيارة للقدس كان الملك الظاهر بيبرس، فقد زار القدس مرتين مرةً في عام ١٢٦٢م (٦٦١هـ)، وأخرى في عام ١٢٦٥م (٦٦٤هـ).يقول المؤرخ عارف باشا في (تاريخ القدس):

ومن المنشآت التي تمت في القدس على عهد الملك الظاهر بيبرس:

(دار الحديث): وتقع بجوار التربة الجالقية على طريق باب السلسلة، وقفها الأمير شرف الدين عيسى بن بدر محمد ابن أبي القاسم الهكاوي سنة ٦٦٦هـ

(لمدرسة الأباصيرية): وموقعها تجاه الرباط المنصوري بجوار باب الناظر، وقفها الأمير علاء الدين آيدوغدي (٦٦٦هـ) ولما مات دفن فيها.

وكان من إنجازات الملك الظاهر نفسه في مدينة القدس أنه جدد ما كان تهدم من مسجد الصخرة، كما جدد قبة السلسلة في باحة المسجد الأقصى وزخرفها وأنشأ في المدينة خاناً يترل فيه التجار ببضائعهم والمسافرون برواحلهم. ووقف بعض القرى حسبة لوجه الله ينفق ريعها على مصالح المسجد الأقصى كل عام. وإن الفصوص الحالية التي على الرخام في مسجد الصخرة من الخارج هي من آثار الملك الظاهر، كما أن من آثاره

(٦٧٠هـ) القبة والمسجد المبنيان على قبر موسى عليه السلام عند الكثيب الأحمر قبل أريحا سنة (٦٦٩هـ).

المنصور سيف الدين قلاوون:

ولما كانت ولاية الملك المنصور سيف الدين قلاون (٦٨٠هـ) لاحظ تغلغل النصارى واليهود في الوظائف الحكومية في القدس مما يكسبهم نفوذاً وسلطاناً، فأصدر مرسوماً يقضي بألا يستخدم في خدمات الدولة أحد من أهل الذمة فصرفوا عنها.

وفي مدة سلطنته أنشئت بالقدس عدة منشآت هامة منها:

(رباط قلاوون): ويسمى أيضاً الرباط المنصوري، أنشأه قرابة عام (٦٨٠هـ) وجعله وقفاً على الفقراء من زوار بيت المقدس، ويقع قبلي الطريق المؤدية إلى المسجد الأقصى من الغرب عند باب الناظر.

كما عمّر في عهده **(المسجد القلندري)** وهو واقع في طريق دير اللاتين، كما بنيت في عهده قبة جميلة ظريفة في مقبرة ماملا يقال لها (الكبكية) أو (القبقية).

الملك الناصر محمد بن سيف الدين قلاوون:

وفي عهد الملك الناصر محمد بن المنصور سيف الدين قلاوون قامت في القدس المنشآت التالية (نقلاً عن عارف العارف):

أ - رباط الكرد: أمام المدرسة الأرغونية بباب الحديد، أنشأه المقر السيفي كرد سنة (٦٩٣هـ).

ب - المدرسة الداودارية: في مدخل الباب المعروف بباب الداودارية (الباب العتم) من أبواب الحرم الشمالية، وقفها الأمير علم الدين أبوموسى سنجر بن عبدالله الدوادار الصالحي النجمي سنة (٦٩٥هـ).

ج - المدرسة السلامية: بباب شرف الأنبياء تجاه المعظمية إلى الشمال من المدرسة الدوادارية، وقفها الخواجا مجدالدين أبوالفدا إسماعيل السلامي سنة (٧٠٠هـ).

د - المدرسة الوجيهية: بخط دَرَج المولى (شارع درج المولى) عند باب الغوانمة، وقفها الشيخ وجيه الدين محمد بن عثمان بن أسعد النجا الحنبلي المتوفى سنة (٧٠١هـ).

هـ - المدرسة الموصلية: بباب شرف الأنبياء، وقفها الخواجا فخر الدين الموصلي.

و - المدرسة الجاليقية: على مئتي متر من الحرم إلى الغرب عند ملتقى طريق باب السلسلة بطريق الواد، أنشأها الأمير ركن الدين بيبرس الجالقي الصالحي سنة (٧٠٧هـ).

ز - المدرسة الجاولية: قريبة من دَرَج الغوانمة عند زاوية الحرم الشمالية، وقفها الأمير علم الدين سنجر الجاولي نائب غزة والقدس في (٧١٥هـ).وقد تقلبت هذه المدرسة بعد ذلك في أحوال شتى لاستخدامات مدنية وعسكرية وإدارية عديدة.

ح - المدرسة الكريمية: بباب حطة، وقفها الصاحب كريم الدين عبدالكريم ابن المعلم هبة الله بن مكانس ناظر الخواص الشريفة بالديار المصرية، وكان ذلك في (٧١٨هـ).ذكرها ابن بطوطة في رحلته وقال: إن واقفها كريم الدين كان قبطياً فأسلم.

ط - المدرسة التنكزية: بباب السلسلة، أنشأها الأمير تنكز الملكي الناصري في (٧٢٩هـ)، وكانت في عهد المماليك مدرسة عظيمة وداراً للحديث، سكنها السلطان فرج بن برقوق، وفي عهد قاتيباي اتخذت مقراً للقضاء والحكام.

ي - المدرسة الأمينية: إلى الغرب من باب شرف الأنبياء، أنشأها الصاحب أمين الدين عبدالله سنة (٧٣٠هـ).

ك - الخانقاه الفخرية: مجاورة لجامع المغاربة على بعد مئتي متر من المسجد الأقصى إلى الغرب، وقفها القاضي فخر الدين أبو عبدالله محمد بن فضل الله سنة (٧٣٢هـ).

ل - المدرسة الملكية: شمالي الحرم بين المدرسة الفارسية من الشرق والمدرسة الأسعردية من الغرب، ومن أسمائها (مدرسة الجوكندار)، عمّرها الحاج ملك الجوكندار سنة (٧٤١هـ). وغير ذلك.

وفي عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون جدد تذهيب قبة المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وعمرت القناطر التي على الدرجتين الشماليتين بصحن الصخرة، كما عمرت

قناة السبيل ووصل الماء إلى المسجد الأقصى (٧٣٠هـ)، وأنشئ الحوض الذي يسميه الناس في يومنا هذا (الكأس) وهو من الرخام وسط المسجد الأقصى قبالة بابه.

أواخر دولة المماليك الأولى (البحرية):

وفي أواخر عهد الدولة التركمانية (المماليك البحرية) ويمكن أن تسمى دولة المماليك الأولى، سجل التاريخ مجموعة أيضاً من المنشآت والآثار منها:

المدرسة الفارسية: وقفها الأمير فارس الدين البكي بن قطلو نائب السلطان سنة (٧٥٥هـ).

والمدرسة الأرغونية: نسبة إلى منشئها الأمير أرغون الكاملي سنة (٧٥٨هـ).

والمدرسة التشتمرية: التي وقفها الأمير تشتمر السيفي سنة (٧٥٩هـ).

والمدرسة الطشتمرية: بناها الأمير طشتمر العلائي سنة (٧٨٤هـ).

والمدرسة الخاتونية: وقفتها أغلى خاتون بنت شمس الدين سنة (٧٥٥هـ).

والمدرسة البلدية: المسماة قديماً مدرسة منكلي نسبة إلى واقفها الأمير سيف الدين منكل بن الأحمدي سنة (٧٨٢هـ).

والمدرسة المحدثية: أنشئت سنة (٧٦٢هـ).

والمدرسة الحسنية: التي وقفها شامين الحسني الطواشي سنة (٧٦٢هـ)، وانتقلت مع الزمن إلى جماعة من النصارى.

والمدرسة الطازية: مؤسسها الأمير طاز من مماليك السلطان محمد المتوفى سنة (٧٦٣هـ)، وكان يدرس فيها فطاحل العلماء المقدسيين.

والمدرسة البارودية: وقفتها السيدة سفري خاتون بنت محمود البارودي سنة (٧٦٨هـ).

والمدرسة الحنبلية: وقفها الأمير بيدر نائب الشام سنة (٧٨١هـ).

والمدرسة اللؤلؤية: وقفها الأمير لؤلؤ غازي سنة (٧٨١هـ).

دولة المماليك الشراكسة (برقوق وأولاده):

وشهدت القدس في عهد دولة المماليك الثانية (ويسمون بالشراكة أو الأبراج) عدداً وافراً من المنشآت العامة.

فمثلاً في عهد الظاهر برقوق وأولاده بُني **خان السلطان ودار الست والمدرسة الجهاركسية والطولونية والنصيبية والفنرية والكَاملية.**

بينما في عهد الملك الأشرف برسباي وابنه يوسف أنشئ **سبيل الشعلان وسبيل علاء الدين البصري والمدرسة الباسطية والقادرية والحسنية والعثمانية والجوهرية.**

الملك الظاهر جقمق:

وقد قام مندوب عن الملك الظاهر جقمق اسمه الخاصكي (اينال باي) بزيارة القدس للكشف عن الأديرة ومراقبة أماكن عبادة غير المسلمين وما استحدثته النصارى، فهدم ما استجد بدير صهيون وانتزع قبر داود من يد النصارى، وأخرج المستجد من دير السريان وجعله زاوية، وهدم البناء المستجد ببيت لحم، وقلع الدرابزين المستجد بالقمامة فأُخذ إلى المسجد الأقصى، أي أنه أزال كثيراً من الإضافات والبناءات التي بناها النصارى دون إذن، فأصابهم عامئذ (٨٥٤هـ) كرب عظيم.

من الحوادث في عهد قايتباي:

ومما يذكر من الحوادث في عهد قايتباي أن خلافاً شديداً نشب بين المسلمين واليهود حول دار واقعة في حارة اليهود بين كنيس لليهود ومسجد للمسلمين، فلما رفع الأمر إلى قضاة القدس حكموا لليهود، فرفع المسلمون أمرهم إلى السلطان قايتباي بمصر، فنقض حكم قضاة القدس وأبطله، فاشتكى اليهود إليه وألحوا عليه فأذعن لإلحاحهم وتراجع عن موقفه، وأمر بإنفاذ حكم قضاة القدس، فذاعت عندئذ في القدس شائعات تقول: إن اليهود ما كانوا لينجحوا لولا ما بذلوه من أموال وفيرة للخزائن السلطانية، واستشاط المسلون غضباً فهدموا كنيس اليهود، فلما بلغ السلطان قايتباي ذلك انزعج بشدة، وأمر باعتقال زعماء المدينة، فأُرسلوا إليه في مصر مقيدين فضربهم وسجنهم، ولم يطلق سراحهم إلا بعد أن هدأت الفتنة.

وصف القدس: خليل بن شاهين الظاهري أولاً

وينقل لنا غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري (وهو أمير مملوكي أولع بالبحث، صنّف عدداً من الكتب وهو من مواليد القدس، توفي عام٨٧٣ هـ) وصفاً لمدينة القدس في كتابه (زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك) في عهد المماليك فيقول:

وبالقدس الشريف أسواق كثيرة من جملتها ثلاث قصبات على صف واحد، قيل إنه لم يكن بغالب البلاد نظيرها، وبها مدارس كثيرة وخانات وحمامات وعمائر حسنة، ولم يؤخذ بها شيء من المكوس.

فلكس خابري الألماني ثانياً:

ويصف رحالة أوربي هو راهب أولم الألمانية (فلكس خابري) بعض ما رآه في القدس عام (٨٨٥هـ) فيقول:

بينما كنت مرة نازلاً من جبل صهيون في طريقه إلى الكنيسة للصلاة، سمعت أولاداً يقرأون بصوت مرتفع، فاقتربت من باب المدرسة ونظرت إليهم، فرأيت صبياناً جالسين على الأرض في صفوف، وكانوا كلهم يرددون مجتمعين نفس الكلمات بصوت عالٍ ويهزون رؤوسهم أماماً وخلفاً، وقد استطعت أن أحفظ الكلمات التي رددوها مع موسيقاها، وهي أول ما يعلمون صبيانهم لأنها أصول عقيدتهم... ومن المعروف أنه يصف كتّاباً في القدس لتحفيظ القرآن للأولاد.

كما يصف (فلكس) نفسه موقفاً آخر:

فلما كنا في كنيسة القيامة جاء تجار من النصارى الشرقيين ودخلوا معنا، فلما أقفلت الأبواب عمد بعضنا إلى المساومة (في بضائع لهم) وقضوا في ذلك شطراً من الليل إن لم يكن الليل كله، ولم تقتصر مشترياتهم على المسابح والحجارة الكريمة لكنها تعدتها إلى القماش الدمشقي والحرير، أعرف بعض النبلاء الذين كانوا يمتنعون عن المساومة في أسواق بلادهم، لأن ذلك دون مكانتهم الاجتماعية، لم يتحرجوا عن الشراء في مثل هذا المكان المقدس، ولم تكن غاية الجميع أن يبتاعوا أشياء لأنفسهم، ولكنهم كانوا يفكرون بنقلها إلى بلادهم للاتجار بها والربح. وقد اشترك بعض رجال الدين في أعمال البيع والشراء هذه.

أما مجير الدين الحنبلي فيصف قلعة مدينة القدس أو ما يعرف قديماً بمحراب داود أو برج داود فيقول بعد وصفها: وقد تلاشت أحوالها في عصرنا وتشعثت، وبطل منها دق الطبلخانة (أي في كل ليلة بين المغرب والعشاء وعلى عادة القلاع بالبلاد) لتلاشي الأموال وعدم إقامة النظام، وتقدم أن الوالي بالقدس الشريف كان قديماً يترل بالقلعة المذكورة.

بيت المقدس في عهد العثمانيين

تمهيد:

بقيت القدس في يد الأتراك العثمانيين أربعمائة سنة كاملة من (١٥١٧-١٩١٧م) (٩٢٣هـ،١٣٣٦هـ)، وكان لها في تلك الفترة منزلة سامية بين المدن، كما حفظ لنا التاريخ الكثير من أنباء وآثار وحوادث تلك الفترة الطويلة.

البداية مع السلطان سليم:

ويذكر التاريخ أن السلطان (سليم) الذي تغلب على المماليك في معركة (مرج دابق) ظاهر حلب، وقتل سلطانهم (طومان باي) واحتل بلاد الشام قاطبة، زار القدس الشريف متبركاً برؤية الأماكن المقدسة وزيارة قبور الأنبياء، وسمح - بعد رجاء من ملك إسبانيا الذي بعث سفيره إلى السلطان بذلك - للحجاج النصارى أن يفدوا إلى بيت المقدس للزيارة إذا دفعوا الرسم المقرر عليهم من قبل.

وقد فرح بذلك سكان المدينة المقدسة لما يُؤَمِّن لهم بهذا السماح السلطاني من دخل وفير، فأعدوا للسلطان سليم ولجنده مأدبة في الفضاء الواسع حول الصخرة، ووعد بإصلاحات عمرانية وإدارية شتى في بيت المقدس، إلا أن الأجل عاجله قبل تمكنه من فعل شيء يذكر.

وصف أوليا جلبي للقدس:

وفي الفترات اللاحقة والسلاطين التالين عمّرت القدس وتوسعت حتى وصفها التركي الشهير (أوليا جلبي) عام ١٦٧٠م، فمدح خبزها وثمرها وخضرها، ويبدو أنها اشتهرت يومئذ بما تمتلئ به أسواقها من مسك وعطر وبخور ومباخر نحاسية يقول:

(وكان فيها ألفان وخمسة وأربعون دكاناً وستة خانات عظيمة، ومحتسب وأسواق، وثلاثة وأربعون ألف كرم، ورأى (أوليا جلبي) في هذه الكروم زهاء ألف وخمسمائة منظرة، وكان يسكنها ستة وأربعون ألف نسمة أكثرهم عرب مسلمون، وكان فيها كنيس للأرمن وثلاث كنائس للروم وكنيستان لليهود، ومئتان وأربعون محراباً للصلاة، وسبع دور للحديث وعشر دور للقرآن، وأربعون مدرسة للبنين، وستة حمامات وثمانية عشر سبيلاً لماء الشرب، وتكايا كثيرة للمجاورين من أهل العبادة والطرق.

السلطان سليمان القانوني:

وكان مما فعله السلطان سليمان الأول (المعروف بسليمان القانوني) في القدس أنه جدد عمارة سورها ورَمَّم قلعتها، وعمّر عدداً من السبل في مواقع شتى، كما أنه أعاد تبليط قبة الصخرة وترميمها، كما قام بترميم وعمارة جدران المسجد الأقصى وأبوابه، وسد الباب الذهبي، وفتح الباب المعروف باسم باب (ستنا مريم)، وجدد الكاشاني في قبة السلسلة.

كما أن زوجته الروسية (روكسيلانة) عمرت التكيّة المسماة تكية خاصكي سلطان وموقعها في حارة المفتي.

كما أنه هو الذي أنشأ مسجد الطور.

وفي محاولة من السلطان سليمان الأول لفرض الأمن والاستقرار على الطرق الخارجة بين مدن فلسطين فقد عهد بحراسة الدرب السلطاني بين القدس ويافا إلى آل أبي غوش، مقابل أن يحصلوا بعض العوائد من السياح.

وكانت تفرض في عهده رسوم على الحجاج المسيحيين لدى زيارتهم لكنيسة القيامة.

السلطان مراد الرابع:

وشهد عهد السلطان العثماني مراد الرابع (١٦٢٢م) اختلال الأمن فيما حول القدس، مما حدا بالسلطان لبناء قلعة (مراد) على طريق القدس الخليل، وكان يقوم على حراستها دزدار ويتبعه أربعون مسلحاً بالمدافع والعتاد، وكانت القلعة تحوي مسجداً وسكناً للجنود.

القدس مدينة تابعة لإيالة عكا هيناً:

ولم تكن القدس في ذلك العهد من الخلافة العثمانية ولاية مستقلة، بل كانت تابعة لإيالة صيدا وعكا.

وقد قيل إن نابليون بونابرت القائد الفرنسي الشهير لما غزا مصر واحتلها توجه بجيشه صوب فلسطين (١٧٩٩م)، فاحتل غزة ويافا والرملة، وكتب إلى أهل القدس رسائل طلب منهم فيها أن يخضعوا لأوامره فأجابوه:

أنهم تابعون لإيالة عكا، فالذي يحتل عكا ويصدر أوامره منها يخضعون له، وهم لا يريدون أن ينخرطوا في حرب أو ضرب، لأنهم يعيشون في بلد طافح بالأماكن المقدسة. فانصرف نابليون إلى عكا وحاصرها مدة من الزمن، إلا أن واليها أحمد باشا الجزار كان قد تحصن بها وأحكم أسوارها، كما أن المرض والوباء أخذ يفتك في جيش نابليون، فلم يستطع دخول عكا، وعاد مدحوراً...

ولكن القدس إذا كانت قد نجت من براثن نابليون، فإن حكم أحمد باشا الجزار لها ولفلسطين عموماً لم يكن حكماً رحيماً، بل إنها ذاقت من حكمه الأمرّين من كثرة الضرائب وشدة الأوامر، وتجبر الجزار، حتى قيل: إن الأشراف وسادات البلاد باعوا أولادهم في السوق بيع العبيد لدفع ما فرضه الجزار عليهم.

والقدس تتبع ولاية دمشق حيناً آخر:

وبقيت القدس محل أخذ ورد، فقد ألحقها الأتراك فيما بعد (١٨٢٠م) بولاية دمشق، وكان على الشام والٍ اسمه مصطفى باشا وكان ظالماً، فاضطربت الأمور في عهده، وحدثت فتنة في القدس عام (١٨٢٤م) - يقول عارف العارف: ورفض المقدسيون أن يدفعوا للجباة الضرائب ونابذوهم، وكذلك فعل الفلاحون في قراهم، مما دفع الوالي مصطفى باشا إلى تجريد حملة قوامها خمسة آلاف رجل بقيادته نفسه، فلما وصل إلى القدس لم يجد فيها أحداً، لأن أهلها هجروها خوفاً منه وكرهاً لاستقباله، وما عادوا إليها إلا بعد رحيله... وبقيت الاضطرابات سائدة في القدس رغم تدخل السلطان محمود، الذي أمر بفرض هيبة الدولة على البلاد والعباد.

الأمير المصري ابراهيم باشا بن محمد علي:

وما كادت فترة حكم إبراهيم باشا بن محمد علي باشا أن تبدأ عام (١٨٣١م) لتشمل فلسطين بل بلاد الشام كلها، حتى تجددت الاضطرابات نتيجة محاولة إبراهيم باشا فرض التجنيد الإلزامي، وقيامه بجمع السلاح من الأهالي، وسعيه لضبط سلطة الزعماء المحليين وأصحاب الإقطاعات، فحدثت عدة صدامات مسلحة في عام (١٨٣٤م) وما

بعدها أدت إلى نكبات وويلات وثورات وفتن، لم تخل من إراقة الدماء وترويع الآمنين، وبذر بذور الكراهية للحكم الجديد في نفوس السكان...

وقد انسحب إبراهيم باشا من فلسطين وبلاد الشام عام (١٨٤١م) تاركاً وراءه عدداً غير قليل من المصريين الذين استوطنوا القدس وبعض المدن والقرى الفلسطينية الأخرى.

ومما بني في القدس في فترة حكم إبراهيم باشا جانب من القشلاق الكائن عند باب الخليل، وجددت عمارة السراي القديمة، وأنشئت طاحونة الهواء غربي المدينة - وهي أول طاحونة في القدس - كما عمّرت زاوية سميت بالزاوية الإبراهيمية، وعمّرت سلسلة من القلاع لحراسة الطريق بين يافا والقدس.

عودة الحكم العثماني وتطوير القدس:

وعاد العثمانيون إلى حكم القدس، وقد جُدّد بناء المسجد الأقصى في السلطان عبدالمجيد بن السلطان محمود الثاني، وأنفق في ذلك أموالاً طائلة بلغت عشرين ألف ليرة تركية ذهبية.

وقد زاد عدد سكان القدس زيادة ملحوظة، حتى بدأوا بالاستيطان خارج أسوار المدينة ابتداء من (١٨٥٨م).

ويقول المؤرخون إنه في عهد السلطان عبدالعزيز (عام ١٨٦٧م) وما بعدها برز الاهتمام بخدمات الطرق والشوراع في القدس، فأُنشئ الطريق الموصل من القدس إلى يافا، ومن القدس إلى نابلس، كما تم رصف الشوراع الداخلية في مدينة القدس وأسواقها بالبلاط - وكان رصفها جيداً وهو الذي نراه في معظم شوارع المدينة في يومنا هذا - ومنع إنشاء المصاطب أمام الدكاكين، وعرف الناس لبس الطربوش، وأنفق السلطان عبدالعزيز ثلاثين ألف ليرة تركية على عمارة وزخرفة المسجد الأقصى، كما بنى المسجد العمري على مقربة من كنيسة القيامة.

وفي عام (١٨٩٢م) أنشئت السكة الحديدية بين يافا والقدس، كما أُنشئ آنذاك المستشفى البلدي في القدس.

وفي عام (١٩٠٩م) أُنشئ برج عالٍ على السور فوق باب الخليل وبجواره سبيل ماء.

وكإجراء لفرض احترام المسجد الأقصى على زواره منع عام (١٩٢٥م) إدخال التلفون وأجهزة اللاسلكي.

زيارات الزعماء النصارى وتنافس على القدس:

وقبل نهاية القرن التاسع عشر الميلادي زار القدس الإمبراطور الألماني غليوم (١٨٩٨م)، ولما أراد دخول المدينة فتحت له ثغرة في سورها - بجانب باب الخليل - تَسَع موكبه وحاشيته المحيطة به دون تفريق شملها.

ويلاحظ في تلك الفترة أنه فتحت عدة قنصليات للأجانب مما يدل على تنافس الدول الأجنبية وصراعها.

وما كاد القرن العشرين يطل في أوانه حتى بدأت رياح التغيير تهب على الدولة العثمانية، فحدث انقلاب عام (١٩٠٨م) الذي أُعلن على أثره الدستور، وتشكل مجلس المبعوثان، الذي مَثّلَ فيه سنجق القدس ثلاثةُ هم: سعيد الحسيني وروحي الخالدي وحافظ السعيد.

الوضع الإداري والمالي والإجتماعي للقدس:

ويقدم الكاتب الباحث عارف العارف في كتابه (تاريخ القدس) صورة للوضع الإداري والاقتصادي والاجتماعي لمدينة القدس في تلك الفترة فيقول:

إن قطاع القدس يحكمه متصرف يرتبط مباشرة بوزير الداخلية في الآستانة العاصمة، هذا في الشئون السياسية.

وأما من حيث الشئون المالية، فقد كانت هذه تدار من قبل وزارة المالية.

وكان قاضي القدس على عهد الأتراك العثمانيين الكل في الكل من حيث السيطرة والحكم في جميع الشئون الإدارية والمذهبية والحقوقية والجزائية.

وكان معظم الموظفين من أبناء البلاد خلا الحاكم الأكبر ورؤساء بعض المصالح العمومية فقد كانوا من الأتراك، والنفوذ كله بيد الزعماء والأفندية...

بلدية القدس الوليدة:

وكانت للقدس بلدية محدودة الموارد عند إنشائها عام (١٨٦٣م) لا تتعدى الخمسمائة ليرة عثمانية.

ثم انتظمت إيراداتها وارتفعت إلى عشرة آلاف ليرة عثمانية عام (١٩٠٨م).

وكان في القدس عام (١٨٧٦م) اثنان وعشرون شرطياً كلهم مسلمون.

وكان قاضي المسلمين بالقدس هو الذي يحدد الأسعار، وكان الناس في راحة وهناء بال أكثر من أي زمان مضى، فالمساكن متوفرة رخيصة الأسعار، وكذلك قل عن أسعار الحاجات.

وكان في القدس وفيما حولها من الأراضي في العهد التركي مساحات واسعة من أشجار الزيتون، وكان الزيت فيها كثيراً، حتى إن سكان المدينة المقدسة اضطروا في سنة من السنين أن يريقوا الزيت القديم، ليتمكنوا من إيجاد أوعية كافية للزيت الجديد.

وكان الصابون المقدسي يصدر إلى مصر والقمح إلى إنجلترا، وكذلك يصدر منها السمسم وغيره من الصادرات التي اشتهرت بها.

راية الجهاد تمر بالأقصى:

وفي عام (١٩١٤م) أعلن السلطان محمد رشاد الخامس - بوصفه خليفة للمسلمين - الجهاد الأكبر ضد انجلترا وحلفائها، وعمدت الحكومة العثمانية إلى استنفار المسلمين وتحريك عواطفهم الدينية، فجرى احتفال كبير في المدينة المنورة، أُخرجت على أثره راية للجهاد، وسمّيت الراية النبوية، سارت إلى دمشق لتبارك الجيوش المسلمة.

ثم انتقلت منها إلى بيت المقدس فوصلت في (٢٠/١٢/١٩١٤م)، وأقيم احتفال كبير في الساحة المحيطة بقبة الصخرة برئاسة والي الشام جمال باشا، وختم الاحتفال بإقامة الصلاة في المسجد الأقصى ووضعت الراية هناك مؤقتاً تمهيداً لإخراجها في اليوم الذي سيزحف فيه الجيش على مصر لتحريرها من الإنجليز.

ولكن سارت الأمور على غير ما يشتهي العثمانيون، فزالت دولتهم، وأُلغيت الخلافة، وانتصرت إنجلترا، وكانت القدس من أوائل ضحاياها في بداية الحرب العالمية الأولى.

بيت المقدس... في رحلة الشيخ النابلسي

تمهيد:

عبدالغني النابلسي عالم جليل وإمام قدوة وعلم مشهور. هو عبدالغني بن إسماعيل بن عبدالغني النابلسي - من علماء الحنفية - ولد ونشأ في دمشق، رحل إلى عدة بلدان، ثم استقر بدمشق إلى أن توفي. كان فقيهاً متبحراً مشاركاً في أنواع من العلوم ومكثراً من التصنيف، اشتهر بتآليفه في التصوف.

من تصانيفه: (رشحات الأقلام في شرح كفاية الغلام) في فقه الحنفية، ورسالة (كشف الستر عن فرضية الوتر) و (ذخائر المواريث في الدلالة على موضع الأحاديث).

هكذا عرّفت الموسوعة الفقهية بهذا الرجل الكبير الذي عاش ما بين عامي (١٠٥٠ ١١٤٣هـ) ومات عن ثلاثة وتسعين عاماً.

الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية وأهميتها:

والذي ساقنا إلى الحديث عن هذا الرجل كتاب ألفه عن رحلة من رحلاته الكثيرة، وهو كتاب: (الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية)، وهذا الكتاب لم يطبع بعد فيما أعلم، وإنما وقفت على نسخة منه مكتوبة بالآلة الكاتبة القديمة نقلاً عن نسخة بالمكتبة الخالدية بالقدس الشريف.

وفي نظري فإن للرحلة النابلسية إلى بيت المقدس أهمية خاصة من حيث أنها أرّخت لفترة زمنية قريبة العهد (شعبان ١١٠١هـ) أي أواخر الدولة العثمانية، وهي الفترة التي سبقت الفترة المعاصرة، وأثبتت تفاصيل دقيقة لتاريخ وواقع المنطقة الممتدة من دمشق الشام - منطلق الرحلة البرية - إلى القدس الشريف وما جاورها، وما حَفَلت به هذه المنطقة من آثار إسلامية كثيرة، سواء كانت خانات على الطريق واستراحات، أم مساجد ومدارس، أم مقابر ومزارات، أم حوادث وذكريات، يكتب ذلك كله عالم رحالة سيال القلم شاعر الإحساس غير متعجل في تنقله... إن كتاب الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية - لولا ما شحنه به النابلسي رحمه الله من أذواق وأشعار وتوجه صوفي نوافقه في بعضه ولا نوافقه في أكثره - كتاب مهم من الناحية الجغرافية والتاريخية والوصفية، يستحق من هذه الوجهة أن يطبع مختصراً مهذباً.

أعمال بيت المقدس وحدودها القديمة:

وفي غمرة سياق النابلسي لفضائل بيت المقدس وبيان أنها هي الباعث له على الرحلة، حدد ما أسماه (عمل بيت المقدس) الذي يسوغ لقضاة القدس الحكم فيه (أي الحدود البلدية لمدينة القدس وقراها).

فقال: فمن القبلة عمل بلد الخليل يفصل بينهما قرية سيعير التابعة للقدس، ومن الشرق نهر الأردن المسمى بالشريعة، ومن الشمال عمل مدينة نابلس يفصل بينهما قرية سنجل وعزون التابعتين للقدس، ومن الغرب من جهة الرملة قرية بيت نوبة التابعة للقدس، ومما يلي غزة قرية عجور وهي تابعة لغزة... وهذا تحديد مهم لمعرفة الحدود الإدارية قديماً للمدينة المقدسة.

انطلاق الرحلة من دمشق إلى القدس:

بدأ النابلسي رحلته إلى القدس من دمشق وبصحبة بعض تلامذته ومريديه وخواصه بكرة نهار الإثنين السابع عشر من جماد الآخرة عام (١١٠١هـ) متجهاً صوب داريا فخان الشيخ، ثم جسر نهر الأعوج، ثم سعسع فالقنيطرة فقبة الشيخ ندا فجسر يعقوب أو جسر بنات يعقوب الذي يصفه بقوله:

فوصلنا إلى أول ذلك الجسر المبني بالأحجار، وجانباه من النبات في بهجة واخضرار، ومشينا على ذلك البلاط المبسوط، وسلكنا في تلك الدرجات المبنية والخطوط، ومسافة هذا الجسر في الحساب مقدار ساعة فلكية بالسير الوسط.

ثم وصل إلى تكية عيون التجار فقرية جلمة فجنين فيعبد فعرّابة فقرية فحمة ثم عجة ثم الرامة ثم اللاوية فبرقة فسبسطية فنابلس حيث استقبل بحفاوة تليق به ومقامه، ثم ارتحل منها باتجاه القدس، فمر بقرية عُوْرتا فجمّاعين بلد أجداد النابلسي بني قدّامة، ومنها انتقل إلى مُرْدي فعقبة اللُبَّن فسنجل فالبيدة فالعقبة التي أشرف منها على القدس الشريف...

وهنا عند العقبة تذكر الإمام ابن حجر العسقلاني الذي جادت قريحته عندما تجاوز العقبة المطلة على بيت المقدس وقد سعى إليها من بعيد فهاجته الأشواق فقال:

إلى بيت المقدس قد أتينا ... جنان الخلد نزلاً من كريم
قطعنا في مسافته عقاباً ... وما بعد العقاب سوى النعيم

المدرسة الجراحية على مشارف الأسوار:

ويعرج النابلسي قبل دخوله أسوار بيت المقدس فيصف المدرسة الجراحية نسبة إلى واقفها الأمير حسام الدين بن شرف الدين عيسى الجراحي، أحد أمراء الملك صلاح الدين الأيوبي، يقول: ولها وقف ووظائف مرتبة، ثم مر بالزاوية الأدهمية ومنها دخل القدس من جهة الشمال.

سور القدس الشريف وأبوابه:

وكان دخوله القدس من باب العامود الذي يصفه بقوله: هو باب كبير عظيم واسع كأنه قطعة من جلمود. ويضيف واصفاً السور المحيط بالقدس: وسور بيت المقدس سور جديد متين مشيد قوي الأركان عظيم البنيان، يحيط بالبلاد كلها، وعرها وسهلها، مبني بالمشيد والحجر المنحوت، بناه السلطان سليمان العثماني.

ولمدينة القدس عشرة أبواب منها هذا الباب وهو من جهة الشمال التي فيها أيضاً باب الداعية، وباب دير السرب، وباب الساهرة، ومن جهة القبلة باب حارة المغاربة، وباب صهيون المعروف بباب داود، ومن جهة الغرب باب صغير بلصق دير الأرمن، وباب المحراب المعروف بباب الخليل، وباب الرحبة، ومن جهة الشرق باب الأسباط... يقول النابلسي:

فأول ما دخلنا من باب العامود وجدنا في جانب الشمال مزاراً لطيفاً له مسجد ومحراب وفيه ضريح الشيخ لؤلؤ غازي.

ثم يدخل الحرم القدسي فيدخله من باب القطانين الذي هو واحد من أربعة عشر باباً للمسجد الأقصى فذكرها جميعاً.

المدرسة السلطانية:

ثم انتقل إلى المدرسة السلطانية التي نزل فيها مع حاشيته، ويصفها بقوله:

وحين أقبلنا على المدرسة المذكورة رأينا باباً عظيماً مصنوعاً من الأحجار المنحوتة المحفورة، وعليه رواق المدرسة مبني بالأعمدة الرخام والأحجار الكبار العظام حتى صعدنا نحو خمسين درجة من الدرجات الكبار، وهو درج ملفوف مشترك مع درج المنارة المشتملة من المحاسن على صنوف، وفي الدرج شبابيك كبار من النحاس مطلات

على الحرم، ثم دخلنا فوق الدرج إلى ممشى صغير مبلط يؤدي إلى باب بمصراعين وراءه قاعة كبيرة مفروشة وهي متقنة البنيان، تشتمل على أربعة إيوانات وسقفها مزخرفة مصبوغة، وحيطانها معمولة بالرخام والحجر السماقي وأنواع الفصوص والأحجار الدقاق... ويتابع وصف إيواناتها وشبابيكها ومطبخها ومنافعها حتى يختم ذلك بقوله:

وعلى الجملة والتفصيل فهي مدرسة عظيمة ذات قدر جليل لم يُبْنَ في الدنيا مثلها، وهي من بناء السلطان الأشرف قايتباي الشركسي، وتحتها مسجد الحنابلة، وقبالته بحرة كبيرة مربعة الشكل يجري إليها الماء من نوفرة في وسطها صغيرة، وبالقرب منها قبة صغيرة حولها أنابيب يجري فيها الماء، فمن أراد الطهارة يفتل أنابيبها فتمسك الماء وترسله.

قبة الصخرة والمسجد الأقصى العام:

وزار النابلسي في مدينة القدس قبة الصخرة ووصفها تفصيلاً للمبنى والمغارة والصخرة وقال: وفي داخل المغارة قناديل كثيرة يوقدونها بين العشائين، ويفتحون الباب للزائرين كل ليلة.

كما عرّج على وصف معالم المسجد الأقصى كالقباب والمحاريب والأبواب وغير ذلك كالمزولة التي قبالة قبة الطومان، وهي (أي قبة الطومان) مبنية بالأحجار، وفيها بلاطة كبيرة منصوب عليها لوح من الحديد يعرف بظله مقدار الماضي والباقي من ساعات النهار، يسمّيه بعض المزوّرين هناك لسان الكذاب.

الكأس ومصلى المسجد الأقصى:

كما وصف الكأس الحجري القائم قبالة أبواب المسجد الأقصى وجريان الماء من نافورته إلى بحيرته ومن ثم إلى الصهريج الكبير، ووصف كذلك المسجد الأقصى (المصلى الجامع) وأعمدته ومحرابه والمقصورة التي فيه، ودكة المؤذنين القائمة على عُمُد الرخام وهي في غاية الحسن، وبداخل هذا الجامع في آخره من جهة الشرق مكان معقود بالحجارة وبه محراب يقال له جامع عمر، لأنه بقية بنائه الذي جعله عند الفتح...

ثم ذهبنا - يقول النابلسي - إلى مهد عيسى وهو مسجد تحت الأرض بجانب سوق المعرفة في ركن المسجد الأقصى من جهة الشرق، ينزل إليه بدرجات، فيه صورة مهد من الرخام.

بدايات توحش الشر من الفرنج واليهود:

وفي إشارة فريدة من النابلسي إلى إغلاق بعض أبواب المسجد الأقصى وهما بابا الرحمة والتوبة قال: والذي ظهر لي أن سبب سدهما خشية على المسجد والمدينة من العدو المخذول، فإنهما يُنْهيان إلى البرية، وبلاد بيت المقدس قد امتلأت الآن (١١٠١هـ) من الفرنج واليهود، فكانت الحكمة سد باب الرحمة والتوبة عنهم.

وصف حماس عربي في القدس:

ويصف عبدالغني النابلسي في رحلته إلى بيت المقدس حماماً عربياً فيه فيقول:

ذهبنا مع الجماعة إلى حمام لطيف البنا، ظريف الجوانب والفنا، عذب المياه، طيب الأفواه، فدخلنا إليه بعد العشاء الأخيرة مع جماعتنا وهاتيك العشيرة، ولم يدخل غيرنا من الأجانب، فانشرحت صدورنا في هاتيك الأرجاء والجوانب، وأطلقت في داخله مجامر البخور، وجيء بماء الورد ورش على هاتيك الوجوه والنحور، ثم وردت فناجين القهوة، ونحن في أكمل مسرة وأتم حظوة، حتى أخذنا من ذلك بالحظ الوافر، فخرجنا إلى ذلك المكان الوسطاني، بعدما تنعّم منا الوجه الجسماني والروحاني، فجيء بأواني السكر في ذلك الأوان...

مقبرة مامّلا:

كما وصف النابلسي مقبرة (مامَلاّ) وهي بظاهر القدس من جهة الغرب، وأصل تسميتها (مأمن الله) قبل التحريف، وفيها الكثير من الأولياء والشهداء والصالحين، وهي أكبر مقابر البلد، كما أن فيها حوش البسطامية نسبة إلى أتباع أبي يزيد البسطامي العالم الصالح، قال الحنبلي: ومعظم أرض تربة مأمن الله من الصخور الصم وحفر القبور فيه مشقة زائدة. وقد عدد النابلسي شعراً في قصيدة له أسماء كثير من العلماء والصالحين اعلام الأمة المدفونين في تلك المقبرة.

وزار النابلسي قبر موسى عليه السلام عند الكثيب الأحمر خارج مدينة القدس جهة الشرق، وقد بني حوله بالجص والحجر الأغبر، وعليه قبة بناها الملك الظاهر سنة (٦٦٨هـ)، ثم زاد عليها غيره ووسعوا المسجد وبنوا له منارة وذلك في (٨٨٠هـ).

طور زيتا (سينين):

وزار أيضاً طور زيتا وهو جبل عظيم شرقي بيت المقدس مشرف على المسجد الأقصى وحرم الصخرة الشريف، وقبل الوصول إليه مرَّ بقبر السيدة مريم أم عيسى عليهما السلام، وطور زيتا هو - كما يقول بعض المفسرون - هو المقصود بقوله تعالى: (والتين والزيتون وطور سينين)، فالتين مسجد دمشق، والزيتون طور زيتا، وطور سينين حيث كلم الله موسى، والبلد الأمين مكة المكرمة.

وأورد بعض من دفن فيه، كالصحابي الجليل سلمان الفارسي والشيخ محمد العلمي...

المولوية والأدهمية ومقبرة الساهرة:

وأورد النابلسي وصفه لتكية المولوية يقول: صعدنا في الدرج ودخلنا إلى الطبقة الأولى فإذا هي ساحة واسعة جوانبها مرفوعة شاسعة، فصعدنا في الدرج الثاني إلى ساحة أخرى أصغر من الأولى، حتى صعدنا في الدرج الثالث إلى ساحة أصغر منها، وجميع ذلك مبني بالأحجار والعقود المتينة من الصخور الكبار، فدخلنا إلى ديوان واسع الأطراف وحوله الرواقة المصنوعة للجلوس، وهناك الفسقية الصغيرة من الرخام الأبيض المنحوت، وقد جرى فيها الماء، وجميع ذلك الديوان مسقوف بالقبو المعقود من الأحجار.

وكذلك وصف الزاوية الأدهمية التي زارها وهي كهف عجيب تحت الجبل في صخرة عظيمة، ويسميها البعض مغارة الكتان.

كما عرج على مقبرة الساهرة، وهي البقيع الذي إلى جانب طور زيتا من جهة الغرب، ظاهر مدينة القدس من جهة الشمال، وبها قبور جماعة من الصالحين، والمقبرة مرتفعة على جبل عال.

هذه بعض المعالم التي يطالع بها عبدالغني النابلسي قراء رحلته (الحضرة الأنسية في الرحلة المقدسية)، وهناك الكثير الكثير مما حوته من الإشارة إلى المدارس والمقابر والمشاهد والمساجد ومعالم القدس وما حولها، مما مرَّ به في تلك الرحلة التي ختمها بقصيدة من شعره الكثير يسرد فيها الأحداث والأسماء والأماكن بصورة مشوقة مرجوزة.

دليل المسجد الأقصى بكافة معالمه

١) المصلى الجامع وقبة الصخرة :

تمهيد:

تبلغ المساحة الكاملة للمسجد الأقصى نحواً من٩٠٠ ،١٤٠ م٢ وبذلك يكون من أكبر مساجد الأرض بعد الحرمين الشريفين اللذين وسعّا وضمت اليهما أخيراً إضافات وساحات شاسعة جداً...

وهذه المساحة الكبير للمسجد الأقصى يحيط بها سور من جميع جهاتها وهي مساحة فضاء مكشوفة تضم مجموعة كبيرة من الابنية مختلفة الاسماء والاستعمالات والاعمار منها المصلى الجامع المسقوف الواقع في صدر المسجد الأقصى ويسميه الناس تجاوزاً المسجد الاقصى نظراً لأن فيه محراباً ومسجداً وله قبة ومنه الى باقي الساحة الفضاء تمتد صفوف الصلاة.

نقاط رئيسة في معالم الأقصى:

وتتفق كلمة العلماء قاطبة على أن تلك المساحة الكبيرة هي المسجد الاقصى المقصود بالاسراء اليه ومضاعفة الصلاة فيه وشد الرحال نحوه وفضل المرابطة فيه وفيما حوله، وأن فيه إضافة إلى المصلى الجامع مسجد قبة الصخرة ومآذن أربعة لاصقة بالسور وقباباً ومصاطب وأسبلة وآباراً وغير ذلك.

كما تتفق كلمة العلماء كذلك على أن المسجد الأقصى ثاني مسجد وضع في الأرض بعد المسجد الحرام من حيث ابتداء البناء، فهو من اقدم آثارالأرض المعمارية بعد الكعبة المشرفة.

روى مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال: (سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع على الارض؟ قال: المسجد الحرام. قلت: ثم أي: قال المسجد الاقصى. قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون عاماً).

كما نذكر بأن أسماء المسجد الأقصى عديدة منها: المسجد الاقصى، وبيت المقدس، والبيت المقدس.

وإذا كنا لا ندري عن الزمن الذي ابتدأ فيه بناء المسجد - أول مرة - مع الجرم بأنه عقب بناء الكعبة المشرفة، فإننا نؤكد أن الأنبياء من قبل بنوا المسجد وتعاهدوه وعظموه منذ سالف العصر وقديم الزمان، ابتداء من إبراهيم ولوط عليهما السلام إلى خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم.

وسنحاول فيما يلي أن نصف معالم المسجد الاقصى الكبير معلماَ معلماً فنقول وبالله التوفيق:

١) المصلى الجامع: وهو الذي يطلق الناس عليه اسم (المسجد الاقصى) وهو بناء كبير مستطيل الشكل يقع جنوبي ساحة المسجد الأقصى يرجع تاريخ بنائه الأولى (٩٠٩٧هـ) إلى عهد عبدالمللك بن مروان وابنه الوليد الخليفتين الأمويين اللذين أولياه ما يستحقه من اهتمام وما عرف عنهما من ولع بالعمارة واتقان لها وكان بناؤه الأول كما يقول الاستاذ عبدالرحيم ابراهيم: يتكون من بائكات، والبائكة صف من العقود المحمولة فوق أعمدة رخامية تتجه من الشمال إلى الجنوب، وما زال جزء من هذه البائكات قائماً للآن، وارتفاع اعمدته مع تيجانها عن سطح الأرض خمسة أمتار أما ارتفاع قمة العقد عن سطح الارض فيبلغ ٩،٢٠م، وفوق كل ثلاثة عقود من البوائك الرئيسية خمس فتحات على هيئة عقود.

وكان طوله من الشمال إلى الجنوب ٥٠١٨م، وعرضه كما خمنته بعض المصادر ٥٥متراً.

وقد تعرض هذا البناء الأول إلى زلزال ذهب به إلا بعض البائكات، وكان ذلك في أوائل الدولة العباسية، فأعاد أبو جعفر المنصور وولاته الذين كلفهم بذلك بناء المسجد وأنفق في بناءه الكثير من المال خاصة، حتى كسى أبواب المسجد بألواح الذهب والفضة.

ثم إن الخليفة المهدي ١٦٣هـ أعاد بناء هذا المصلى الجامع بالمسجد الأقصى على نحو أقوى وأضخم، وجعل له ٢٦ باباً منها خمسة عشر باباً في الحائط المواجه للقبلة أكبرها الأوسط المسمى بالباب النحاسي الكبير، وفي الحائط الشمالي جعل أحد عشر باباً.

وقد غطيت البلاطة الوسطى في المسجد الأقصى بسقف جمالوني ضخم كالذي في جامع بني أمية، وهذا السقف يحمل جزء منه قبة من الخشب، جلدت من الخارج بأفرخ الرصاص، وموقع القبة بجوار المحراب. ورواق القبلة الذي تحت السقف الجملوني يشمل المسجد كله.

وقد زاد المهدي في طول المسجد الأقصى وعرضه فجعل طوله ١٠٣ متراً وعرضه ٦٩ متراً، وقد أعاد بناء المسجد الاقصى الخليفة الفاطمي الظاهر (٤٢٦هـ) بعد زلزال أوهاه ولكنه احتفظ له بالنمط المعماري العباسي، ولو أنه صغره قليلاً.

نظرة فنية فاحصة:

والمسجد الأقصى الحالي في نظر المختصين عمل معماري يجمع بين البساطة والجلال في صورة تندر في غيره من المساجد فعلى الرغم من أن بناء جدرانه ليس من السماكة بمكان، وخاصة تلك الجدران الحاملة للقبة الكبرى، إلا أن جزءاً كبيرا من فخامة المسجد يرجع إلى سعة بيت الصلاة، بينما يرجع الجزء الآخر من الجمال - كما يقول الأستاذ عبدالغني محمد عبدالله - إلى طبيعة الزخرفة المنتشرة في المسجد بكثرة وشمول.

فالفسيفساء الفن البيزنطي الشهير تملأ الحوائط والقبة من الداخل، بينما يستر القاشاني المزخرف جدران المسجد إلىارتفاع المحراب، في الوقت الذي تحتل فيه التفريعات النباتية الخارجة من المزهريات والتي تنثني وتتلوى أو تأخذ شكلاً حلزونياً جانباً هاماً من الزخرفة. هذا إلى جانب الزخرفة بأوراق الأكنتس ويتمم جمال الزخرفة أشرطة الكتابات المنتشرة في المسجد الاقصى بالخط النسخي أو الكوفي.

وشملت الزخرفة في المسجد الأقصى ببيت المقدس أعمدة المسجد والأربطة الخشبية بين العقود والقبة من الداخل، وانضمت إليها أيضا الشبابيك الملونة... كل ذلك يعطي المسجد رونقاً وبهاء فريدين.

وقد تعرض المسجد بعد بناء الملك الظاهر لعدة مؤثرات من أهمها: الحملات الصليبية التي غيرت بعض معالمه، فاتخذ الصليبيون جزءاً من كنيسة، وجزءاً آخر مسكناً للفرقة الداوية المسماة فرسان الهيكل، ومستودعاً للأسلحة والذخائر، بل عمدوا إلى المصلى الملحق بالمسجد الأقصى والمسمى بالمصلى المرواني فجعلوه اسطبلاً لخيولهم.

منبر الأقصى الفريد وجريمة اليهود المروعة:

ومن أجمل ما كان في المسجد الأقصى وأروعه ذلك المنبر الذي أعده الملك نور الدين محمود بن زنكي سنة (٥٦٠هـ) وأتمه ابنه الملك اسماعيل (٥٧٠هـ) فقد أمر نور الدين بصنع منبرين: أحدهما للجامع الأموي الكبير في حلب، والآخر للمسجد الأقصى في القدس. وكانت القدس آنذاك تحت حكم الصليبين.

وقد بدأ أمهر النجارين في حلب بصنعه وإعداده في بضع سنين حتى اكتمل قطعة فريدة من نوعها كما يقول الاستاذ طه الولي من حيث الدقة والجمال والزخرفة.

ويقال: بأن هؤلاء الصناع حرصوا على إتمام هذا المنبر من أوله إلى آخره دون أن يدخلوا فيه أي مادة من غير الخشب.

ولم يتمكن المسلمون من نصب هذا المنبر في المسجد الأقصى إلا في عهد صلاح الدين الذي افتتح القدس وطهرها من رجس الفرنجة عام ٥٨٣هـ.

يقول ابن الاثير واصفاً ذلك: وأمر صلاح الدين عندما دخل المسجد الأقصى وأزال معالم النصرانية بأن يعمل له منبر، فقيل له: إن نور الدين محموداً كان قد عمل منبراً بحلب أمر الصناع بالمبالغة في تحسينه وإتقانه وقال: هذا قد عملناه لينصب بالبيت المقدس. فأمر صلاح الدين بإحضاره، فحمل من حلب ونصب بالقدس، وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة.

وقد وقعت الفاجعة الكبرى عندما أقدم اليهود على إحراق المسجد الأقصى جملة في عام ١٩٦٩م، فأتت النيران على جزء كبير منه.

وكان أهم ما أتت عليه نيران الحقد اليهودي ذلك المنبر البديع الفريد الذي كان آية في الجمال والاتقان، وشارة من شارات العز والفتح والنصر.

ويضيف الاستاذ طه الولي: والفاجعة بالمنبر الشريف لم تنته بها المأساة. ذلك أن الحريق الغشوم، تطاول بألسنته الملتهبة إلى المحراب الذي طهره صلاح الدين، وجدد بناءه بما يتفق وروعة المنبر الذي في جواره، فجاءت النيران لتتهاوى الحجارة التي حملتها كواهل المجاهدين، وعطرتها أنفاس المصلين من الأبطال المرابطين.

٢) مسجد قبة الصخرة:

وقبة الصخرة اشهر قباب المسجد الاقصى وعددها سوى قبة الصخرة عشر قباب سوف نذكرها فيما بعد.

وهي أقدم أثر في العمارة الإسلامية، كما أنها تعتبر عملاً فنياً مميزاً فريداً من نوعه، زائداً على أمثاله في الفخامة والبهرجة والاتقان، فَتَنَ كل من نظر اليه سواء كان زائراً أم دارساً في كافة العصور، حتى قال بعضهم: إنه درة الفن المعماري الأموي. وقال

المستشرق الأنجليزي (هايتر لويس) في كتابه (الأماكن المقدسة): إن مسجد الصخرة بلا شك أجمل الأبنية الموجودة فوق البسيطة، لا بل إنه أجمل الآثار التي خلدها التاريخ.

وصف قبة الصخرة ومعلومات عامة عنه:

ومسجد قبة الصخرة بدأ بناؤه عام٦٦ هـ بأمر الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان، وانتهى عام ٧٢هـ. ومن أجل النفقات الجمة التي تكلفها البناء رصد الخليفة خراج مصر لمدة سبع سنوات من أجل اتمامه.

والصخرة التي يحف بها المسجد صخرة قيل في فضلها الشيء الكثير قديماً قبل الإسلام وبعده، وهي شكل غير منتظم من الحجر، قريب من نصف دائرة، أطوالها ٥٦ قدماً طولاً، و٤٢ قدماً عرضاً، وترتكز من أحد جوانبها على الارض، بينما ترتفع من الجانب الآخر، ليتكون تحتها كهف مربع تقريباً، طول ضلعه ٤. ٥ متر، بعمق ١،٥ متر وهو يتخذ كمصلى في سقفه ثقب أو فتحة قطرها متر واحد تقريباً.

ومسجد قبة الصخرة مثمن الشكل، طول كل ضلع من الأضلاع الثمانية ٢٠،٥ متراً، وارتفاعها ٩،٥ متراً، وسمكها١،٣٠ م.

وفيه أربعة أبواب في الإتجاهات الاصلية، أمام كل باب مدخل مكون من سقيفة ذات سقف برميلي في الوسط وجنب مسطح.

وتحمل الأعمدةُ التي تحف بالصخرة داخل المسجد وعددها ١٦ عموداً ومعها أربعةُ دعائم القبةَ الشهيرة التي تربطها بالأعمدة رقبة مستديرة بها ١٦ شباكاً.

والقبة هذه عبارة عن قبتين متراكبتين: داخلية وخارجية، يتكون كل منهما من ٣٢ ضلعاً من الخشب على شكل القوس وفص البرتقال، ويربط بين تلك الأقواس قرص في الأعلى، وهناك مسافة بين القبتين يمر فيها الذين يوكلون بنظافتها.

وتغطي القبة الخارجية ألواح من الرصاص ثم الواح من النحاس الاصفر اللماع.

وقطر القبة الداخلية ٢٠ متراً، وارتفاعها ٥و٢٠ متراً، ومن الرقبة التي تحمل القبة إلى الجدار الخارجية المثمنة يمتد سقف خشبي مسطح يميل الى الخارج بميل يتماشى مع ميل جمالون المطاف الداخلي حول الأعمدة التي تحيط بالصخرة، وتغطي السقف الخشبي طبقة من الرصاص.

وبين الأعمدة التي تحمل القبة من الداخل وبين الجدران الخارجية مطافان: داخلي قريب من الصخرة، وخارجي وراءه.

زخرفة لا حدود لها:

والحديث عن زخرفة مسجد الصخرة لا نهاية له. فليس فيه حائط أو سقف أو عمود أو تاج أو عقد إلا وهو ينطق بالإبداع بأفصح لسان.

فعلى سبيل المثال فالجدران الخارجية كلها ملبسة بالرخام الأبيض اللامع إلى ارتفاع النوافذ، ثم تغطى بعد ذلك بترابيع الفسيفساء ذات البريق الزجاجي، والقاشاني التركي،
فإذا ما ارتفع البصر إلى القبة النحاسية المذهبة - التي هي أوضح وأظهر معالم مدينة القدس - ووقعت عليها أشعة الشمس تلألأت المنطقة حولها ببريق عجيب لا مثيل له.

أما الزخرفة الداخلية في مسجد الصخرة في المسجد الاقصى في بيت المقدس فيصفها الاستاذ عبدالغني محمد عبدالله فيقول:

كل حوائط المثمن ودعائم وأعمدة المثمن الأوسط والأسطوانة مجلدة بالرخام وزخرفة فوق ذلك بالفسيفساء الملونة التي تجمع كثيراً من الألوان: البنفسجي، الأسود، الأحمر، الرمادي، الأزرق، الأخضر، الفضي الذهبي، مكونة اشكالاً مختلفة من الأوراق النباتية والثمار والأشجار والعناقيد وأوراق الاكنتس وفروع تلتوي وتنثني حلزونية.

ومع هذه النقوش هناك رسوم ونقوش على شكل آنية الزهور وقرون الحياة ورسوم الأهلّة والزهور والحلي، مع أشرطة كتابات كوفية ونسخية، وزخارف هندسية في تناسق بديع وتجانس رائع.

ولا تعود أهمية قبة الصخرة إلى ما فيها من جمال وما تثيره من ذكريات فقط، بل كذلك لمحافظة هذا الأثر المعماري الرائع على روحه وطابعه العام، وبقاء واستمرار عناصره وأبعاده المعمارية الرئيسية الاصلية منذ بنائه كما هو، دون زيادة أو نقصان إلى اليوم.

٢) القباب والأسبلة والآبار :

٣) القباب:

يوجد في ساحات المسجد الأقصى - عدا قبة الصخرة - عشر قباب تعتبر من المعالم البارزة فيه، وهي كما أوردتها لجنة فلسطين الخيرية في الهيئة الخيرية الإسلامية في كتابها (نداء من الأقصى):

أ) قبة السلسلة:

وهي منسوبة إلى ما اشتهر عند كثير من العلماء من أن داود عليه السلام علق سلسلة لا تصل إليها إلا يد صاحب الحق، أما يد الظالم أو الغاصب فلا تصل إليها - كما يقول ناصر خسرو - وتقع هذه القبة شرقي مسجد صخرة بيت المقدس على بعد بضعة أمتار من الباب المعروف بباب داود، وفيها صفان من الأعمدة: صف من الخارج فيه أحد عشر عموداً، وآخر من الداخل فيه ستة أعمدة. يقول ناصر خسرو:

وهي مفتوحة من جميع الجوانب عدا جانب القبلة فهو مسدود حتى نهايته، وقد نصب عليه محراب جميل. والذي بنى هذه القبة عبدالملك بن مروان، ويعتقد البعض - دون جزم - بأن عبدالملك بناها لتكون نموذجاً يسير عليه البناؤون.

وقد جددها وزخرفها بالفسيفساء الملك الظاهر بيبرس (٦٦١هـ)، ثم رممها الأتراك وكُسِيَتْ بالقاشاني.

وقد وصفها النابلسي في كتابه النفحة الأنسية في الرحلة القدسية بقوله: هي قبة ظريفة مكشوفة من جميع جوانبها بمنزلة الخيمة الكبيرة المثمنة، مرتفعة على أعمد الرخام، وفي وسطها سلسلة مدلاة، وعدد أعمدتها سبعة عشر عموداً غير عمودي المحراب، وبين العمود والعمود نحو الذراعين.

ب) قبة المعراج:

وهي التي يقال إن معراج النبي صلى الله عليه وسلم بدأ عندها، وتقع غربي مسجد الصخرة، وهي - كما يقول الشيخ عبدالغني النابلسي - قبة مستديرة الجدران لها باب يتوصل منه إلى داخلها مبنية بالرخام، ولم يعرف من الذي بناها أول مرة، ولكن الذي أعاد بناءها على شكلها الحالي مثمنة الأضلاع فيها ثلاثون عموداً من الرخام الأمير

الأنجيلي متولي القدس عام (٥٩٧هـ)، ولها باب من الجهة الشمالية والمحراب من الجهة الجنوبية.

ج) قبة النبي (وتسمى أيضاً محراب النبي):

وهي في الشمال الغربي من قبة الصخرة بينها وبين قبة المعراج، وهي محمولة على ثمانية أعمدة من الرخام، وقد جاء عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: صليت ليلة أسري بي إلى بيت المقدس غربي الصخرة.

وقد بُنيت هذه القبة مؤخراً في عهد السلطان العثماني عبدالمجيد (١٢٦١هـ)، وقد أقيمت فوق محراب قديم صغير بديع الصنعة، أنشأه الأمير محمد حاكم القدس الشريف (٩٢٥هـ) في عهد السلطان سليم الأول. يقول عنه الشيخ النابلسي: وهو محراب مبسوط في الأرض له حافة مقدار الشبر من الرخام.

قال الحنبلي: يقال إن ذلك المحراب موضع صلاة النبي صلى الله عليه وسلم بالأنبياء والملائكة ليلة أُسري به.

د) القبة النحوية:

وهذه في الأصل كانت مدرسة لعلوم الأدب والعربية والنحو فسميت بالقبة النحوية، لأنها عبارة عن غرفتين وقاعة تقع جنوب صحن الصخرة إلى أقصى الغرب عند الدرج المواجه لباب السلسلة، وقد تولى عمارتها متولي القدس حسام الدين المعظمي بأمر من الملك المعظم عيسى (٦٠٤هـ)، ويلحق بها الجزء السفلي من المبنى.

هـ) قبة يوسف:

وهي قبة قائمة فوق مبنى مربع طول ضلعه متران، محمولة من الأمام على عمودين، ومن الخلف على حائط، وتقع جنوب مسجد الصخرة بين القبة النحوية من الغرب ومنبر برهان الدين من الشرق، شُيّدت في عهد الفاتح يوسف بن أيوب صلاح الدين (٥٨٧هـ)، وجددت في عهد الأتراك العثمانيين (١٠٩٢هـ)، وأغلب الظن أنها نسبت إلى يوسف صلاح الدين الإيوبي واعتبرت رمزاً لانتصاراته وتحريره القدس الشريف.

و) قبة الشيخ الخليلي:

تقع في صحن الصخرة، على بعد بضعة أمتار من قبة المعراج إلى الشمال الغربي، شُيّدت عام (١١١٢هـ) في عهد العثمانيين، وهي مكونة من غرفة للتعبد وبها كهف معروف باسم مقابر الأرواح، والقبة الآن مقر لدار الحديث الشريف.

ز) قبة الخضر:

تقع في الطرف الأخير بحصن الصخرة من الشمال الغربي، وهي قبة صغيرة نصف دائرية، تستند على ستة عقود صغيرة مدببة، وهذه بدورها تستند على ستة أعمدة من الرخام، وتحتها زاوية تعرف بزاوية الخضر، وهذه الزاوية مكونة من قاعة مستطيلة، يُدخل إليها عن طريق باب فتح في ضلعها الشمالي، بينما في جدارها الجنوبي محراب قديم، وتستخدم الآن كمخزن.

ح) قبة يوسف آغا:

تقع في جنوب ساحة الحرم الشريف في الساحة الواقعة بين المتحف الإسلامي والمسجد الأقصى، فيها جدار جنوبي في وسطه محراب، وقد أُغلقت الواجهات الثلاث الأخرى بالألمنيوم والزجاج حالياً لاستخدامها لبيع التذاكر واستعلامات للزوار الأجانب.

ط) قبة موسى:

تقع على المسطبة المواجهة لباب السلسلة، وهي عبارة عن قاعة مربعة الشكل تغطيها قبة نصف دائرية وفيها محراب بديع الصنعة، وقد بُنيت قبة موسى في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل (٦٤٩هـ)، وكانت تدعى على عهده قبة الشجرة، وهي الآن مقر لدار القرآن الكريم.

ي) قبة سليمان:

تقع في شمال الحرم، إلى الجنوب الغربي من باب العتم (باب فيصل)، وهي مثمنة الشكل ومحمولة على أربعة وعشرين عموداً من الرخام. تم بناؤها في العصر الأيوبي، ولعل آخر إصلاح لها كان في عهد سليمان القانوني فتنسب إليه.

٤) الأسبلة والآبار في المسجد الأقصى:

الأسبلة جمع مفرده سبيل، ويقصد به: المكان المعد لجمع لماء للسقي، وكانت تسمى في العصر الأيوبي وما قبله (سقاية).

وكانت الأسبلة تحتوي على طابقين، الأول: بئر محفورة في الأرض لتخزين مياه الأمطار، وأما الطابق الثاني: فيرتفع عن سطح الأرض حوالي متر وتوجد فيه المزملة لتوزيع الماء. وأسبلة المسجد الأقصى عديدة أهمها:

أ) سبيل سليمان:

يقع أمام باب العتم (باب فيصل)، أمر بإنشائه السلطان سليمان القانوني (٩٤٢هـ).

ب) سبيل الحبس أو سبيل الناظر أو سبيل علاءالدين البوصيري:

إذا توجهنا غرباً باتجاه باب المجلس (وهو من أبواب المسجد الأقصى) نشاهد هذا السبيل الذي يقع في الشمال الشرقي من الباب، وقد جدده الأمير حسن (٨٢٩هـ) في عهد الأشرف قايتباي المملوكي.

ج) سبيل البديري:

ثم تنوجه نحو الجنوب فنشاهد هذا السبيل الذي يقع على بعد أمتار من باب المجلس.

وسبيل البديري مبنى صغير جميل مربع الشكل ضلعه متران وارتفاعه أربعة أمتار، وقد عمره والي القدس الحاج مصطفى آغا بروانة في عام (١١٥٢هـ) في عهد السلطان العثماني محمود الأول.

د) سبيل شعلان:

ثم تنوجه إلى الرصيف المؤدي إلى الصخرة فنشاهد هذا السبيل الذي يقع أسفل الدرج الشمالي من الحد الغربي لحصن الصخرة المشرفة. بناه الملك عيسى الأيوبي (٦١٣هـ)، وأعاد تعميره الأمير شاهين الذباح نائب الملك بالقدس في عهد الملك

الأشرف بارساي (٨٣٢هـ)، ثم عمّره محمد باشا محافظ القدس في عهد السلطان العثماني مراد الرابع (١٠٢٧هـ)، وهو لا يزال مستعملاً كمصدر من مصادر المياه في المسجد الأقصى، وتُسقى منه أشجار ساحة الحرم الشريف.

هـ) سبيل قايتباي:

ثم نتوجه جنوباً فنشاهد سبيل قايتباي الذي يقع مقابل باب المطهرة وله قبة جميلة وقد بني فوقه مسطبة واسعة وتحته بئر كبيرة عامرة بالمياه.

بناه الملك الأشرف أبوالنصر إيفال (٨٦٠هـ)، وجدده الملك الأشرف قايتباي (٨٨٧هـ)، وأعاد تجديده السلطان العثماني عبدالمجيد الثاني (١٣٠٠هـ).

و) سبيل قاسم باشا:

ثم نتوجه جنوباً فنشاهد سبيل قاسم باشا الذي يقع مقابل المدرسة السلطانية (مكتبة المسجد الأقصى حالياً)، وهو على بعد أمتار من باب السلسلة.

وقد أنشأه متولي القدس قاسم باشا عام (٩٣٣هـ) في عهد السلطان سليمان القانوني العثماني، وهو الآن عامر وفيه ماء. وشكله مثمن الأضلاع وفي كل ضلع حنفية ماء، ويستعمله المصلون للوضوء.

وشماله مباشرة بركة مربعة الشكل مفروشة بالرخام في وسطها نافورة، وحولها حاجز من حديد تسمى بركة (الرارانج)، وقد جدد تعميرها المجلس الإسلامي عام (١٩٢٢م).

ز) الكأس (الميضة):

ثم تنوجه إلى الجنوب الشرقي باتجاه مبنى المسجد الأقصى فنشاهد الكأس الذي يقع في الساحة بين المسجد الأقصى ومسجد الصخرة، ويستعمله المصلون للوضوء.

وهو حوض مستدير من الرخام مملوء ماء بشكل استمراري، وفي وسطه نافورة، وبجانبه حنفيات (صنابير) يخرج منها الماء ليتوضأ به المصلون، الذين يجلسون على كراسي رخامية أثناء الوضوء. وقد أُنشأ هذا الكأس في عهد السلطان الملك العادل سيف الدين

أبوبكر بن أيوب (٥٨٩هـ)، وعمّره الأمير تنكز الناصري (٧٢٨هـ)، كما أُعيد تعميره في عهد قايتباي (٨٨٧هـ).

٥) الآبار:

تشرب مدينة القدس عموماً من مياه الأمطار أو الينابيع والعيون، لأن المدينة ليست على بحر ولا بجوار نهر.

ولما كانت أرض المسجد الأقصى واسعة جداً وهي مبلطة بحجارة مستوية، كان من السهل جمع مياه الأمطار التي تسقط في الشتاء والاحتفاظ بها في آبار وصهاريج وبرك حُفرت ورُصفت بالحجارة، فمهما يهطل المطر لا يذهب ماؤه خارج الآبار ولا يضيع سدى.

ولا تحتاج آبار المسجد الأقصى إلى عمارة وصيانة إلا نادراً ويسهل إصلاحها، وجعل القسم الأعلى منها على شكل تنور، وعلى رأس كل بئر غطاء من حجر حتى لا يسقط فيه شيء.

وفي ساحة الحرم سبع وعشرون بئراً منها خمس وعشرون بئراً عامرة واثنتان في حالة خراب.

والعامر منها كما يلي:

أ) توجد ثمانية آبار في صحن مسجد الصخرة.

ب) توجد ستة آبار في ساحة الحرم إلى الغرب.

ج) توجد سبعة آبار في الجهة الجنوبية من ساحة الحرم بالقرب من المسجد الأقصى.

د) توجد ثلاثة آبار شرقي الحرم.

ولكل بئر من هذه الآبار اسم خاص به، مثل بئر العصافير، وبئر باب الغوانمة، بئر الخلوة وبئر القبة، وبئر أبي السعود، والبئر الأسود إلى الشرق من باب الأقصى وهو من أكبر آبار الحرم، وبئر الست إكرامية وهي أيضاً من الآبار الكبار العامرة.

٣) المساطب والمآذن والأبواب:

٦) المساطب:

المسطبة المكان المستوي المرتفع عما حوله المعد للجلوس.

وقد اشتهر المسجد الأقصى بمساطبه الكثيرة في ساحته الواسعة، تلك المساطب التي تدل على الاهتمام بشدة بطلب العلم وكثرة العلماء المدرسين وطلبة العلم الدارسين.

وشكل المساطب مربع أو مستطيل، وترتفع عن الأرض درجة أو درجتين، وبناؤها من الحجر، جاء في كتاب "القدس لنا" الذي أصدرته لجنة العالم العربي بجمعية إحياء التراث الإسلامي:

اتخذ المدرسون المساطب التي هُيّئت ليجلس عليها الطلاب للاستماع إلى الدروس، خاصة في فصل الصيف لاعتدال الجو هناك.

ويقدر عدد المساطب في ساحات المسجد الأقصى بقرابة ثلاثين مصطبة، في بعضها محاريب حجرية مستطيلة الشكل جميلة، يجلس فيها الشيخ أمام طلبته وتلاميذه. أُنشئ بعضها في العصر المملوكي وغالبها في العصر العثماني.

ومن أهمها - نقلاً عن كتاب نداء من الاقصى - المساطب التالية مرتبة حسب مواقعها:

أ) مسطبة سبيل سليمان:

إذا دخلنا ساحات الحرم من باب العتم (باب فيصل)، نشاهد على شمالنا مباشرة مسطبة محاذية لسبيل سليمان، وهو الذي أمر ببنائه مع المسطبة السلطان سليمان القانوني (٩٤٢هـ) كما ذكرنا سابقاً، وفي هذه المصطبة يوجد محراب حجري جميل.

ب) مسطبة عشاق النبي:

فإذا توجهنا شمالاً نشاهد مسطبة أخرى اسمها مسطبة عشاق النبي، وهي على بعد أمتار من مسطبة سليمان، وعليها محراب حجري كسابقتها لجلوس المدرس فيه، وقد جُدّد هذا المحراب في أيام السلطان سليمان القانوني (٩٤٣هـ)، ولعل تسميتها راجعةٌ إلى

أنّ الذين كانوا يجلسون عليها من الذاكرين الذين تلهج ألسنتهم مع ذكر الله بالصلاة والسلام على النبي محمد صلى الله عليه وسلم فهم عشاق النبي.

ج) مسطبة قبة سليمان:

وتقع قبة سليمان إلى الجنوب الغرب من باب العتم، وعلى الداخل منه التوجه غرباً للوصول إليها، وقد أقيمت فوق هذه المسطبة قبة سليمان التي بنيت في العصر الأيوبي، ولعلها أُصلحت في عهد السلطان سليمان القانوني فنُسبت إليه.

د) مسطبة الظاهر:

وهي غربي مسطبة قبة سليمان، وهي تقع أمام باب الغوانمة، ولها محراب أيضاً، وقد عمّرها هي ومحرابها الأمير بلوي الظاهري ناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطنة في القدس في عهد الملك الظاهر برقوق المملوكي (٧٩٥هـ).

هـ) مسطبة علاءالدين البصيري:

وهي تقع شرقي باب الناظر (المسمى باب الحبس) على بعد بضعة أمتار منه. قيل إنها أُنشئت من قبل الأمير سيف الدين جركس الناصري (٨٠٠هـ)، وفي منتصف ضلعها الجنوبي محراب حجري مستطيل الشكل عليه لوحة كتابية تبين اسم باني المحراب وألقابه. ويُصعد إليها بواسطة درجتين حجريتين وربما قيل لهذه المصطبة محراب جركس.

و) مسطبة سبيل قايتباي:

وتقع جنوب مسطبة البصيري مقابل باب المطهرة، ومقام عليها سبيل قايتباي الذي سبق ذكره مع أسبلة المسجد الأقصى.

ز) مسطبة الكرك:

وتقع هذه المسطبة في الزاوية الشرقية الجنوبية من صحن الصخرة وعليها محراب. وقد كان إنشاؤها وقت تبليط فناء المسجد الأقصى، ويقال: إن الذي يقف فوق هذه المصطبة فينظر حينما تكون السماء صافية يشاهد جبال الكرك في فصل الصيف.

٧) مآذن المسجد الأقصى:

للمسجد الأقصى أربع مآذن تقف شامخة فوق سور المسجد المحيط به، وهي بذلك ليست تابعة مباشرة للمصلى الجامع الذي يسمى تجاوزاً (المسجد الأقصى) من حيث أنه المصلى الجامع له الذي فيه قبلة المسجد كله.

ومن هنا فمن نظر إلى مبنى الجامع المصلى الرئيسي قال: إن المسجد الأقصى لا مئذنة له، ومن نظر إلى أن المسجد الأقصى هو كل ما دار عليه السور بجميع معالمه وأجزائه علم أن ثمة أربع مآذن بارزة، يعود تاريخ إنشاؤها إلى العهد المملوكي، تقع ثلاثة منها على صف واحد غربي المسجد، وواحدة في الجهة الشمالية على مقربة من باب الأسباط، وهذه المآذن هي:

أ) المئذنة الفخرية:

أنشأها القاضي شرف الدين عبدالرحمن بن الصاحب الوزير فخرالدين الخليلي، الذي أشرف بنفسه على بنائها، وكان حينذاك ناظراً للأوقاف الإسلامية في مدينة القدس سنة (٦٧٧هـ).

وهذه المئذنة جزء من المدرسة الفخرية نسبة إلى هذا القاضي بجانب المتحف الإسلامي حالياً.

ويسمي البعض هذه المئذنة لقربها من باب المغاربة (مئذنة باب المغاربة)، وموقعها في الركن الجنوبي الغربي للمسجد الأقصى.

ب) مئذنة باب الغوانمة:

وهذه المئذنة تحفة تاريخية عظيمة، وهي أعظم المآذن الأربع بناء وأتقنها عمارة، وتقع في الزاوية الشمالية الغربية من سور المسجد الأقصى، وقد بناها القاضي عبدالرحمن بن فخرالدين الخليلي في الوقت الذي بنى سابقتها، وقد أعاد بناءها الأمير سيف الدين تنكز الناصري نائب الشام سنة (٧٣٠هـ).

ج) مئذنة باب السلسلة:

وهي التي بناها الأمير سيف الدين تنكز بن عبدالله الناصري، الذي جدد بناء مئذنة باب الغوانمة سنة (٧٣٠هـ)، وتقع في الجهة الغربية من المسجد على بعد أمتار من باب السلسلة ولذلك نسبت إليه، وهي بين مئذنتي باب الغوانمة والفخرية. وتسمى هذه المئذنة أيضاً (مئذنة المحكمة) لاتخاذ القاعة التي تحتها محكمة في العهد العثماني.

د) مئذنة باب الأسباط:

وتعرف ايضاً بالمئذنة الصلاحية لقربها من المدرسة الصلاحية، وهي جميلة رشيقة من أجمل المآذن وأرشقها، أنشأها سنة (٧٦٩هـ) الأمير سيف الدين قطلويفا في عهد الملك الأشرف شعبان الثاني بن السطان حسن، وموقعها في الجهة الشمالية لسور المسجد الأقصى، ولما وقع الزلزال عام (١٣٤٦هـ) في القدس تهدمت هذه المنارة فأعيد بناؤها ثانية من جديد في هذا التاريخ.

٨) أبواب المسجد الأقصى:

يحيط بالمسجد الأقصى سور من جميع الجهات، وهذا السور محكم البنيان شديد الإتقان، يصف حجارته وبعض أحواله ناصر خسرو في رحلته الشهيرة (سفر نامة) فقال عنه: إنه غير موحد الإرتفاع بل حيثما تكون الأرض منخفضة يرتفع حائطه، إذ يكون أساسه في أرض واطئة، وحيثما تكون الأرض مرتفعة يقصر الجدار...

وقد استخدمت في بنائه حجارة لا يصدق العقل كيف استطاعت قوة البشر نقلها واستخدامها... ويقال: إن سليمان بن داود عليهما السلام هو الذي بناه، وعلى الحائط عند الباب المسمى بباب النبي حجر ارتفاعه خمسة عشر ذراعاً وعرضه أربعة أذرع، فليس في المسجد حجر أكبر منه، وفي الحائط (أي السور) على ارتفاع ثلاثين أو أربعين ذراعاً من الأرض (١٥٢٠ متراً) كثير من الحجارة التي يبلغ حجمها أربع أذرع أو خمس أذرع.

ويورد ناصر خسرو أسماء بعض الأبواب التي رآها في سور المسجد الأقصى فيقول:

وفي عرض المسجد باب شرقي يسمى باب العين، إذا خرجوا منه نزلوا منحدراً فيه عين سلوان.

وهناك أيضاً باب تحت الأرض يسمى الحطة، يقال إنه هو الباب الذي أمر الله عز وجل بني إسرائيل أن يدخلوا منه إلى المسجد.

وهناك باب آخر يسمونه باب السكينة، في دهليزه مسجد به محاريب كثيرة بابُ أولها مغلق حتى لا يلجه أحد، ويقال إن هناك تابوت السكينة الذي ذكره الله تعالى في القرآن والذي حمله الملائكة.

وأبواب بيت المقدس ما تحت الأرض وما فوقها تسعة أبواب.

ومما لا شك فيه أن سور بيت المقدس تعرض للتخريب في كثير من الغزوات والزلازل، وأعيد بناؤه وترميمه، ولذلك فإن عدد الأبواب التي في السور تختلف من فترة لأخرى.

وعددها الآن أربعة عشر باباً، أربع أبواب منها مغلقة، والأبواب المفتوحة هي: باب الأسباط، وباب حطة، وباب العتم، وباب الغوانمة، وباب المطهرة، وباب القطانين، وباب السلسلة، وباب المغاربة، وباب الحديد، وباب الناظر...

تجديد أبواب سور القدس:

وهذه الأبواب قديمة جددت عمارتها في العصور الإسلامية، فمن ذلك أن باب الناظر جددت عمارته في سنة (٦٠٠هـ) في عهد الملك المعظم عيسى الأيوبي، وهو باب ضخم محكم البنيان، يغطي فتحته مصراعان من الأبواب الخشبية المصفحة بالنحاس، وجميع ما في داخل هذا الباب من أقبية ومبان وقفه الأمير علاء الدين إيدغدي على الفقراء القادمين لزيارة القدس، وكان ذلك في زمن الملك الظاهر بيبرس.

اليهود يعبثون بأبواب بيت المقدس:

أما باب المغاربة فإن السلطات اليهودية المحتلة منذ أن هدمت عامدة حارة المغاربة المجاورة لسور مسجد بيت المقدس استولت على مفاتيحه وتتحكم في فتحه وإغلاقه حسب مزاجها، وهذا الباب هو أقرب الأبواب إلى المصلى الجامع الرئيسي، الذي يهدف اليهود إلى إزالته وبناء الهيكل المزعوم مكانه.

الباب الذهبي:

وأما باب الرحمة فيقع في منتصف الجدار الشرقي للحرم الشريف، والباب مغلق منذ زمن بعيد، وأغلب الظن أنه أغلق لنواحٍ أمنية في فترة الحروب الصليبية، وله عدة أسماء تاريخية تبعاً لاختلاف العهود التي مرت به، ومن أسمائه: الباب الذهبي وهو أشهرها، والباب المزدوج، وباب الرحمة، والتوبة. ويقول المؤرخون إن تأسيس هذا الباب لأول مرة يعود إلى القرن الأول الميلادي، فهو بذلك قديم جداً، إلا أن من المؤكد أن بناءه الحالي يعود إلى الفترة الأموية.

ويتكون هذا الباب من رواقين به ست قباب، وكانت جميعها في الماضي مفلطحة، وفي العصور المتأخرة رفعت قبتان منها، كما جرى إضافة بعض الغرف على سطح الباب.

ويقال: إن الإمام أبي حامد الغزالي اعتكف فيها عندما سكن بيت المقدس، وكان يدرس في المسجد الأقصى. ويشير وصف لابن فضل الله العربي إلى أن الباب في أيامه كان مغلقاً من الخارج واستعمل كجامع سمّي جامع باب الرحمة.

ويقوم الجهاز الفني للجنة إعمار المسجد الأقصى - حالياً - بترميم البناء لفتحه للصلاة فيه والزيارة.

المدارس الدينية - المصلى المرواني - المنبر - حائط البراق :

٩) المدارس الدينية في القدس:

تعتبر مدينة القدس إحدى المدن الزاخرة بالعلماء والمتعلمين، إضافة إلى الزائرين والمتعبدين، وغيرهم من أهل الصلاح والتقوى، وذلك لأنها مدينة مباركة مقدسة، ومن هنا فإن العلماء الذين رحلوا إليها أو مروا بها أو درسوا أو درّسوا فيها أو دفنوا أو ولدوا فيها هم من الكثرة بمكان بحيث يصعب حصرهم والإحاطة بهم... لكن الشيء لا ينكر في مدينة القدس هو كثرة المدارس الدينية التي خرجت عشرات بل مئات الطلبة النابهين والعلماء الخالدين.

لقد كان في القدس منذ القديم مدارس دينية عديدة، من أهمها المدرسة الصلاحية المنسوبة إلى محرر القدس صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله، وكذلك المدرسة

التنكزية، والمدرسة الميمونية، والمدرسة المعظمية، والمدرسة البدرية، والمدرسة الدوادارية، والمدرسة الموصلية، والكريمية، والجاولية، والخاتونية، وغيرها.

وسنقف هنا مع اثنتين من هاتيك المدارس التاريخية:

أ) المدرسة الصلاحية:

وهي مأثرة من مآثر صلاح الدين، حيث أوقف عدداً من الأملاك ذكرت في وثيقة الوقف التي نقلها السبكي رحمه الله في فتاويه: (الأرض المعروفة بالحسانية، والأرض والجنان المعروفة بعين سلوان، وحمام صهيون، وحمام باب الأسباط، وفرن وحاكورة، والضيعة المعروفة بصَيْد حنّا، والدار التي قبليّها، والدار المجاورة لها، والطاحون المقابلة لها والحوانيت...).جاء في الوثيقة: ولما حصلت هذه المواضع في ملك مولانا الملك الناصر أشهد أنه وقف ذلك مدرسة على مذهب الشافعي على الفقهاء المقيمين بها والمنقطعين إلى الاشتغال بالعلم المعروفين بالصلاح، على أن المدرس في كل يوم يباكر في الوقت المعتاد إلى الحضور وجميع الجماعة له، ويبدؤوا بقراءة شيء من القرآن ثم يشفعونه بالدعاء ثم يشرع بالدرس مذهباً وخلافاً وأصولاً، وما شاء من العلوم الشرعية، ثم ينهض كل معيد مع أصحابه فيعيد عليهم ما هو بصدده من المذهب... وعليهم المواظبة على الصلوات الخمس جماعة إلا من أخّر لعذر شرعي، وعليهم ملازمة المدرسة والمبيت بها إلا من عذر معتاد بإذن المدرس... وعلى المدرس تفقد أحوال الفقهاء فمن رآه مشتغلاً أكرمه وشكره، ومن رآه مقصراً وعظه مراراً فإن لم ينصلح أخرجه وقطع جاريه، وكذلك من رآه على غير ما يجب... وقد فوض مولانا الملك الناصر التدريس إلى القاضي بهاء الدين قاضي القضاة بالقدس والعسكر المنصور... وجعل النظر فيها وفي أوقافها إليه، وعليه تفقد حال المدرسة فما رأى من نقص تقدم بإزالته، فإن لم يتهيأ انتهى ذلك إلى الناظر، وقد رتب له كل شهر خمسة عشر ديناراً وغرارتين قمحاً، وعدد الفقهاء غير منضبط بل ما وسعه الوقف من القلة والكثرة. وبذلك أشهد عليه في ثالث عشر من رجب سنة ثمان وثمانين وخمسمائة للهجرة.

أساتذة المدرسة الصلاحية:

قال ابن كثير: أول من درس بالمدرسة الصلاحية الفقيه مجد الدين أبومحمد طاهر بن نصر الله بن جهبل، المتوفى سنة (٥٩٠هـ)، وسبب ذلك أنه كان من أوائل من بُشِّر بفتح بيت المقدس، فجازاه السلطان صلاح الدين بأن أمره فدرس على نفس الصخرة غداة الفتح درساً عظيماً وأحسن إليه وأجزل له العطاء وبالغ في الثناء عليه...

وجاء في كتاب (الدارس في أخبار المدارس) أن الشيخ العلاني الكيكلدي المقدسي ثم الشافعي درس سنة (٧٣١هـ) في المدرسة الصلاحية بالقدس، كما تولى مشيخة دار الحديث السيفية فيها، وولى بعده تدريس الصلاحية ابن الخطيب العلامة ابن جماعة.

ب) المدرسة التنكزية:

وهي من أشهر مدارس القدس الشريف قديماً وحديثاً، أما قديماً فلتاريخها الحافل، وأما حديثاً فلمصيرها المحزن، حيث قامت القوات الإسرائيلية في عام (١٩٦٩م) باحتلالها والإقامة فيها واتخاذها مقراً لها... وحسبنا الله ونعم الوكيل.

أنشأ المدرسة التنكزية الأمير سيف الدين تنكز بن عبدالله الناصري، ووقفها سنة (٧٢٩هـ)، وتقع عند باب السلسلة أحد أبواب المسجد الأقصى، حيث تطل واجهتها الشرقية على رواق المسجد الأقصى، والواجهة الجنوبية تشرف على حائط البراق، والواجهة الغربية على المباني المجاورة لها، والجهة الشمالية على ساحة صغيرة بباب السلسلة.

جمال المبنى وروعته:

ومبناها يتجلى فيه الفن المملوكي المعماري بصورة رائعة في بناء المدرسة، ذلك البناء الذي حفل بالزخارف والمقرنصات التي تزين بوابتها العالية والأحجار الملونة. إن مبنى المدرسة التنكزية مثال للمدرسة الشاملة.

وقد وصفها مجير الدين الحنبلي في كتاب "الأنس الجليل": (بأنها مدرسة عظيمة ليس في المدارس أتقن من بنائها).

ووقف الأمير تنكز بانيها الأوقاف الكثيرة على مدرسته هذه التي تضم خانقاه للصوفية وداراً للحديث وداراً للقرآن ومدرسة.

وقد قامت هذه المدرسة بدور رائد في الحركة العلمية في بيت المقدس، منهم القاضي علاء الدين بن منصور المقدسي (ولد ٦٦٦هـ وتوفي ٧٤٨هـ)، والشيخ صلاح الدين أبوسعيد العلاني (ولد ٦٩٤هـ وتوفي ٧٦١هـ)، والشيخ شهاب الدين محمود الأسدي المقدسي الذي تولى مشيخة هذه المدرسة بتفويض من سابقه الشيخ العلاني

(٧٦٢هـ)، والشيخ الحافظ جمال الدين أحمد بن هلال المقدسي (توفي ٧٦٥هـ)، وشمس الدين ابن النقيب (المتوفى سنة ٨٧٧هـ).

وممن عيّن بها لقراءة القرآن الشيخ محمود بن القاضي أحمد الديري (سنة ٩٧١هـ)، وغيرهم كثير...

تقلب أحوال المدرسة التنكزية:

وهكذا استمرت المدرسة التنكزية تؤدي دورها العلمي الرائد حتى أواخر القرن التاسع الهجري عندما اتخذت مركزاً للقضاة والنواب، وديواناً للقضاة، ودار سكن لهم في عهد السلطان قايتباي، ثم عادت لتقوم بدورها العلمي ثانية حتى أواخر القرن العاشر الهجري، ثم تحولت إلى محكمة شرعية في العصر العثماني، ثم مدرسة لتعليم الفقه الإسلامي، حتى عبثت بها أيدي اليهود فاتخذوها عام (١٩٦٩م) مركزاً من مراكز قواتهم العسكرية.

ومما ينبغي ذكره أن المدارس الدينية في القدس هي الوجه الآخر للمصاطب المنتشرة بكثرة في المسجد الأقصى، والتي كانت تقام فيها حلقات التدريس في الصيف، أو في الأوقات الملائمة لإلقاء الدروس، في الفضاء الواسع الرحب داخل الحرم القدسي الشريف.

١٠) المصلى المرواني:

يقع هذا المصلى أسفل الساحة المبلطة في الجزء الشرقي من ساحة الأقصى، ويتوصل إليه من عدة مداخل منها: مدخل مستحدث في السور الجنوبي عبر درج حجري يصل إلى مساحة بمنسوب متوسط تسمى مهد عيسى، ثم عبر سلم حجري عريض يتوصل إلى المصلى المرواني، وهناك مداخل عديدة من الجهة الشمالية.

اسطبلات سليمان:

وكان يطلق عليه قديماً: التسوية الشرقية من المسجد الأقصى.

وقد اشتهر باسم إسطبلات سليمان، وذلك لأن الصليبيين عند احتلالهم للقدس والمسجد الأقصى استخدموه مربطاً لخيولهم ودوابهم، ومخازن ذخيرة لأسلحتهم وعتادهم،

وأسموه (إسطبلات سليمان)، ليوهموا الناس أنه من بقايا بناء سيدنا سليمان عليه السلام، وبالتالي ليتمسك به اليهود كمان مقدس عندهم.

والحقيقة أنه بناء أموي مكون من مجموعة من العقود الأسطوانية القائمة على دعائم حجرية، تتميز بضخامة حجارتها في المداميك السفلية، وتكون أعمدتها ١٦ رواقاً تبلغ مساحتها الكلية ٣٧٧٥ م٢، أي ما يقارب أربعة دونمات...

وهذا المصلى خصص زمن عبدالملك ابن مروان الباني الأول للمسجد الأقصى في صورته الحالية مدرسةً فقهية جامعة لكافة الفنون والعلوم، ولذا سُمِّي المصلى المرواني.

وقد تضافرت الجهود الطيبة التي حركتها لجنة فلسطين الخيرية في الكويت في كثير من المسلمين، حتى تم إصلاحه وترميمه، وأعيد إليه اسمه الصحيح (المصلى المرواني)، وتم افتتاحه للصلاة فيه بعد فرشه وتجهيزه في أواخر عام (١٩٩٦م)، فجزاها الله خير الجزاء وأحسنه.

١١) منبر برهان الدين:

أُنشئ هذا المنبر بأمر قاضي القضاة برهان الدين بن جماعة، بتاريخ (٧٠٩هـ)، وكان في أول أمره منبراً خشبياً جميلاً في شكله ورشاقته، ثم أعيد بناؤه من الحجر ليصبح على مرور الأزمنة تحفة معمارية خالدة تنطق بالجمال والروعة.

وقد جُدّد هذا المنبر في العصر العثماني على يد الأمير محمد رشيد، وذلك في عهد السلطان العثماني عبدالمجيد بن محمود الثاني، يدل على ذلك نقش كتابي في أعلى مدخل المنبر...

وهيئته الحالية تتكون من مدخل يقوم في أعلاه عقد يرتكز على عمودين صغيرين من الرخام، ويُصعد منه إلى درجات قليلة تؤدي إلى دكة حجرية (مقعد) معدة لجلوس الخطيب، وتقوم فوق تلك الدكة قبة لطيفة صغيرة ترتكز على أعمدة رخامية جميلة الشكل... ونمطه الهندسي نمط المنابر المملوكية الشهيرة بنقشها وجمالها.

ويسمي البعض هذا المنبر (منبر الصيف) لأنه في ساحة مكشوفة يستخدم في فصل الصيف فقط عندما يكون الجو مناسباً، فتلقى منه على الحضور الدروس والمحاضرات.

١٢) حائط البراق:

وهو الذي يطلق عليه اليهود اليوم اسم (حائط المبكى)، وهو جزء من جدار المسجد الأقصى في الجهة الجنوبية الغربية، ويبلغ طوله قرابة (٥٠ متراً)، وارتفاعه قرابة (٢٠ متراً)، وهو جزء من المسجد الأقصى الشامل لكل ما دار عليه السور وضمه.

وقد تعلق به اليهود أخيراً أي في القرن الحالي فقط، حيث زعموا - زوراً وبهتاناً - أنه الجزء المتبقي من الهيكل المزعوم...

وقد كانوا من قبل إذا جاؤوا إلى القدس لزيارتها يقومون بطقوسهم وترانيمهم عن السور الشرقي، زاعمين أنه مقدس عندهم، ثم تحولوا إلى السور الغربي، ولم يزعموا أنه جزء من الهيكل إلا بعد أن أنشأوا دولتهم وكيانهم في أرض فلسطين.

وتاريخ حائط البراق تاريخ ممزوج بالثورات والعواطف والتضحيات، حيث لم يتخل المسلمون في يوم من الأيام - كما سنرى لاحقاً - عن حقهم فيه، وعن إبطال دعاوي اليهود تجاهه، ولدى المسلمين وثائق قديمة وحديثة، منها: وثائق من عصبة الأمم تثبت ملكيتهم لحائط البراق وأحقيتهم في طرد اليهود عنه، ولكن من ينفذ ذلك ويعين عليه؟

وقد أثبتت الحفريات التي تمت من قبل اليهود تحت حائط البراق والمسجد الأقصى أن الآثار الموجودة جميعها آثار إسلامية، وليس هناك أي أثر للحضارة اليهودية المزعومة.

القدس أسيرة في يد اليهود والإنجليز

تمهيد:

دخل الجيش البريطاني مدينة القدس من باب الخليل في الساعة العاشرة والنصف من صباح يوم الأحد - التاسع من شهر كانون الأول (١٩١٧م)، بعد أن حاصرها قرابة شهر، وشدد الخناق على القوة التركية التي كانت تتولى حمايتها، ولم تصلها نجدة لا تركية ولا ألمانية، كما لم تنفع الدفاعات العسكرية التي أعدتها، فقررت القوة التركية الانسحاب من المدينة، وتركتها فريسة سهلة في يد الإنجليز الغازين...

ومما لا بد منه أن نذكر أن الإنجليز غادروا القدس يوم الجمعة (١٤ أيار عام ١٩٤٨م)، أي أنهم أقاموا في القدس ثلاثين عاماً ونصفاً.

التزامات بريطانية تجاه اليهود:

وإذا عدنا بالذاكرة إلى عام (١٩١٧م) وبالتحديد قبل شهر ونصف من احتلال الإنجليز للقدس، نتذكر جيداً أن اللورد بلفور وزير خارجية بريطانيا، أعطى اليهود وعداً وتطميناً والتزاماً باسم حكومة جلالة ملك بريطانيا أن تقف موقف المؤيد المتعاطف المساند لإنشاء دولة لليهود في فلسطين.

لذلك فقد أنشئت إلى جانب الإدارة العسكرية لفلسطين لجنة صهيونية حضرت إلى فلسطين في (نيسان عام ١٩١٨م)، برئاسة حاييم وايزمان، لأجل وضع التدابير التي من شأنها أن تعمل على تحقيق وعد بلفور لليهود.

وما أسرع ما تحرك وايزمان لشراء الممر المؤدي إلى حائط البراق (المبكى)، عارضاً مبلغاً خيالياً آنذاك وهو ثمانون ألف جنيه، لكن المسلمون في القدس رفضوا ذلك بالإجماع، بل ردوا على ذلك في عام (١٩١٩م) بمطالبة سورية ضم فلسطين إليها، بعد أن سموا فلسطين (سورية الجنوبية) التي ينبغي أن تلتحق بسوريا الشمالية. وذلك رغبة منهم في إبعاد شبح المؤمرات الدولية عنهم... ولكن هيهات.

صور من الصمود والتصدي الإسلامي لليهود:

وشهدت سنوات الاحتلال من أولها رفضاً وإصراراً من المسلمين على التصدي لمحاولات اليهود التغلغل في القدس.

وقد تفجرت قمة الغضب الإسلامي يوم الجمعة (١٦ أغسطس/آب عام ١٩٢٩م) في ثورة شعبية عارمة عرفت باسم ثورة البراق)، استمرت أكثر من عشرة أيام وقعت خلالها مصادمات شديدة عنيفة بين المسلمين واليهود الذين تطاولوا على حائط المسجد الأقصى المسمى حائط البراق، فرفعوا فوقه العلم الصهيوني وأنشدوا أناشيدهم الدينية وشتموا الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين والإسلام، وأخذوا يهتفون: الحائط حائطنا، والويل لمن يدنس مقدساتنا.

ولم تستطع الشرطة البريطانية حماية اليهود من غضبة الجماهير، فقتل في تلك الثورة أكثر من ثمانين يهودياً، وجرح مئات منهم واستشهد عدد من المسلمين.

هذا كله حدا بالسلطات البريطانية إلى وضع ثقلها لإيقاف التدهور الأمني، فشنت حملة اعتقالات واسعة بين الشباب المسلم، ثم أصدرت أحكاماً بالإعدام على (٢٥) شاباً مسلماً، وقد نفذ حكم الإعدام فعلاً في ثلاثة منهم، ولم يعدم أحد من مجرمي اليهود الذين قتلوا المسلمين.

الإنكليز أعوان محلفون لليهود:

ولم يغادر الإنجليز فلسطين عام (١٩٤٨م) إلا بعد أن هيئوا الظروف المناسبة محلياً وعربياً ودولياً لاستيلاء اليهود على فلسطين.

وكان ذلك أكبر خيانة منهم للقدس التي لم يكونوا أمناء على إسلامها أو عروبتها؟! بل لم يكونوا أوفياء للعهد الذي قطعه الجنرال (اللبني) على نفسه غداة دخول القدس، في الكلمة التي أذيعت على سكان القدس على درج القلعة الواقع بباب الخليل، بالمحافظة وصيانة كل بناء ومكان ومقام ومزار.

تهويد غربي القدس أولاً:

ومنذ اليوم الأول لخروج الإنجليز من فلسطين وإعلان قيام الدولة اليهودية المحتلة للقدس وفلسطين، وعلى الرغم من التدخل العربي المسلم بجيوش ضعيفة محدودة التسليح

والإمكانات - فإن إجراءات تهويد القدس - التي احتل نصفها الغربي بادئ ذي بدء بعد (١٩٤٨م)، لم تتوقف حتى اليوم وتمثلت في أمور رئيسية أساسية هي:

أولاً: الإستيلاء على الأرض:

مصادرة الأراضي الوقفية والمملوكة للمواطنين، وشراء الأبنية وهدم العمائر الإسلامية، ومصادرة أراضي المهجّرين من المسلمين من القدس (الغائبين) حتى لم يبق في أيدي المسلمين من أراضي مدينة القدس الشريف إلا أقل من ١٠% فقط. وهذا ما توصل إليه اليهود بعد تغيير التركيبة السكانية وتهجير الفلسطينيين وإحلال اليهود مكانهم بوسائل شتى وطرق عديدة.

ثانياً: القدس عاصمة الدولة اليهودية:

الإعلان بعد حرب (١٩٦٧م) واحتلال إسرائيل للجزء الشرقي من القدس بما فيه المسجد الأقصى وقبة الصخرة، عن ضم مدينة القدس وتوحيدها لتكون عاصمة موحدة لليهود، وتأجيل موضوع القدس في أي مفاوضات إلى آخر المطاف، أو ما يسمى المفاوضات النهائية التي لم تأت ولن تأت، خاصة وأن اليهود يوجهون المتطرفين من المستوطنين للسكن في القدس، ليكونوا أشد تمسكاً وإصراراً.

والازدياد المطرد في أعداد هؤلاء أدى إلى توسيع رقعة القدس الكبرى لتصبح الغالبية من سكانها والأكثرية من أراضيها بأيدي اليهود.

ثالثاً: تضييق الخناق على المسلمين في القدس:

الحيلولة بين المسلمين وبين مساجدهم وزواياهم والأماكن الخاصة، وذلك إما بهدم تلك الأماكن، أو بوضع الحواجز العسكرية أمامهم لعرقلة وصولهم إلى المسجد الأقصى ومنعهم من الصلاة فيه، أو بادعاء ملكيتهم لبعض تلك الأماكن وإثارة المنازعات والفتن فيها، أو بالتآمر مع بعض ضعفاء النفوس لتسهيل الاستيلاء عليها بالشراء ونحوه...

رابعاً: تهديد أساسات المسجد الأقصى:

تنفيذ ما تسمى بمؤامرة الحفريات تحت أساسات المسجد الأقصى التي وصلت إلى أعماق ١٤ متراً، وشق الأنفاق تحت أسوار المسجد الأقصى خاصة من جانبيها الجنوبي والغربي.

وبسبب هذه الحفريات أزيلت بعض الأحياء الإسلامية والمقابر الإسلامية القديمة.

وهذه الحفريات في جملتها تتوسع يوماً بعد يوم حتى أصبحت الآن تهدد أساسات المسجد الأقصى، وكثيراً من الأماكن الإسلامية الموقوفة حوله كالمدارس والزوايا والربط وغيرها.

صور من الإعتداءات اليهودية على القدس:

وعلى سبيل المثال لا الحصر فإننا نسجل هنا بعض الاعتداءات اليهودية على مدينة القدس والمقدسات الإسلامية:

هدم حارة المغاربة الإسلامية:

أ) تم هدم حارة المغاربة الملاصقة لحائط البراق كاملة بعد دخول اليهود القدس مباشرة (عام ١٩٦٧م) وسويت بالأرض، وذلك بعد أربعة أيام من احتلال القدس، ونتج عن ذلك تشريد (١٣٥) عائلة عدد أفرادها (٦٥٠) فرداً، إضافة إلى نسف (٣٤) داراً أخرى مجاورة وتشريد أهلها.

وكان في حارة المغاربة قبل الهدم أربعة جوامع، والمدرسة الأفضلية التي أوقفها نور الدين، وأوقاف أخرى تحولت إلى أثر بعد عين.

وأصبح مكان حارة المغاربة الآن ما يسمى ساحة المبكى، وفعلاً فإنها تستحق أن تصبح مبكى للمسلمين جميعاً لما نالهم فيها من إهانة بالغة واعتداء شديد.

إحراق المسجد الأقصى:

ب) في ٢١ من شهر آب (٨/١٩٦٩م) أقدم شخص أسترالي نصراني يدعى (دينيس مايكل) على إشعال النار في المصلى الجامع (المسجد الأقصى) بطريقة لا يمكن تبرئة اليهود من المشاركة فيها، فقد قامت سلطات إسرائيل بقطع المياه عن منطقة الحرم فور ظهور الحريق، وحاولت منع المواطنين العرب وسيارات الإطفاء التي هرعت إلى نجدة المسجد الأقصى من خارج القدس من المشاركة في إطفائه.

وكاد الحريق يأتي على قبة المسجد المبارك لولا لطف الله ثم استماتة المقدسيين في إطفائه...

ومع هذا فقد أكلت النيران منبر المسجد الذي أعده الأيوبيون لإلقاء خطبة الجمعة بعد التحرير مباشرة من يد الصليبيين، كما اشتعلت النيران في سطح المسجد الجنوبي، وأتت على سقف ثلاثة أورقة والتهمت أثاث المسجد وجدرانه... وقد ادعت إسرائيل أول الأمر أن تماساً كهربائياً كان السبب في الحريق، ثم اعترفت بقيام دينيس مايكل - وعمره ٢٨ عاماً - بذلك الفعل الأثيم، ثم أعلنت أنه معتوه بعد محاكمة صورية أعلن فيها أنه نفذ فعلته كمبعوث لله وبموجب نبوءة في سفر زكريا... وأدى زعم أنه معتوه إلى إطلاق سراحه دون عقوبة!!

المتفجرات في أنحاء المسجد الأقصى:

ج) تم اكتشاف متفجرات وعبوات ناسفة وديناميت أكثر من مرة في جوانب من المسجد الأقصى.

ففي الأول من مايو (أيار) عام (١٩٨٠م) عثر على أكثر من طن من المتفجرات شديدة الانفجار من نوع (ت. ن. ت) فوق أسطح إحدى المعابد اليهودية القريبة من القدس، وكذلك اكتشفت متفجرات أخرى في مدرسة (باشيفا) اليهودية، وحوكم في تلك الاكتشافات الإرهابي (كاهانا) الذي لم يخف سعيه لهدم المسجد الأقصى ونسفه...

وفي عام (١٩٨٢م) في شهر نيسان (أبريل) عثر المسلمون على طرد مشبوه خلف أحد الأبواب الرئيسية للمسجد الأقصى، ووجد فيه بعد فتحه أسلاك كهربائية وجهاز توقيت ورسالة موجهة إلى مجلس الأوقاف الإسلامية مكتوب فيها (انتظروا مزيداً من عملياتنا ضدكم)... وفي العام نفسه عام (١٩٨٢) قام (يرئيل لرنر) عضو حركة كاخ بمحاولة لنسف مسجد الصخرة.

وفي شهر يناير (كانون الثاني) من عام (١٩٨٤م) جرت محاولة لنسف المسجد الأقصى ومسجد عمر.

وفي شهر آب من العام نفسه (١٩٨٤م) اكتشف حراس الأقصى من المسلمين عدداً من اليهود وهم يعدون لعملية نسف تامة للمسجد مستخدمين قنابل ومتفجرات شديدة يبلغ مائة وعشرين كغ.

وفي نهاية شهر آب من نفس العام اكتشفت كميات كبيرة من الأسلحة في منارة في القدس يرجح أنها لإحدى الجماعات اليهودية الحاقدة.

وفي ١٨ ديسمبر (كانون الأول) من نفس العام (١٩٨٤م) كشف النقاب عن قيام عناصر يهودية مسلحة من حرس الحدود الإسرائيلية بوضع عبوة ناسفة في الساحة الرئيسية للمسجد الأقصى، وقد اكتشفها حراس المسجد وأبطلوا مفعولها.

وفي ١٧ مارس / آذار عام (١٩٨٩) عثر الحراس المسلمون على كمية من القنابل داخل المسجد الأقصى وضعتها جماعة يهودية لتستخدمها في تفجيره.

وفي عام (١٢/٢٧) ١٩٩٧ اكتشف مخطط لدى اليهود لتفجير قبة الصخرة والمسجد الأقصى وسائر مقدسات الحرم الشريف، وقد قامت إسرائيل باعتقال اثنين من قادة اليمين اليهودي لتهدئة احتجاجات المسلمين.

وفي ١٥/٥/١٩٩٨ ألقى يهودي حاقد رأس خنزير مغلف بآيات من القرآن الكريم في باحة المسجد الأقصى، وتم إحراق مدخل رئيسي للمسجد الأقصى في الجهة الغربية منه بعد إلقاء اليهود لمادة مشتعلة بعد منتصف الليل...

وسلسلة محاولات نسف الأقصى - التي نفذ بعضها وأبطل بعضها - كثيرة وعديدة أكثر مما ذكرنا، وهي مستمرة إلى اليوم.

الإعتداء على قدسية المسجد الأقصى:

د) أما اقتحام المسجد الأقصى والاعتداء على حرماته وعلى المصلين وقتلهم بشكل جماعي فقد تكرر كذلك مرات ومرات.

وذلك ابتداء من (١٥ أغسطس ١٩٦٧م) حينما دخل الحاخام الأكبر لإسرائيل وجيشها (شلومو غورين) مرتدياً الزي العسكري إلى ساحة المسجد الأقصى يرافقه عشرون ضابطاً، وهو يلوح برشاش حربي كان معه.

إلى ٩ آب/أغسطس (١٩٨١م) عندما تجمهر أكثر من (٣٠٠) يهودي وكسروا قفل (باب الحديد).

إلى مارس/آذار (١٩٨٢م) عندما قام (١٥) يهودياً من جماعة أمناء الهيكل باقتحام المسجد الأقصى وهم مسلحون بالأسلحة النارية.

ثم في اليوم التالي تكرر الاعتداء ثانية وأصيب بعض حراس المسجد المسلمين.

وفي ١١ أبريل/نيسان (١٩٨٢م) اقتحم المسجد الأقصى جندي يهودي اسمه (آلان جورمان) من باب الغوانمة برشاشه وأطلق النار فأصاب حارساً للمسجد، وشارك هذا المعتدي في إطلاق النار بعض الجنود واليهود المتمركزين على أسطح المنازل المجاورة للمسجد.

أما في عام (١٠/٨) (١٩٩٠) فقد ارتكبت قوات اليهود مجزرة بشعة جداً عندما أقدمت على إطلاق النار على المصلين في الأقصى فقتل (٣٤) مسلماً، وجرح (١١٥) غيرهم.

وهكذا فمسلسل القتل والاعتداء على الأقصى مستمر لا يتوقف.

وللحقيقة نقول: إن القدس والمسجد الأقصى لم تروع في تاريخها الألفي الأخير كما روعت في عهد اليهود المعاصر.

الوجود اليهودي في بيت المقدس . . . من الماضي إلى الحاضر

تمهيد:

لا نستطيع الحديث عن القدس الشريف مدينةً وذكريات وواقعاً دون أن نعرج على علاقة اليهود بها من جوانب عدة... فبيان ذلك وتوضيحه بجلاء الحق في نصابه، ويزيل الغموض والغش، ويكشف الزيف والتحريف، ويضيق المجال على محترفي التزوير وممتهني صناعة الأباطيل.

ما لا ينكره عاقل:

ولا ينكر أحدا أبداً أن لليهود في التاريخ القديم لمدينة القدس وجوداً، وربما كان في بعض الأحايين وجوداً قوياً، قامت خلاله دول وممالك وأصبح فيه لليهود سلاطين وحكام، ولكن هذا جزء من حقيقة كبرى هي أن القدس وأرض فلسطين عموماً لم تتمحض خلال التاريخ القديم لبني إسرائيل فقط دون سواهم من شعوب المنطقة، فكان هناك وجود للعرب ووجود للفرس ووجود للروم ووجود لغير هؤلاء... لقد تقلبت المنطقة في أيدي هؤلاء سنين ودهوراً، فما بال اليهود يثبتون حقهم القديم وحدهم فقط؟ مع العلم أن وجودهم في تاريخ القدس - كدول ومماليك - لا يتعدى ثلاثة قرون... وهذا زمن قصير في تاريخ الدول والأمم.

النصارى يطلبون إخراج اليهود من القدس:

ومن خلال قراءة الوثيقة العمرية التي أمّنت المدينة إبّان الفتح الإسلامي لها عام (١٥هـ) نجد واضحاً أن الوثيقة أو العهدة العمرية منعت أحداً من اليهود أن يسكن مع النصارى في القدس (ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود)، وكان ذلك بناء على رغبة النصارى أنفسهم، الذين عانوا من اليهود ودسائسهم ما عانوا.

ويجزم بعض المؤرخين أنه لم يكن يوجد في القدس منذ اليوم الأول للفتح الإسلامي بعد إخراجهم منها وحتى أوائل العهد العثماني يهودي واحد، إذ أنه إضافة إلى العهد العمري الموثق كان الصليبيون الذين استولوا على فلسطين قرابة مائة عام أشد كراهية لليهود، وتعصباً ضدهم من المسلمين أنفسهم.

ليس لليهود آثار في القدس!!:

ويؤكد لنا انعدام الوجود اليهودي في ذلك الزمن البعيد أنه ليس لهم في القدس من مقدسات يتعلقون بها سوى حائط البراق الذي يسمونه (حائط المبكى) وهو أبعد ما يكون عن اليهود، وبعض القبور القديمة كقبر ابشالوم وقبر يهو شافاط وقبر زكريا وقبر يعقوب.

حتى إن المقبرة التي يدفنون بها اليوم موتاهم هي وقف إسلامي يعرف أصلاً باسم وادي جهنم، وقد أذن المسلمون لليهود باستعماله لقاء جُعْلٍ معين يدفعه اليهود كل سنة لأصحاب الوقف، وقد دفعوا فعلاً - كما تثبت ذلك سجلات المحكمة الشرعية بالقدس - مئتي دينار ذهباً عن سنتي (٩٦٨) و (٩٦٩) للهجرة.

كيف تشتت اليهود عن القدس:

ويجيب الأستاذ عارف العارف عن تساؤل ربما خطر ببال المرء: كيف تشتت اليهود؟ وما الذي جرى لهم وهم الذين يقولون: إن القدس مدينة يهودية الأصل؟ والجواب هو: أن الرومان ضربوا اليهود ضربتين قاصمتين في القدس:

الأولى على يد تيطس (٧٠م).

والثانية على عهد أدريانوس (١٣٥م)، فلم يبق لهم بعد ذلك أثر واضح فيها.

أعداد اليهود في القدس قديماً:

ويتابع قائلاً: ولم نعد نسمع عن يهود القدس شيئاً قروناً عديدة، حتى إن السائح اليهودي (بتاحيا) الذي زار القدس خلال القرن الثاني عشر للميلاد (١١٧٠م) لم يجد فيها سوى يهودي واحد، وأما السائح اليهودي الآخر (موسى بن نحمان جيروندي) الذي هبط القدس بعد ذلك بقرن واحد (١٢٦٧م) لم يجد فيها سوى عائلتين يهوديتين.

وأُحصي يهود القدس سنة (١٥٧٢م) فثبت لمجلس الشرع الشريف أنه كان يعيش فيها يومئذ (١١٥) نفراً، وكان هؤلاء يعيشون عيشة الفقر والذل والحرمان، حتى إنهم عجزوا عن دفع دينهم الذي بلغ عام (١٦٦٢م) ألف قرش أسدي، فأمر قاضي المسلمين بتأجيل الدفع سنة كاملة، ورضي الدائنون - وهم من المسلمين - بهذا التأجيل

على شريطة أن يضع اليهود بيدهم رهناً، فرهنوا كنيسهم الكبير الكائن بحوش السيرجاني بحارة اليهود.

ونرى بعد ذلك بست سنين (١٦٨٨م) أن عدد اليهود لم يكن سوى مائة وخمسين.

إنشاء دولة لليهود وازدياد أعدادهم في القدس:

وإذا أردنا أن نتابع الإحصائيات الرقمية لعدد اليهود في القدس وفلسطين بعد ذلك، وخاصة في مطلع القرن التاسع عشر (ما بعد ١٨٠٠م) نرى ونلمس فرقاً كبيراً.

فقد انتقل العدد الإجمالي لليهود من المئات إلى الألوف بل إلى عشرات الألوف... وذلك نتيجة طبيعية للفكرة اليهودية التي تبناها رجال السياسة الإنجليز أمثال اللورد (بالمرستون) و(بيكونسفيلد) في إنشاء دولة إسرائيلية في فلسطين تحميها بريطانيا وتؤمن طريق الهند.

وقد أذكت هذه النظرية أحلام اليهود، وأحيت آمالهم في إعادة تجميعهم من عالم الشتات، الذي عانوا منه الأمرّين عقوداً طويلة، وولّد في أنفسهم انغلاقاً مقيتاً، وفي نفوس شعوب العالم كراهية وحقداً... فراحوا يروجون لفكرة الدولة اليهودية بين طبقات يهود العالم، وصادفوا في ذلك نجاحاً وإصراراً.

احصائيات وأرقام:

ويسجل لنا الأستاذ (محمد محمد حسن شراب) إحصائية لعدد اليهود في تلك الفترة فيقول:

كان عدد اليهود في فلسطين كلها في النصف الأول من القرن التاسع عشر حوالي ثمانية آلاف يهودي كما ذكر موسى حاييم منتفيوري الثري الإنجليزي اليهودي، وكانوا موزعين على أربع مدن: هي القدس وطبريا والخليل وصفد.

وفي سنة (١٨٤٥م) بلغ عددهم في فلسطين نحو (١٢،٠٠٠) يهودي.

وفي سنة (١٨٨٢م) بلغ عددهم (٢٤،٠٠٠) يهودي في فلسطين كلها.

وفي سنة (١٨٩٠م) بلغ عددهم (٤٧،٠٠٠) يهودي في فلسطين كلها.

وفي عام (١٩٠٠م) بلغ عددهم (٥٠) ألف يهودي في فلسطين كلها.

وفي سنة (١٩١٤م) بلغ عددهم (٨٥) ألف يهودي في فلسطين كلها.

وفي سنة (١٩١٦- ١٩١٨م) بلغ عددهم (٥٦) ألف يهودي في فلسطين كلها، ونقص عددهم في هذه الحقبة بسبب الحرب العالمية الأولى.

وفي سنة (١٩٢٢م) بلغ عددهم (٨٣) ألف يهودي فعادوا إلى الزيادة مع العهد البريطاني، وكانت نسبتهم تساوي (١١%) في فلسطين كلها.

مساع يهودية حثيثة للاستيطان:

ولا شك أن هذه الزيادة المضطردة في تواجد اليهود في القدس وفلسطين رافقها سعي حثيث لامتلاك الأراضي وتثبيت الوجود.

وقد دلت بعض المحفوظات الملكية المصرية التي توثق فترة دخول جيش محمد علي باشا فلسطين، أن تصريحاً من الحاكم المصري للقدس صدر بترميم كنيس اليهود على شرط أن لا يزاد شيء على المباني القديمة.

كما أن مجلس الشورى الذي ينظم شئون القدس في تلك الفترة - وكان أحد أعضائه يهودياً - تلقى طلباً من اليهود بالسماح لهم بتملك الأراضي والمصابن والمعاصر، وممارسة التجارة بالحيوانات وزراعة المحاصيل، فرفض مجلس الشورى طلبهم ولم يسمح لهم بغير الاشتغال بالتجارة، ولما رفع القرار إلى محمد علي باشا أجاب على الطلب بقوله: لا يسمح ببيع الأراضي في القدس ونواحيها إلى اليهود الأجانب نظراً لعدم وجود سوغ شرعي لهذا العمل...

وقد أصدرت الحكومة التركية عام (١٨٨٢م) قانوناً حرمت فيه الهجرة اليهودية وشراء الأراضي مطلقاً، ثم بعد تدخلات دولية عادت فسمحت لهم بالدخول للعبادة والبقاء ثلاثة أشهر فقط، وكان هذا التراجع خطأً فادحاً.

وعد بلفور... والهجرة المفتوحة:

وفي ظل الاحتلال البريطاني وجد اليهود الملاذ الآمن والرعاية المثلى، فاكتسبوا من الإنكليز أمرين اثنين كانا من أسوأ وأشد الأمور على المسلمين في فلسطين:

أولهما: الوعد المشئوم الذي منحه الإنجليز على لسان وزير خارجيتهم اللورد بلفور إلى اليهود بوساطة زعيمهم روتشيلد في (٢ تشرين الثاني عام ١٩١٧م).

إذ أرسل إليه خطاباً نصه: عزيزي روتشيلد، يسرني جداً أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك بأن حكومة جلالته تنظر بعين الرضا إلى إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وتبذل الجهود في سبيل ذلك، على أن لا يجري شيء يضر بالحقوق الدينية والمدنية لغير اليهود في فلسطين، أو يضر بما لليهود من الحقوق والمقام السياسي في غيرها من البلدان.

هذا الوعد الذي قوبل بالرفض الشديد والقلق العميق في فلسطين، وعموم بلدان المسلمين وشاركهم فيه من كان معهم من المسيحيين.

وثانيهما: أن أبواب الهجرة اليهودية إلى القدس خاصة وفلسطين عامة فتحت على مصراعيها، فارتفع عدد اليهود في نهاية عهد الانتداب الإنجليزي إلى ستمائة ألف يهودي في فلسطين كلها، منهم مائة ألف يهودي في مدينة القدس وحدها، ونتج عن ذلك أن أصبح لليهود عدد كبير من الكنائس والمدارس والمستشفيات، وأصبح وجودهم واضحاً للعيان، بل منافساً في كثير من الأحيان للوجود العربي الإسلامي في تلك الأرض المقدسة.

اليهود وحائط البراق (المبكى):

وإذا تتبعنا الحوادث التي تدل على محاولة اليهود إثبات الذات في القدس في الفترة الأخيرة، نرى أنهم لم يعرف لهم تجمع واضح لإعلان عباداتهم في منطقة معينة في القدس سواء عند حائط البراق أم غيره، إلا في عهد إبراهيم باشا ابن محمد علي.

فقد كانوا أولاً من قبل يقفون عند حائط البراق (المبكى) دون إحداث ضجيج، ولما اشتدت شوكتهم لصلتهم بإبراهيم باشا أصبحوا يعلنون عن وجودهم بالبكاء والعويل والصراخ - كما تقول الوثيقة المنقولة من المحفوظات المصرية عام (١٢٥٥ه - ١٨٣٩م).

وتفيدنا تلك المحفوظات الملكية أنه في (محرم ١٢٥٦ه - ١٨٤٠م) رفعت عريضة من اليهود إلى حاكم القدس بواسطة القنصل البريطاني تطلب السماح لأحد اليهود بتبليط زقاق البراق (عند حائط المبكى) تنفيذاً لنذر قطعه على نفسه، وبعد مداولات ومشاورات على مستوى متسلم القدس وغيره من المسئولين رفع الأمر إلى محمد علي باشا الذي أنهى الأمر بصورة قاطعة بأمره الذي أرسله إلى إبراهيم باشا يقول فيه: (بوجوب منع اليهود

عن تبليط البراق في القدس الشريف، وعن رفع أصواتهم فيه، وإبقاء القديم على قدمه عملاً بنصوص الشرع الشريف).

إفراغ القدس من المسلمين وشحنها باليهود:

وإذا ما أردنا أن نتابع قراءة إحصائية تهويد مدينة القدس، وتغيير تركيبة سكانها من حيث نهاية الاحتلال البريطاني، ثم قيام دولة إسرائيل، نرى أنه في عام (١٩٦٧م) وهو عام احتلال الجزء الشرقي من القدس والضفة الغربية وسيناء بلغ عدد اليهود في القدس وحدها (١٩٨ ألفاً) بزيادة مائة ألف عن نهاية الاحتلال البريطاني، ثم ارتفع هذا العدد إلى (٢٦٠ ألف) يهودي عام (١٩٧٥م)، بينما بلغ العدد عام (١٩٩٣م) (٤٠٦ آلاف) يهودي في القدس و (٤٢٠ ألفاً) عام (١٩٩٨م)... فإذا ما تذكرنا أن كل وسائل الضغط والتهجير والقتل والتخويف مورست ضد المسلمين في القدس وغيرها فيما بين (١٩٤٨ وحتى الآن) مما دفعهم إلى هجرات متتالية نرى كيف يتم إفراغ مدينة القدس من المسلمين ضمن خطة مدروسة ماكرة.

مجاملات عثمانية خطيرة:

ومما يعجب له المرء أن كل أوامر المنع والتضييق على غير المسلمين فيما يخص ملكيتهم للقدس، لم تمنع بعض المسئولين أن يتقرب إلى اليهود أو البريطانيين ببعض الأراضي أو الأماكن في القدس مما لا نجد له تفسيراً منطقياً أبداً.

وأبرز مثال على ذلك أن العثمانيين أهدوا الفرنسيين سنة (١٢٧٣هـ) المدرسة الصلاحية التي أوقفها صلاح الدين مدرسة فحولوها إلى كنيسة.

وفي سنة (١٨٦٨م - ١٢٨٥هـ) أهدى السلطان عبد العزيز ولي عهد بروسيا فردريك ويلهام جزءاً من البيمارستان الذي أوقفه كذلك صلاح الدين، فأنشأ عليه الألمان كنيسة المخلّص (أو الدباغة).

وأثناء زيارة الإمبراطور الألماني غليوم الثاني للقدس عام (١٨٩٨م) أهدى إليه السلطان عبدالحميد قطعة أرض على جبل صهيون مساحتها دونمين فبنيت عليها كنيسته نياحة العذراء.

نقاط وحروف... في قضية القدس

ملف القدس زاخر:

استعرضنا في جولة مفصلة أوراقاً شتى تتعلق بالقدس تاريخاً وفضائل، ورجالاً وممالك، وأفراحاً وأحزاناً، وسقوطاً وتحريراً، وتهنئة وتعزية...

لقد فتحنا ملف القدس على مصراعيه فرأينا مسجدها ثاني مسجد وضع في الأرض بعد المسجد الحرام، ورأيناها مهاجر إبراهيم الخليل مع لوط عليهما السلام بعد أن ضاقت بهما أرض بابل، ورأيناها وهي تحتضن نبوة إسحاق ويعقوب والأسباط، ومُلْكَ داود وسليمان، وتوراةَ موسى وهارون، وعبادةَ زكريا ويحيى، ومعجزةَ مريم وإنجيلَ عيسى وإسراءَ محمد ومعراجه، على كل نبي منهم ألف ألف صلاة وسلام.

ورأينا في القدس رأي العين المسجد الأقصى درة القدس بل قبلة الأنبياء، بما فيه من مصلى جامع فوق المصلى المرواني، إلى جوار قبة الصخرة، والقباب الأخرى، فالمآذن الأربع الشامخة فوق أسوار المسجد، والأبواب الشهيرة في ذلك السور، والمساطب الفريدة التي لن تنسى حلقات العلم والدرس فوقها، فالمحاريب العديدة التي تزين المساطب، ثم الأسبلة الكثيرة وغير ذلك من المعالم والآثار.

ومر بنا التاريخ في ذكرياته القدسية بالفاتح الأول عمر بن الخطاب، وقائد جيشه أبي عبيدة بن الجراح، والصحابة الكرام والتابعين الأخيار الذين سجدت جباههم شكراً لله على ما أولاهم إياه من فتح باهر، جدده بعد حين كل من نور الدين الشهيد وخلفه صلاح الدين الأيوبي، ومن ورائهما أمراء المسلمين... تلك نظرة مجملة على الوقفات التي سبقت منا وسلفت.

محطات مهمة في القدس:

وإنني في ختام هذه الحلقات المسلسلة حول "المجد المنيف للقدس الشريف" أشير أخيراً إلى النقاط التالية:

أولاً: القدس محور الصراع:

أجمع كل المفكرين والمسئولين المسلمين في هذا الزمن على أن القضية الفلسطينية محور استقرار واضطراب المنطقة العربية المسماة (الشرق الأوسط)، وأجمعوا على أن القدس الشريف هي جوهر الصراع في هذه القضية الشائكة لما لها من أهمية قصوى عند المسلمين - وهذا ما يهمنا - وعند غيرهم من النصارى واليهود، فهي بالنسبة للمسلمين أرضهم التي يعيشون عليها ويملكونها حالياً، وهم أصحابها وسكانها، ثم إنها في نظرهم مدينة ارتبطت بها كثير من الحوادث الهامة في تاريخهم منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة، وهي كذلك قبلتهم الأولى ومعراج نبيهم وإسراؤه ومجمع الأنبياء ومدفنهم ومأرز الصالحين ومعتكفهم، وهي عندهم أرض المحشر والمنشر، وهي عندهم موطن الطائفة المنصورة في الدين... إلى غير ذلك من الاعتبارات الدينية العديدة.

فإذا ما ضم إلى ذلك موقعها الجغرافي الهام في وسط بلاد المسلمين وكونها ذات خيرات وفيرة وطبيعة خلابة وجو معتدل وساحل على البحر المتوسط طويل وإطلالة على البحر الأحمر مهمة.

إذا ما جمع ذلك كله استخلصنا حقيقة لا مراء فيها ولا جدال وهي أن حياتنا ووجودنا كأمة عربية مسلمة وتطورنا ووحدتنا في المستقبل وإحساسنا بالأمن والاستقرار في بلادنا وعلى أولادنا مرتبط ارتباطاً وثيقاً وأساسياً بفلسطين والقدس والمسجد الأقصى، وهذا ولا شك مما أثار الحاجة وأكدها للحديث عن "المجد المنيف للقدس الشريف).

ثانياً: اليهود مصدر اضطراب وقلق للمنطقة:

إن خطط اليهود الرامية ليس إلى احتلال فلسطين وحدها، بل إلى احتلال ما بين الفرات إلى النيل من أراضٍ عربية مسلمة، بل إلى إخراج أهل هذه المنطقة منها وتهجيرهم وتحقيق المعادلة اليهودية التي تنادي بأن هذه أرض لا شعب فيها يسعى إليها شعب لا أرض له، بل إلى تحريف الوثائق المادية والحقائق التاريخية مما يتعلق بفلسطين والقدس... كل هذا لم يعد خافياً ولا مستوراً ولا مستحى منه... وإذا أردنا أن نتتبع بعض... أكرر بعض الأدلة... وليس جميعها، نسوق بعض الإحصائيات والوقائع على الوجه التالي:

استيطان يهودي مفتوح في القدس:

القدس قدسان : شرقية (وهي المدينة القديمة) وغربية (وهي الأحياء الحديثة التي غالب أهلها من اليهود:

أ) بلغ عدد الوحدات السكنية اليهودية في القدس الشرقية اثنتي عشرة مستعمرة يهودية تحيط بالمدينة الشرقية قرابة خمسين ألف وحدة سكنية يضاف إليها اثنتي عشرة ألف وحدة سكنية مقترحة، وهذا ولا شك يقصد به تغيير الوضع السكاني للمدينة ليصبح اليهود أغلبية ساحقة فيها.

الإعتداء على المقدسات الإسلامية:

ب) بعد احتلال اليهود لأجزاء من أرض فلسطين عام (١٩٤٨م) تم تدمير أكثر من (١٢٠٠) مسجد والاعتداء عليها ولم يبقَ منها في ما يسمى مناطق ال(٤٨) أي الأراضي التي احتلها اليهود بعد ذلك العام إلا ما يقارب (١٠٠) مسجد إلى الآن لم تَسْلم من بعض الاعتداءات والإهانات. وقد أورد كتاب (القدس لنا) أمثلة لذلك.

يقول: قامت المؤسسات الرسمية اليهودية بتحويل بعض المساجد إلى كنيس يهودي، كمسجد العفولة ومسجد طيرة الكرمل ومسجد أبوالعون، وبعضها حوّل إلى خمارة كمسجد قيسارية، وناد ليلي كمسجد السكسك في منطقة يافا ومسجد عسقلان ما زال يستعمل كمطعم ومتحف، وغيرها الكثير الكثير. وفي القدس تم تغيير الكثير من معالم قبور المسلمين وكتبوا عليها كتابات عبرية، فبعضها زعموا أنه ضريح (شمشوم الجبار) وآخر قبر الصديق (دان بن يعقوب) وقبر النبي (الياهو) حسب زعمهم... وكشفت صحيفة هاآرتس اليهودية ضمن تقرير مفصل حول الاعتداءات اليهودية على المساجد والمقابر، وجاء التقرير بعد الاعتداءين اللذين اكتشفا بحق مسجد البحر في طبرية ومسجد وادي الحوادث في منطقة الساحل حيث قام يهودي حاقد ليلة الخميس الموافق (٣/٢/٢٠٠٠م) بهدم المسجد بشكل كلي، وذكر التقرير أن اليهود المتدينين حولوا العديد من مقابر المسلمين إلى مزارات لليهود بعد أن كتبوا على جدرانها كتابات باللغة العبرية.

المساجد المتضرر الأكبر:

ج) وتفصيلاً لما سبق وبياناً موضِّحاً للاعتداءات على المساجد الإسلامية نسوق أسماء أربعة عشرين مسجداً تناولتها إهانات اليهود في مناطق احتلت بعد عام (١٩٤٨م)

وهي: مسجد العفولة ومسجد كفريتا ومسجد طيرة الكرمل - قضاء صيفا - ومسجد مقام يعقوب - صفد - مسجد وادي حنين - قضاء الرملة - حول كل منها إلى كنيس يهودي، أما مسجد البصة - قضاء عكا - ومسجد عين الزيتون - قضاء صفد - فحول أحدهما إلى حظيرة للخراف والآخر للبقر، وأما مسجد عين حوض - قضاء حيفا - والمسجد الجديد في قيسارية - ساحل حيفا - والطابق العلوي من مسجد السكسك - يافا - وجزء من مسجد مجدل عسقلان وسقف مسجد المالحة - القدس - فحول كل منها إلى مطعم وخمارة وناد ليلي، وأما المسجد الأحمر - صفد - ومسجد السوق - صفد - ومسجد الخالصة - كريات شمونة - والمسجد الكبير - بئر السبع - فمحول كل منها إلى متحف أو ملتقى للفنانين أو معرض للصور، وأما مسجد البرج - عكا - فمحول إلى مكاتب لشئون الطلبة الجامعيين، ومسجد القلعة - صفد - فمحول إلى مكاتب لبلدية صفد، ومسجد الدار البيضاء غربي نين - غربي محطة الوقود - فمحول إلى مكاتب. والمسجد القديم في قيسارية - ساحل حيفا - فمحول إلى مكاتب لمهندسي شركة التطوير، والمسجد الصغير في بئر السبع فمحول إلى دكان لشخص يهودي. ومسجد الطابية مغلق ويستخدمه أحد النصارى مسكناً له، ومسجد الزيب - قضاء عكا - حول إلى مخزن للأدوات الزراعية لمنتزه أخزيف، ومسجد الحمة - الجولان - مغلق ويستخدم مخزناً لمطعم قريب منه يخزن فيه الخمور ومواد المطعم.

تهويد الأرض والأسماء والتعليم:

د) وتنصب محاولات اليهود الأخرى في تهويد القدس على استعمال الإرهاب بما فيه هدم العقارات كوسيلة لطرد سكن المدينة، وعلى تجميد تنفيذ أحكام المحاكم الشرعية الإسلامية، وعلى مصادرة الأراضي حتى بلغت الأراضي المصادرة في القدس (١٣١) ألف دونم، وعلى استبدال أسماء الكثير من الساحات والشوارع العربية بأسماء يهودية، وعلى نقل الوزارات والمؤسسات إلى القدس الشرقية لترسيخ مبدأ أن القدس عاصمة أبدية لليهود، وعلى إبعاد المواطنين الناشطين ضد الاحتلال، وعلى إخضاع التعليم العربي للإشراف اليهودي، وغير ذلك من إجراءات إدارية وتجارية وإعلامية.

حارة المغاربة وصمة عار لليهود:

هـ) كان أول عمل قام به اليهود بعد احتلالهم مدينة القدس سنة (١٩٦٧م - ١٣٨٧هـ) الاستيلاء عنوة على حائط البراق، ثم عمدوا إلى حارة المغاربة فأطلقوا فيها الجرافات التي قامت بتسويتها في الأرض تحديداً في اليوم الرابع بعد احتلالهم القدس، و لم تترك في حارة المغاربة أثراً أبداً. وتنج عن ذلك تشريد (١٣٥) عائلة من أبناء حارة

المغاربة المسلمين، عدد أفرادهم (٦٥٠) فرداً، كما تم نسف (٣٤) داراً أخرى مجاورة ومصنعاً للبلاستيك وشرد سكانها وعمالها البالغ عددهم حوالي (٣٠٠) فرداً آخرين... ومن الضروري أن نبين أنه كان في حارة المغاربة قبل أن تهدم أربع جوامع والمدرسة الأفضلية وأوقاف أخرى... وقد حولت هذه الحارة الإسلامية التراثية التي كانت دائماً تشير إلى تعلق المسلمين من أهل الغرب بالقدس وارتباطهم بها وحبهم لها كإخوانهم الشرقيين إلى ساحة لحائط المبكى اليهودي (حائط البراق).

ثالثاً: المسلمون لا ينسون القدس ولا ييأسون من تحررها:

يشعر المسلمون كافة في كافة بلدانهم وفي جميع أوقاتهم بخطورة بقاء القدس تحت الاحتلال اليهودي، وهم دائماً وأبداً يتنادون فيما بينهم ويقررون في مختلف تجمعاتهم ومؤتمراتهم ومؤسساتهم وهيئاتهم وجوب العمل الفردي والجماعي بجميع صوره لتخليص القدس وفلسطين وسائر بلاد المسلمين من رجس اليهود الغاصبين... وعلى سبيل المثال والتذكير فإن المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الإسلامية التابع للأزهر الشريف، المنعقد في القاهرة عام (١٩٦٨م) جاء في قراره الرابع ما يلي:

(يهيب المؤتمر بالمسلمين في كل مكان ألا يغفلوا لحظة عم واجبهم الديني في تخليص بيت المقدس وسائر الأرض المحتلة، والحفاظ على قداسته وعروبته، فهو أول القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ومسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعراجه، ومثوى الشهداء من صحابته... ويؤكد المؤتمر الفتوى الدينية الصادرة من علماء المسلمين وقضاتهم ومفتيهم في الضفة الغربية بالأردن بتاريخ ١٧ جمادى الأولى سنة (١٣٨٧هـ) الموافق ٢٢ أغسطس سنة (١٩٦٧م) والمتضمنة أن المسجد الأقصى المبارك بمعناه الديني يشمل المسجد الأقصى المبارك المعروف الآن ومسجد الصخرة المشرفة والساحات المحيطة بها وما عليه السور وفيه الأبواب، وأن العدوان على أي جزء من ذلك يعتبر انتهاكاً لحرمة المسجد الأقصى واعتداء على قدسيته، وأن الحرم الإبراهيمي في الخليل مسجد إسلامي مقدس وكل اعتداء على أي جزء منه يعتبر انتهاكاً لحرمته وقدسيته).

ومثل هذه القرارات المعبرة عن بعض ما يجيش في نفوس المسلمين تكرر أكثر من مرة. ففي المؤتمر السادس لمجمع البحوث الإسلامية المنعقد سنة (١٩٧١م/١٣٩١هـ) جاء قول المؤتمرين:

(يؤكد المؤتمر قراراته السابقة بأن الجهاد بالنفس والمال أصبح فرض عين على كل مسلم ومسلمة، ولذلك يدعو المؤتمر المسلمين جميعاً أينما كانوا إلى النفير العام)...

وأضاف المؤتمر:

(إن المسجد الأقصى المبارك وسائر المقدسات الإسلامية ملك للمسلمين جميعاً لا يملك أحد التصرف فيها أو الانتقاص من قدسيتها، وأن كل حل لا يعيد جميع الأراضي المحتلة إلى العرب وفي مقدمتها مدينة القدس بكاملها - سيادة وإرادة - هو حل مرفوض جملة وتفصيلاً، كما أن فكرة تدويل القدس بأية صورة من الصور مرفوضة كرفض تهويدها).

رابعاً: الحديث عن القدس جهاد بالكلمة والحرف:

إن الاهتمام بتاريخ بيت المقدس وإطلاع الناس على أمجاد تلك البلدة العظيمة المقدسة قديماً وحديثاً عمل جليل، وضرب من ضروب التذكير بحقوق المسلمين، وهذا ما حاولت بذل الجهد بصدده، وتجريد القلم واللسان لأجله، فأسأل الله سبحانه أن يجعل عملي هذا (المجد المنيف للقدس الشريف) في ميزان حسناتي، وأن يكون خالصاً لوجهه الكريم، إنه على ما يشاء قدير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

تم تنـــزيل هذه المادة من

منبر التوحيد والجهاد

http://www.tawhed.ws
http://www.almaqdese.com
http://www.alsunnah.info